

الطبعة الثالثة

ضَحَايَا

قُرَيْبَةُ الْعَنْقَاءِ

رواية

ريم غدير الشمري



ضمایا قریة
العنقاء

© دار الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمري، ريم غدير فهيد
ضحايا قرية العنقاء. / ريم غدير فهيد الشمري - الدمام، ١٤٣٨هـ
.. ص .. ؛ سم
ردمك: ٧-٦٣-٨٢٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٠٣٩٥٣١، ٨١٣، ١٥٦٧/١٤٣٨

رقم الإيداع: ١٥٦٧/١٤٣٨
ردمك: ٧-٦٣-٨٢٠٣-٦٠٣-٩٧٨

مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع

الموقع الإلكتروني: www.daapd.com

دار الأدب العربي

@Services_Book

@Services_Book

دار الأدب العربي

adabarabic7

services_book@outlook.sa



مسؤول النشر:

للتواصل

0597777444

المملكة العربية السعودية - الدمام

التجهيز الفني مركز خدمة المؤلفين



للتواصل:

مصر - الجيزة: 00201120102172

الحقوق محفوظة: لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق
استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

جميع العبارات والأفكار الواردة في الكتاب تعبر عن
وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر.

ضحايا قرية العنقاء



تأليف
ريم غدير الشمري

الطبعة الثالثة
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

المحتويات

٩	الإهداء.....
١١	اقتباسات.....
١٣	الفصل الأول.....
٢١	الفصل الثاني.....
٢٧	الفصل الثالث.....
٣١	الفصل الرابع.....
٤٥	الفصل الخامس.....
٥٣	الفصل السادس.....
٦٥	الفصل السابع.....
٧٣	الفصل الثامن.....
٧٧	الفصل التاسع.....
٨١	الفصل العاشر.....
٨٧	الفصل الحادي عشر.....
٨٩	الفصل الثاني عشر.....
٩٧	الفصل الثالث عشر.....
١٠٥	الفصل الرابع عشر.....
١١٥	الفصل الخامس عشر.....
١٢٧	الفصل السادس عشر.....
١٣٥	الفصل السابع عشر.....

١٤١ الفصل الثامن عشر
١٤٩ الفصل التاسع عشر
١٥٧ الفصل العشرون
١٦٥ الفصل الحادي والعشرون
١٦٩ الفصل الثاني والعشرون
١٧٥ الفصل الثالث والعشرون
١٧٩ الفصل الرابع والعشرون
١٨٥ الفصل الخامس والعشرون
١٩٣ الفصل السادس والعشرون
١٩٧ الفصل السابع والعشرون
٢٠٣ الفصل الثامن والعشرون
٢١١ الفصل التاسع والعشرون
٢١٩ الفصل الثلاثون
٢٢١ الفصل الحادي والثلاثون
٢٢٥ الفصل الثاني والثلاثون
٢٣١ الفصل الثالث والثلاثون
٢٣٧ الفصل الرابع والثلاثون
٢٤٥ الفصل الخامس والثلاثون
٢٤٩ الفصل السادس والثلاثون
٢٥٣ الفصل السابع والثلاثون
٢٥٧ الفصل الثامن والثلاثون
٢٦١ الفصل التاسع والثلاثون
٢٦٧ الفصل الأربعون

٢٧٣ الفصل الحادي والأربعون
٢٧٧ الفصل الثاني والأربعون
٢٨٧ الفصل الثالث والأربعون
٢٩٣ الفصل الرابع والأربعون
٢٩٧ الفصل الخامس والأربعون
٣٠٣ الفصل السادس والأربعون
٣٠٧ الفصل السابع والأربعون
٣١٣ الفصل الثامن والأربعون
٣١٩ الفصل التاسع والأربعون
٣٢٧ الفصل الخمسون
٣٤٣ الفصل الحادي والخمسون
٣٤٧ الفصل الثاني والخمسون
٣٥٧ الفصل الثالث والخمسون
٣٦٣ الفصل الرابع والخمسون

الإهداء

ليس إلى كل مخلوق حي على وجه هذه البسيطة ، ، !

بل إلى كل كائن بشري ، ،

يمتلك مشاعرَ تائرة في قلبه ، ،

تنبض بالإنسانية ، ،

اقتباسات

الإنسانية هي ألا يتم التضحية بإنسان في سبيل غاية،،

ألبرت شفايتزر

إن أية جريمة أو إصابة، بغض النظر عن القضية، ارتكبت أو سببت لشخص آخر هي جريمة ضد الإنسانية،،

المهاتما غاندي

لن يعثر المرء على السلام،، إلا عندما يوسع من دائرة تعاطفه لتشمل جميع الكائنات الحية،،

ألبرت شفايتزر

أولئك الضعفاء العديمو الفائدة لا يستحقون العيش
.. لقد انتهت صلاحيتهم!

الحداد عصام



الفصل الأول

رفع الضابط الأصلع يديه عالياً لتحية الجمهور وسط تصفيق الأيدي وهتافات الإعجاب ونزل مزهواً بنفسه من المنصة حتى تواري خلف كواليس المسرح .

كانت تقام في مقر شرطة العاصمة بين الفينة والأخرى عروضٌ مسرحية وفقرات مسلية لترفيه الضباط والترويح عنهم تقوم بها فرق مسرحية وقد يشارك فيها أفراد الشرطة والضباط أحياناً ..

التفت أحد الحاضرين إلى الضابط الجالس بجانبه الأيمن وقال :

- إنَّ رعداً لم يكتفِ بكونه ضابطاً بل إنه ممثل بارع ..!
- أجل .. لقد فاجأني ذلك بكومة الملابس التي يرتديها، صوته، مشيته يبدو وكأنه شخص آخر!
- نعم صحيح ..

بينما همَّ الجميع بالخروج .. بقي المعجب فاتحاً فمه باندهاش، فتوجه نحو الرجل الجالس عن يساره وكفَّاه ما زالتا تصفقان بعضهما بعضاً من فرط الحماس والانبهار، فقال له وقد كان ضابطاً أيضاً :

- عظيم .. عظيم .. أليس كذلك، ما رأيك؟
- لم يجبه الضابط .. بل نهض بصمت وكأنه لم يستمع للسؤال أصلاً!
- استاء المعجب من ردة الفعل اللامبالية وظل يحدق بغضب في ظهره وهو يتعد خارجاً حتى غاب عن ناظره ..
- واساه الرجل الذي كان عن يمينه وهو يحك رأسه قائلاً بلطف :
- لا بأس، لا تهتم بشأنه ..
- رمقه المعجب بغضب وقال باستهجان :
- من يظن نفسه هذا النكرة؟
- تنحى الضابط مبتسماً وقال :
- لا تقل لي إنك تقصد الضابط ساري؟! يبدو أنك لا تعلم عنه شيئاً فهو من أشهر الضباط شجاعة وأذكاهم .. وقد أحرز المركز الأول على دفعته ويعتبر من رجال المهمات الصعبة بل حتى إنَّ الملك نفسه طلب ضمه ضمن الحرس الشخصي بيد أنه اعتذر رغبة منه في البقاء في مركزه الحالي كضابط بأعلى طبقة في سلك شرطة الدولة وهي طبقة النخبة ..
- فخامة الملك نفسه! غريب .. والأغرب أنه سمح له بالبقاء حيث أراد.. يبدو أنك تعرفه جيداً ..؟
- ليس تماماً فهو منعزل جداً ويصعب الحديث معه ..

عدل الرجل المعجب وقد كان شرطياً مغموراً من وضعية جلوسه وقال
باهتمام أكثر :

- وماذا تقصد بضابط النخبة؟
- طبقة النخبة هي أعلى طبقة في شرطة العاصمة لبلاد (جهمارا) ولا يصلها إلا القلة فقط ممن تجاوزت إنجازاتهم الفردية فوق ثلاثمئة إنجاز، لذلك معظمهم من الخبراء كبار السن ولا يوجد من الشباب إلا اثنان فقط لمواهبها الخاصة وهما ضابط النخبة رعد الذي تفوق في التمثيل والتنكر واستخدم هذه الموهبة الفذة في العمل والآخر ضابط النخبة ساري ذو العقلية المتميزة جداً والذكاء الحاد الذي يمكنه من الاستمتاع بالتحقيق في القضايا الشائكة بشكل سري وسريع ..
- ثلاثمئة إنجاز فردي .. صعبة جداً، لا بد وأن مكافآتهم المادية عالية جداً؟
- بالطبع، فعلى كل مهمة يتقاضون ما يتراوح بين الأربعمئة والخمسمئة ألف درهم، ولهم قصور بنتها الحكومة وحرس شخصيون وتأمينات صحية في أرقى مستشفيات دولة (جهمارا) وغيرها من المميزات ..
- حياة مرفهة جداً .. وأين حرسهم؟ لا أرى شيئاً!
- بحسب ما سمعت فإن ضباط النخبة لا يسمحون لهم بالالتصاق بهم ومرافقتهم خلال الأنشطة والاجتماعات الخاصة .

رفع المعجب كتفيه وحاجبيه باستهجان وقال بنبرة لم يفارقها الحسد :

- لذلك هذا الوغد متكبرٌ على الآخرين ..

- لا أظن ذلك .. فهو منذ التحق بشرطة العاصمة وحتى عندما أصبح ضابطاً تستطيع عدّ كلماته في اليوم .. يبدو أن هذا طبعه ..

- طبع سييء ..

مع أن الضابط كان موافقاً لقول الشرطي المعجب إلا أنه اكتفى بالصمت مبتسماً ..

* * * *

... من ذاكرة قرية العنقاء (قبل تسع سنوات) ...

كان سكون الليل يلف قرية العنقاء وكأن امرأة بدينة قد ارتدت ثوباً
قاتماً وتربعت على أسطح المنازل بلؤم ..

تعالت في أحد هذه المنازل صيحات غلام في الثالثة عشرة من عمره وسط
الظلام .. وقد رُبطت قدماه وكفاه ثم أسند على كرسي خشبي بال والسياط
تهجم عليه لترك آثار سطوتها الملتهبة على جسده الهزيل .. لو كان الكرسي
يملك ثمة روحاً لفرّ هارباً آخذاً معه تلك العظام المضطهدة فوقه رحمةً بها ..

كان الحداد عصام ضخم الجثة غليظ اليدين، أما شعره الجعد فقد أحاط
بجمجمته ملتصقاً بها .. مشى إلى الأمام وأنار السراج ثم انحنى بجسده
البدين ليتحدث في أذن الغلام .. لم يكن ابنه النحيل قد ورث منه سوى
خشونة الشعر أما ما تبقى من جيناته الوراثية فقد انصاعت لصفات والدته،
همس مخرجاً زفرات حارة تحرق أذن ابنه الهزيل :

- حسناً هذه السياط هي كالتهيئة أو .. مم .. ماذا أسميها؟! أجل .. مثل
المقبلات قبل الوجبة الرئيسية، بالأمس أطفأت السجائر في ظهرك،
والأسبوع الماضي تركت أسياخ الشواء المحمّاة فوق بطنك وقبلها ..

شرع الأب بسرده بطولاته الضارية على جسد ابنه المنهك .. بينما كان
حمد مطرقاً وقد تدلى رأسه من على رقبتة النحيلة، حاول تحريك أصابع يديه

ورجليه فلم تستجب له، تنهد بألم عندما أيقن أن الضغط زاد فيها وتجمع الدم بفعل الحبال الخشنة ..

فكر بيأس .. فهو حتى لو صاح مستنجداً بأعلى صوته لن يسمعه أحد بحكم أن منزله يقع في طرف التل الكبير الفاصل بين المنطقة الوسطى والجانب الشرقي من القرية حيث إن المنازل متباعدة لوجود المقبرة الكبيرة في أعلى التل أيضاً ..

طرأت له والدته المتوفاة ونظر إلى عينيها بخياله ففاضت مدامعه وأخذ ينشج بألم .. كم أراد لها أن تستمع لصوته ويبوح لها بمعاناته مع والده القاسي ولكنها توفيت منذ فترة ليست بالقريبة ..

عندما كان في السابعة من عمره لم يكن والده بهذه القسوة وطالما تساءل في نفسه عن هذا التحول المتطرف فلم يجد إجابة .. أدرك حينها أن والدته لن توقف هذا التسلط وهذه الحلقات المتتالية والمتجددة من قسوة أبيه ..

تذكر أطفال القرية عندما يلعبون بعضهم مع بعض سعداء أما هو فكالعبد الذي طوقت رقبتة السلاسل وأمضى نهاره في توصيل أعمال والده للزبائن ليعود ليلاً كي يحظى بنوع أحدث وإصدار جديد من صنوف التعذيب ..

وبينما كان يشهق من شدة الألم وصعوبة التنفس .. ضحك والده بصوت عال معدداً بفخر جرائمه في حق ابنه الوحيد! ثم قال :

- لماذا دائماً ترتكب الأخطاء في توصيل الطلبات؟ في التعامل مع الناس؟ في كل شيء .. أنت فاشل وضعيف لم تكن كما رسمتك في مخيلتي عندما وُلدت كنتُ أرى فيك شهماً بطلاً قوياً، فإذا بي أضطر إلى تحمل أخطائك والاعتذار من الناس عما تسببه من إزعاج .

(أولئك الضعفاء العديمو الفائدة لا يستحقون العيش ..

لقد انتهت صلاحيتهم)!

فتح حمد عينيه على اتساعها وهو يستمع لهذا التهديد .. نظر بمقلة راجية إلى والده الذي أخرسه بتتمة كلامه :

- الضعف والعجز يكونان في الروح كما يكونان في الجسد .. ومن رداءة حظي أن ابني حظي بهما معاً .. ليس من العدل أن يكون هناك شخص قوي وقادر ثم يجمع ثمار جهده ونجاحه ليضعهما في فم عاجز لا يستحقها .. هذا هو عين الغباء .. من لا يستطع كفالة نفسه لماذا إذاً يتعلق بذيول المجتمع ليحصل على فتات القادرين؟ وما الفائدة المرجوة من بقاء ذوي العاهات أحياء؟

الجواب هو : لا يوجد ..

قال عبارته الأخيرة مشدداً على حروفها وهو يقترب من ابنه إلى أن صار خلفه، ارتجف الصغير رعباً حتى بلل ثيابه بينما كان والده يحل رباطه .. صرخ به مزجراً وهو ينظر إليه :

- قف على قدميك حالاً! وإلا جعلت هذه الليلة آخر صفحة من حياتك ..

حاول حمد أن يقف على قدميه ولكن ما زالتا منتفختين متورمتين .. وقد فعلت بهما آثار الحبال الأفاعيل، فسقط أرضاً ..

زفر والده وركله بقدمه على رأسه حتى فقد الوعي .. لم يدُر بخلد عصام

أن خرافة العنقاء قد تتجسد في ابنه .. فهي تعيد نفسها من رمادها لتولد
من جديد ..

أما حمد فقد تمسك بآخر خيط من خيوط حياته التعيسة .. ليجعل هذه
الليلة نهاية لمأساته .. وبداية لمأساة ضحايا بريئة بعد تسع سنوات ..!

* * * *

الفصل الثاني



جلس الضابط ساري في المقاعد الأولى المخصصة لضباط النخبة من الشرطة بعددهم القليل الذي لا يتجاوز العشرة فقط .. جالت عيناه السوداوان الباردتان بين الحضور فلم تقفا على أحد إلا الضابط رعد الذي اختار كرسيًا بعيداً عنه وظل يثرثر بفمه الطويل مع زملائه .. كانت القاعة رتيبة الشكل نوعاً ما وقد طليت جدرانها باللون الرمادي الباهت أما المصابيح فهي فخمة جداً ومعلقة بالسقف تتخللها زخارف جميلة بالمعادن الفضية وألماسات صناعية لامعة .

دار المضيف بكؤوس ممتلئة من أنواع عصائر الفواكه وقُدمت لهم قطع لذيذة من الحلوى الفاخرة التي لم يحبها الضابط ساري بل اكتفى بالإشارة للمضيف باسماً يده إلى الأعلى تعبيراً عن عدم رغبته ..

كان ساري طويلاً نحيلاً شديد البياض والشحوب كالموتى ذا وجه بيضوي يحيط به شعر أسود طويل يغطي جبهته تماماً وينزل عن كتفه .. بينما تلونت عيناه الواسعتان بلون الفحم وكان أكثر ما يميزهما بالإضافة لاتساعهما

هو نظرتها المظلمة القاسية .. حذق إلى المنصة الفارغة في شروء وتململ فقد
تأخر رئيس الشرطة عن حضور الاجتماع وكان بوذّه لو قام الجميع وترك له
القاعة ليخاطب نفسه عندما يعود .

جميع المقاعد خلفه خالية .. ويبدو أنها مخصصة للضباط المستجدين بعد
تكريمهم من رئيس الشرطة الذي لم يحضر!
لذلك .. أرخى ساري رأسه لتنساب خصلات شعره الأسود الناعم
حتى حجبت وجهه عن الأنظار ..

* * * *

بعد خمس عشرة دقيقة حضر رئيس الشرطة أيهم وأخذ يعتذر عن
التأخير.. كان مرن الحديث مبتسماً ذا شعر أشيب ويبدو أن صبغته لم تنجح
فغدا لون رأسه ولحيته كالبرتقال .. تحدث طويلاً عن مشاريع الدولة القادمة
ورغبتها في ضم بعض القرى النائية التي تعاون عُمدها وساكنوها مع
الحكومة طمعاً في تطوير أساليب حياتهم وتحسين معيشتهم .

توقف قليلاً وأمر أحد الضباط المساعدين بإحضار لوحة مُسندة على
أعمدة حتى يراها الحضور .. ثم قال :

- سأدون لكم هنا أسماء خمس قرى متعاونة معنا ثم سأ....

تذكر شيئاً فاعتذر ثانية :

- آه .. حسناً .. فلا يجدر بي الشرح قبل حضور الضباط الجدد .. إذا أيها السادة أقدم لكم أربعين خريجاً من كلية الضباط ويتقدمهم الخمسة الأوائل، بالترتيب ..

(هارون، جمال، أسعد، عارف، وأخيراً نبيل ..)

- دخل الخمسة وخلفهم البقية وأدوا التحية باجتهاد ثم جلسوا على المقاعد المخصصة لهم خلف مقاعد النخبة العشرة وهكذا أصبح مجموع الحضور المعنيين بهذه المهمة خمسين ضابطاً ..

بارك لهم رئيس الشرطة وأثنى على جهودهم ثم أعاد لهم ما تكلم به قبل مجيئهم وأكمل :

- إذا وكما ذكرت سابقاً فإن هذه القرى وكتب باللون الأحمر العريض :

قرية المشاتل، قرية السندان، قرية المناحل، قرية المعادن، وأخيراً قرية العنقاء ..

وفور نطقه اسم قرية العنقاء بدأت المهمة وأصوات الاستهجان الخافتة عند ضباط النخبة أما الجدد فقد كانوا ينظرون يمناً ويسرة وقد ازدادوا فضولاً ما لبث أن قشعه عنهم الرئيس أيهم :

- أتفهم مشاعركم ولكن عمدة قرية العنقاء أبدى استجابة ورغبة في الانضمام إلينا بعد أن رُفض طلبه سابقاً وبما أن القرية تزخر بالثروات الطبيعية والمعدنية فقد قبلت الحكومة بصدرٍ رحب بعد إعادة النظر في طلب العمدة ..

لذلك لا يسعنا إلا الانقياد لأوامرها وإرسال الضباط في مجموعات استكشافية حتى نتحقق من كون هذه القرية أو غيرها من الخمس قابلة للتطوير فعلاً ..

وجه رئيس الشرطة وجهه إلى مساعديه الضباط وظل يتحدث معهم قرابة خمس دقائق .. وفي أثناء ذلك رفع الضابط ساري رأسه ونظر إلى اللوحة وما أن ابتعدت عيناه عنها حتى أحس بيد تمسك كتفه بقوة من الخلف .. أدار رأسه فإذا بالضابط الجديد جمال يتسم وقد بدا كأنه طفل وديع برأسه المدور وشعره البني الحليق أما عيناه المتقدتان فكانتا بلون الزيتون الأخضر .. قال بصوت مرح :

- أنت .. على قيد الحياة إذاً .. يا إلهي لقد كنت كالجثة المرمية فوق الكرسي .
وضحك بينما تحدث الضابط الجديد الآخر هارون ذو العضلات المفتولة والفك القاسي والشعر البني الجعد، فقال وهو يقاتل نفسه لإخفاء ابتسامته :

- لا تبال بهذا الشقي فهو يجب صنع الدعابة لتلطيف الجو و...

قاطع الضابط ساري بحزم بصوت هادئ وعينين نصف مفتوحتين
موجهاً كلامه للضابط جمال :

- هلاً أبعدت يدك اللزجة عن كتفي قبل أن أنتزع أصابعها!

فتح الضابط جمال فاه مشدوهاً ولم يرمش .. أبعد يده مرتجفاً ووضعها في
حجره ثم أمسكها بيده اليسرى حتى يطمئن عليها أكثر وبقي يحدق في
رأس الضابط ساري بعد أن التفت إلى الأمام مرة أخرى ..

وكزه الضابط هارون مؤنباً وقال :

- لقد حذرتك سابقاً من التبسط مع الغرباء .

رد جمال بعد أن ابتلع ريقه :

- عيناه ..!

- ما بهما؟

- مظلمتان جداً .. لا أعلم لماذا سرت القشعريرة في كامل جسدي حينما
نظر إلي بهما!

صمت لبرهة وهو يتذكر التهديد من تينك العينين .. شعر حينها بتشاؤم
وكانه يُسحب إلى بوابة الهلاك ..



الفصل الثالث



أحضر المساعدون صندوقاً شفافاً يسير على عجلات وبداخله ظروف بيضاء مغلقة فتنحى رئيس الشرطة لجذب الانتباه ثم قال :

- لقد وضعنا أوراقاً ملونة بداخل المظاريف وأغلقت إغلاقاً محكماً وكل لون يرمز إلى قرية ..

ثم خطا خطوتين حتى أصبح بمحاذاة اللوحة المعلقة وكتب بخط كبير لا تُخطئه العين :

المشاةل : اللون الأخضر

المعادن : اللون الأسود

المناحل : اللون الأصفر

السندان : اللون البرتقالي

العنقاء : اللون الأحمر

ودعا الضباط ليختار كل منهم ظرفاً يُحدد وجهته ..
هَبَّ الضابطان هارون وجمال للاختيار حتى وصلا إلى الصندوق ..
وامتلاً المكان بالضجيج والأسئلة الفضولية عن الأماكن التي أصبحت
من نصيب كل واحد من الضباط .

سحب هارون أولاً ولم يفتحها حتى سحب جمال ظرفه ..

قال جمال ببهجة : بما أني لا أعرف هذه القرى كلها فالأمر سواء عندي
ولكني لا أحبذ العنقاء لما رأيت من الضباط القدامى من استهجان عند
ذكر اسمها ..

صمت هارون ثم قال :

- وأنا مثلك .. أتمنى أن أحظى بقرية هادئة وعمل سهل .

فتح الضابطان ظرفيهما في نفس الوقت .. صاح جمال صيحة تنمُّ عن
خيبة أمل وهو يمسك الورقة الحمراء بينما امتعض هارون بهدوء ..

تعالَت الضحكات وعبارات الاستهزاء في القاعة وقال بعضهم بصوت
بغيض شامت :

- يا للشؤم!

- ضابطان مستجدان ويُرسلان إلى قرية العنقاء ..
 - لو أن واحداً منهما اختار الظرف المتبقي لربما حالفه الحظ ..
- عادا إلى مكانها بخيبة وقام بعض أصدقائهما الجدد بمواساتهما والتهوين عليهما ..
- وفي أثناء ذلك قام الضابط ساري بوجه خالٍ من التعابير ليسحب آخر ظرف متبقٍ .. صمت من في القاعة في انتظار النتيجة .. أدخل يده البيضاء النحيلة ليخرج الظرف لكن أحد ضباط النخبة سبقه في سحبه مبتسماً وأشار بعينه إلى رئيس الشرطة إشارة ذات مغزى!
- ثم فتح الظرف ومضى في طريقه تاركاً ساري خالي اليدين ..
- تعالَت بعض الهمهمات فرفع عينيه الداكنتين ونظر إلى الضباط الفضوليين بتحدٍّ ولكن على العكس تماماً فقد أشاحوا عنه خوفاً وعم الصمت الطويل في القاعة .
- مر رئيس الشرطة بجانب ساري وهمس له بوضع كلمات ثم انصرف ..
- ليلتفت ساري ويشير إلى نفسه ثم يشير إلى هارون وجمال!
- نظر جمال بتوجس إلى صاحبه وقال بصوت خافت :
- هـ .. هل يقصد أنه معنا؟! ألا يكفي أن حظنا الرديء جعل هذه الأوراق الحمراء بيدنا .. والآن هذا الـ ..

قاطع هارون بصوت خفيض :

- أعتقد ذلك .. ولكن اخفض صوتك فأنت ما زلت في القاعة ..

هز جمال رأسه ببطء موافقاً وخرجا مع الخارجين بعد انتهاء الاجتماع وكل منهما يحاول رفع معنويات الآخر بسبب هذه المصيبة التي حلت عليهما!

كان الضابط ساري آخر من خرج من القاعة .. مشى بخطوات منتظمة غير مسموعة وأدار رأسه إلى الورا فأبصر رئيس الشرطة أيهم قد عاد إلى القاعة من باب آخر .. وكان يحاور الضابط رعد بجدية ولم تحمل يدا رعد أيّاً من الأوراق إذ يبدو أنه لم تكن هناك أظرف كافية .. كما حصل مع ساري قبل قليل ..

تلاشت ابتسامة رعد وهو يسمع توجيهات الرئيس ثم أوماً برأسه موافقاً وخرج من باب آخر ..

لم يرَ ساري ولا الضباط ولا عناصر الشرطة الضابط رعداً بعدها أو يسمعوا عنه شيئاً ..

لقد اختفى الضابط الممثل رعد من الوجود !..!

* * * *

الفصل الرابع



جلس بائع الحليب سليم ذو الشعر الأحمر بعنجهية وقال للصبية المتحلقين حوله بصوت مرتجف محاولاً جذب انتباههم - وقد نال ما أراد - :

- لم تكن الفتاة ذات الشعر الطويل متعاونة أبداً فقد حذرها والدها من الخروج في منتصف الليل ولكنها كانت متمردة أيضاً .. لأنها انتظرت عائلتها حتى غطوا في سبات عميق ثم فتحت باب منزلهم الصديق محاولة عدم إصدار صرير مزعج يفسد عليها خطتها .. لم يكن في القرية من أحد مستيقظ سواها فالوقت متأخر جداً، كانت ترتدي ثوباً بلون الخشب الباهت ولم تستطع ارتداء نعلها لأن والدها خبأها منعاً لخروجها ولكنها لم تأبه لذلك فقد سارت حافية القدمين حتى وصلت إلى شجرة الموت ..

قال صبي قد جف ماء وجهه من الخوف :

- شجرة الموت ..؟

أحس سليم بلذة اهتمامهم بقصته فابتسم حتى ظهرت أسنانه المترابطة بشكل قبيح :

- نعم .. تلك التي في أعلى التل فهي ذات ثمار مسمومة ويسكنها شبح متعجرف .. لقد وصلت الفتاة إلى تلك الشجرة، أمعنت النظر فيها فلم تلاحظ شيئاً غريباً سوى حجم الشجرة الضخم جداً، كانت الشجرة سوداء الجذع رمادية الأوراق، أما ثمارها فقد عَجَّت بالثقوب الخضراء المتعفنة .. ومع أن رائحتها كريهة إلا أن الفتاة قضت منها قضمة ولما لم تستسغ مذاقها بصقتها ..



- وماذا بعد أن ذقت الثمرة المسمومة؟

سكت سليم ولم يجبه مغمضاً عينيه .. ثم فتحهما على مصراعيهما بشدة حتى كادت تسقطان في حجر الصبي وقد بانت عروقها الحمراء .. وغير من نبرة صوته ليجعله أكثر إخافة :

- خرج لها الشيطان القاطن في الشجرة مُراعماً وقال : أيتها الفتاة اللعينة لقد أفسدت نوم ابنتي العنقاء .. ولن تستطيع الطيران أبداً حتى تستجيبى لطلباتها الثلاثة وإذا قمتِ بتنفيذها فسوف أساحك على تطفلك واقتحامك مملكتي ..

الأول : ماذا ترين في السماء؟

ظلت الفتاة تحديق برعب في المسخ الذي يسيل لعابه في انتظار إجابتها
فعقدت كفيها مرتجفة وقالت بارتياب :

- أرى بدرأ ..

- جيد جداً إذاً فقد سمعتِ سؤالي ورأيتِ القمر .. لننتقل إلى الثاني : هل
أوصلك أحد أم جئتِ بمفردك؟

- بل جئتُ بمفردتي .

- الأخير : حركي يديك عالياً ثم أنزليهما .

فعلت الفتاة ما أمرها بحيرة فسُرَّ من ذلك ثم قال :

- لا أرى بك عيباً ظاهراً .. إذاً لتحدثي بلا شروط .. أين تسكن عائلتك؟

تعجبت الفتاة من سؤاله وقالت :

- عائلتي؟

رد الشيطان باستعجال : نعم ..

مررت الفتاة لسانها على شفاهها الجافة وهي تنظر إلى وجهه المشوه :

- حناً .. عائلتي تشكن ..

قاطعها الشيطان واقترب منها حتى ألصق عينيه بدماعها ثم قال :

- لم تنطقي حرف السين أليس كذلك يبدو أن لسانك به عيبٌ ..

ارتاعت الفتاة ووضعت كفها على فمها ثم نظرت بهلع إلى الورااء لتهرب فأمسكها من شعرها الطويل وربطه بأعلى أغصان الشجرة، ظلت الفتاة معلقة بلا طعام وبلا ماء حتى ماتت فحل الجنى رباطها ودفنها فى المقبرة المجاورة للشجرة التى أخذت اسمها من هذه الحادثة .. ومرت الأيام ولم تفلح مجهودات الحراس وسكان القرية فى إيجادها حتى انتبه والدها المفجوع إلى زيادة فى عدد مقابر القرية!

صاح أحد الأطفال من الخوف وراح يصرخ باكياً ساداً أذنيه بأصبعيه هارباً إلى المنزل ..

تناقص عدد الأطفال بالتدرىج حتى بقي سليم وحده .. مسروراً بإنجازه..!



كانت عادة بائع الحليب الشاب أن يقوم بعمله النهار كاملاً ويجلس مع أصدقائه فى أوقات الراحة قبل الغروب .. وبين المغرب والعشاء يروي القصص والخرافات مقابل درهم من كل طفل ودائماً ما تنتهى جلسته بهروب الأطفال الواحد تلو الآخر لفضاعة وصفه وتخويفه لهم، ومع ذلك يعودون لمجلسه فى اليوم التالى ..

يبدو أن لقصص الرعب والجن نكهة خاصة فى المجالس!

لم يكن سليم كبيراً فقد كان فى العشرين من عمره ولكن عادته السيئة فى

نقل الأخبار والنميمة واختلاق القصص جعلته مكروهاً من سكان القرية وكثيراً ما حذرت الأمهات أبناءهن من الذهاب إليه واستماع قصصه ولكن دون جدوى ..

كان الكفيف وليد ابن السيد صفوان بائع الخضروات طفلاً مغموراً لا يُعرف إلا اسمه ولما انتشر من قصص الشياطين والأشباح وارتباطها بذوي الإعاقات فقد كان أبوه يخشى عليه من الخروج وفضل تعليمه في المنزل ..

أصق وليد ذو الثمانية الأعوام أذنه على الحائط حتى يتسنى له سماع هذه القصص والشعور بأنه ينتمي إلى أولئك الأطفال المستمعين وبينما هو كذلك إذ دخل عليه والده السيد صفوان وسلم عليه ثم قال :

- حبيبي وليد .. هل تروق لك هذه الخرافات؟

وجّه وليد رأسه ناحية الصوت وأجاب :

- في الحقيقة يا والدي أنا لا أركز فيها ولا أصدّق سليماً أبداً ولكنني أحب الاستماع إلى تفاعل الأطفال وأتخيل أنني واحد منهم أجلس وألعب وأتساجر معهم ثم أعود إلى المنزل لأنام وأصحو في اليوم التالي بنشاط وأذهب إلى المدرسة .. أتمنى لو تتحقق هذه الأمنية ولو ليوم واحد ..

كان السيد صفوان مطرقاً وهو يستمع أمنية ابنه ثم انحنى على ركبتيه
واضعاً يده على كتف الصغير فقال :

- أعلم يا عزيزي أنك تحب الخروج من المنزل ولكن الإشاعات التي
ينشرها سليم ليست كلها كذبا، فقبل تسع سنوات تم قتل عائلتين
كانت إحداهما لأب وابنته أصمّين، الأمر ليس مجرد قصة مخيفة بل
حصل بالفعل!

ثم ضم ابنه في حنان يستنشق رائحة البراءة المكسورة وتابع :
- أنت جوهرة ثمينة بل إنك أعلى من كنوز الدنيا وإن كان هناك من يريد
التخلص منك لمجرد أنك كفيف فساخلع رقبتة ..
سُر وُلِدَ بكلمات والده التي حملت له شعوراً دافئاً ..
ثم نهض السيد صفوان قائلاً :

- حسناً، سوف أذهب إلى المسجد الآن لأداء صلاة العشاء وبعدها سأمر
على المحلات القريبة من منزلنا .. لن أتأخر .. هل تريد شيئاً أحضره
لك؟

- شكراً يا والدي سأصلي وأخلد للنوم ..
خرج الأب وأقفل باب المنزل خلفه بإحكام فلمح سليماً ما زال جالساً
في مكانه بزاوية في الطريق لم تعرف الإنارة لها سبيلاً وهو يتسم لنفسه بمكر

وأصابعه تراقص الدراهم .. زم صفوان فمه باستهجان وقال مخاطباً بائع الحليب :

- ما الذي تستفيده؟

جفل سليم إذ إنه لم يتوقع مرور أحد عند هذه الزاوية .. فأجاب بسؤال ساخر :

- ما الذي تريده .. أنت؟

- ما زلت تكرر القصص الخيالية الرخيصة ذاتها! ألا تكبر؟



- احرص لم أطلب نصيحتك ..

- وكأني سأسديها إليك أصلاً ..

أدخل سليم أصابعه بارتباك في شعره الأحمر وقال بوقاحة :

- إن كنت تمنع ابنك من سماع قصصي المؤثرة فليس لك الحق في منع الآخرين، إنهم يستمتعون بما أرويهم لهم لذلك اهتم بشؤونك الخاصة ..

كتم السيد صفوان غيظه وقال :

- لم أمنعه ولكن ابني أكثر فهماً وأرجح عقلاً من أن يستمع إلى تفاهاتك التي تسميها مؤثرة .. ولئن لم تغير مكانك القريب من منزلي فإني سأقوم بإبلاغ الحراس ليتعاملوا معك ..

ضحك سليم بصوت مرتفع وقال :

- الحراس؟! لا تضحكني يا هذا .. أتهددني بحفنة من الأغبياء تتجول كالخفافيش ليلاً، هل تظن أنهم سيستمعون إليك أصلاً .. إنهم كالعييد للعمدة يلحقون بقايا موائده ويستكبرون على الناس كأنهم لم يكونوا منهم يوماً ما ..

ثم نظر بحقد إلى الأرض وكأنها أحد الحراس :

- تَبّاً .. سوف يلقون يوماً أسوداً أولئك المتغطرسون ..

- من هم المتغطرسون؟

انتبه سليم إلى تغير في صوت المتحدث وقد أفاق من جنون غضبه فإذا بالسيد صفوان قد ذهب والطريق من جهته التي كان يقف فيها أصبحت خاليةً ..!

استدار إلى الوراء فإذا بأحد حراس العمدة يقف خلفه بلباس أزرق مهندم ووجه مجعد قد ترهل حاجباه الكثان .. ينظر إليه باستصغار بينما انحنت زوايا فمه إلى الأسفل كأنها تشدها الخطاطيف ..

تضاءل حجم سليم المعنوي وأمسى كبرغوث ينتظر السحق وقال بعد أن ابتلع ريقه خمس مرات على الأقل :

- لا سيدي.. إنه فقط يا سيدي .. رجل أغضبني يا سيدي .. صدقني أنا أقول الحقيقة.. لم أقصد أي شخص آخر يا سيدي!

- رجل أغضبك؟

- نعم هذا كل ما في الأمر سيدي ..

- فهمت ..

دفعه الحارس بعنف جانباً وقال مبتعداً :

- إن رفعت صوتك بالشتائم مرة أخرى فلا تلومنَّ إلا نفسك ..

غاب الحارس عن نظر سليم فبصق الآخر على الأرض بغضب وركل حفنة من التراب وهو يتمتم بأقذع الشتائم ..

هز السيد صفوان رأسه بيأس عندما تناهى إلى مسمعه هذا الحوار العقيم.. كان حينها قد وصل إلى طريق ضيق مؤدِّ إلى المسجد فانضم إليه الطبيب صابر :

- سيد صابر .. أود استشارتك بما يخص ابني وليد فهو يكره أن يتم حبسه في المنزل لمجرد أنه كفيف، وإن قلبي ليتفطر حزناً عليه، فهلاً ساعدتني في تدبير طريقة ما لمساعدته؟!!

كانا قد وصلنا إلى المسجد فوعده الطبيب صابر بزيارة منزلهم والنظر في هذا الموضوع ..



فتح الضابط جمال عينيه وأخذ يمدد أطرافه كالقطة بعد أن استيقظ من النوم .. تأمل قليلاً في سقف الغرفة البيضاء الجامدة .. حتى المرآة المعلقة أطرها بيضاء .. كانت فيما تبدو هي غرفة النوم التي تم تخصيصها لهم بعد اجتماع البارحة في مركز شرطة العاصمة، تذكر أنه ارتقى على الفراش من التعب ونام قبلهم ولا يدري ما حدث بعدها ..

استوى جالساً على السرير وحرك رأسه الذي بدأ الشعر ينمو فيه كالوبر لاحظ أنه في السرير الأوسط وكلا السريرين بجانبه مرتب .. والسرير الذي على جانبه الأيسر يبدو جديداً لم ينم عليه أحد ..

قال في نفسه بتكاسل : عدد الأسرة ثلاثة !..

ثم نهض بقوة كمن رفسه حصان وقال : إذا .. أين هما؟

كان باب الغرفة البني هو الشيء الوحيد الذي كسر جمود الغرفة التي سيطر عليها البياض سيطرة تامة ..

خرج منها فرأى غرفة المعيشة ودورة مياه .. فكل ما يحويه السكن غرفتان فقط!

على العكس من غرفة النوم فقد كانت غرفة المعيشة واسعة جداً وعند إحدى زواياها طاولة طعام رخامية مع كراسي بعدد ضباط الوحدة ولذا فقد كان هناك ثلاثة كراسي فقط .. وعند الجانب الآخر وضعت أريكتان متقابلتان من الحجم الذي يتسع لعدة أشخاص كانت الساعة المعلقة بنفس لون الأرائك البنفسجية .. ووجد لحافاً قطنياً أبيض تم طيه بعناية فخم

أن الضابط ساري قد نام وحده في هذه الغرفة بينما بقي هارون معه في الأخرى.. كانت النوافذ مغلقة وجهاز التبريد يعمل بصوت خافت، نقل نظره في الأرجاء .. لا أثر لوجود أحد! ثم أعاد النظر إلى الساعة فإذا هي الخامسة فجراً .. بدأ جمال بالاستيعاب شيئاً فشيئاً فأدرك أن هذا وقت صلاة الفجر لذا توضأ وانطلق إلى المسجد ..

انتهت الصلاة وظل يتلو القرآن الكريم لثلاثين دقيقة عاد بعدها إلى السكن ..

كان الضابط ساري يرتدي ثوباً طويلاً أسوداً متمدداً على الأريكة وقد أغمض عينيه بينما انهمك الضابط هارون في فتح علب الطعام .. ثم قال بعد أن فطن لجمال :

- أهلاً .. لقد أيقظتك للصلاة ولم ترد كأنه مغشي عليك .

وضحك بمرح مكماً :

- حسناً تعال لتناول طعام الإفطار معاً، لقد وصل قبل قليل من مطعم الإسكان .

انصاع جمال لهذا الطلب وجلس على المائدة مفكراً في كلمة (معاً) إذ إنها

لا بد أن تشمل تلك العظام المسترخية على الأريكة فقال يخاطب ساري :

- تفضل لنأكل معاً ..

رد ساري وهو ما زال مغمضاً عينيه كمن يسبح في حلم عميق :

- أكلت ..

- وماذا أكلت؟

- طعاماً ..

أشاح جمال بوجهه عنه وقال لهارون :

- هذا التمثال الصامت يحاول إغاظتي .. بالتأكيد سيأكل طعاماً وهل يأكل الناس عادة شراباً؟!!

هدأه هارون بصوت مهموس :

- لم يتوجب عليك دعوته أصلاً فلو لاحظت علب الطعام لوجدت اثنتين .. لي ولك مما يعني أنه أكل طعامه قبلنا .

- لماذا إذاً لم ينتظر ويشاركنا .. إنه يتكبر علينا لكوننا مستجدين وهو من النخبة .

- لا يهمني أمره .

- ولكن يهمني أنا، أكره الانعزال والعمل الفردي سنسافر إلى قرية واحدة لأداء مهمة واحدة .. وهو يتجاهلنا هكذا .

لم يرد هارون بل استمر بالأكل متأملاً البيض المقلي وشرائح الخبز المحمص والخضروات المقطعة بشكل محترف أمامه .. حتى إذا انتهى من طعامه ذهب ليغسل يديه .

بقي جمال المتكدر وساري المسترخي في الغرفة بمفردهما .. التفت جمال مرة أخرى ورمق ساري بنظرة غضب متفحصة لم يرها ساري لأنه مغمض عينيه ولكنه شعر بها ..

ابتسم ساري وتمتم بثلاث كلمات ثم خرج مسرعاً ..

كانت الكلمات سريعة ولكن عندما أبطأها جمال في عقله بدت وكأنه قال:

- (ستشكرني يوماً ما) ..!

هل حقاً قال هذا .. لماذا أشكره؟ إنه لا يستحق ..! أفضل الموت على أن أكون مديناً لهذا المخلوق ..

ظل تفكير جمال مشوشاً واخترقت أفكاره المتنازعة رنة الهاتف .. كان على الطرف الآخر مشرف وحدثهم شادي قال بصوت مبتهج لا يناسب وضع جمال أبداً:

- مرحباً يا شباب .. سأزوركم الساعة التاسعة صباحاً بإذن الله فلدي أوراق مهمة ينبغي أن تطلعوا عليها وأرجو ألا أكون قد أفسدت جلستكم وخططكم لهذا الصباح ..

كان باب غرفة النوم مفتوحاً وباستطاعة جمال النظر إلى ما بداخلها، قال في نفسه وهو ينظر إلى ساري الذي اشتغل بتسريح شعره الناعم أمام المرأة: وأية خطط وجلسات هذه التي تقصدها!

- ألو؟! هل تسمعي جمال؟

- آه .. أهلاً بك .. نحن في انتظارك ..

نظر إلى الساعة .. كانت تشير إلى السادسة والنصف.

* * * *



الفصل الخامس

أخرج ميمون إصبعه من أنفه وراح يتأمله .. فنظر إليه البائع صفوان بتقزز ثم أزاح عينيه عنه مواصلاً ترتيب الخضروات الجديدة .. وضع الصناديق بعضها فوق بعض بإتقان، وعندما انتهى تنهد بارتياح ومشى قاصداً الجلوس على كرسيه في طرف المحل استعداداً لاستقبال الزبائن، وقبل أن يصل إليه رمى ميمون بنفسه على الكرسي ضاحكاً بصوت معتوه ثم قال :

- سبقتك عمي صفوان ..

لم يجبه صفوان بل ذهب لإحضار كرسي آخر كان دائماً يجلس عليه الطبيب صابر أثناء زيارته للمحل ليتبادلا الأحاديث في أوقات الراحة .. قعد عليه واضعاً يده تحت خده متأملاً ميموناً ..

يبدو عمره بين الثلاثين والأربعين .. أحذب الظهر، مجنون تماماً، عيناه

تتقلبان في الدقيقة ألف مرة .. ملابسه رثة ومتسخة ويرتدي قبعة صفراء
رخيصة قبيحة الشكل .. بالأمس كان يخرج لسانه ويحفظ عينيه واليوم
يدخل أصبعه في أنفه ..

قال صفوان في نفسه : يبدو أنه يحتاج لعلاج عاجل!

ثم نظر إلى ميمون الذي بقي يحدق فيه ببلاهة فقال ميمون على نحو
مفاجئ :

- عمي قريرتكم بغیضة جداً قريرتي كانت أفضل ..

رد صفوان بلا مبالاة :

- أوه .. لقد سمعت من بعض سكان القرية أنك أتيت من العاصمة!

- نعم .. أنا أسمي قريرتي العاصمة فهي عاصمة في عقلي وإن لم يعتبرها
الآخرون كذلك .

- أين أهلك؟

أشار ميمون إلى رأسه واضعاً إصبعه على قبعته الصفراء :

- هنا في عقلي أيضاً .. إذا أردت أن أكلهم فإني أستطيع ذلك في أي وقت!

- هكذا إذاً!! ولماذا أتيت إلى هنا على الرغم من أن قريرتنا لا تعجبك؟

توقف السيد صفوان عن الكلام عندما سمع صوت بكاء شخص
مظلوم مسلوب الحق ينشج بحرقه .. قال وقد راعه هذا التحول السريع:

- ميمون .. ما بك؟ لم تبكي؟

- هذه القرية الخبيثة هي التي أتت إلي .. ولكنها دائماً تقول للناس إنني أتيت إليها! هذا ظلم بين .. أين العدل .. أين الإنسانية!؟

وخرج من المحل مهرولاً بعد أن وضع الطرف الأسفل من ثوبه في فمه ..
مخلفاً وراءه وجهاً مندهشاً! وحاجبين مرتفعين!

لم تمر دقيقة منذ خروج ميمون من المحل حتى مسح دموعه بكم ثوبه
المتسخ فاجتمع عليه الأطفال يرمونه بالحجارة وينشدون :

يا أطفال هذا ميمون .. هيا نلحق بالمجنون!

ومما صعق السيد صفوان أكثر أن ميموناً أخذ يضحك بهستيريا ويركض
مستمتعاً والأطفال خلفه .. لقد تبخرت الدموع في الهواء!

مرّ الصباح على محل خضروات السيد صفوان بزائن كُثُر وعندما حان
موعد إغلاق المحل لمح الطبيب صابراً يبتسم من بعيد قادماً إليه ..

كان الطبيب صابر قصيراً جداً ذا شعر أسود جعد وشفتين كبيرتين وهو
محبوب بالقرية على خلاف زميله في العمل المتغطرس جلال ..

أقفل السيد صفوان باب محله بإحكام في الساعة الخامسة عصراً ولم
يتبقَّ على أذان المغرب سوى ساعة أراد استغلالها مع ضيفه الذي بقي معه
بالداخل .

استراح الطبيب صابر على أحد الكرسيين بينما دخل صفوان إلى منزله
الصغير من خلال باب يصل بين مخزن محله وبيته الملاصق له .

عاد ومعه النسخة المصغرة منه فابنه وليد يشبهه تماماً وكأنهما حبة فول

انشقت نصفين .. ضالّة الحجم والوجه الأبيض المحمر والشعر الأشهب
والذكاء البالغ ..

كان الأب يحمل صينية بها كوبان من الشاي وكوب من عصير البرتقال ..
وضع الصينية على طاولة خشبية صغيرة وساعد ابنه في الجلوس على الكرسي
ثم أحضر لنفسه مقعداً آخر ..

مسح الطبيب على رأس الصبي الكفيف بدفء وقال بحب صادق :

- لقد طلبت من قريب لي في العاصمة شيئاً وأرسله على الفور .. إنها هدية
بسيطة أتمنى أن تعجبك .

فرح الصبي بينما كانت عيناه تدوران في السقف تارة وفي الأرض تارة
أخرى ثم قال :

- وما هي يا عم صابر؟

- إنها نظارة شمسية ..

- وما هي النظارة الشمسية؟

- ممم .. كيف أصفها! حسناً إنها قطع باردة تخفي عينيك وملتصقة بأعواد
ناعمة خلف أذنك حتى تثبت فلا تسقط منك .. يرتديها الناس في
العاصمة لحماية أعينهم من الشمس .. وهذا ما أريد منك فعله.

- كيف أحمي عيني وهما فاقدتان للبصر؟

- أنت تريد الخروج من المنزل واللعب مع الأطفال وأنا ووالدك بل
وسكان القرية أجمع نعرف الخطر المحدق بتجول شخص ذي ..

وتردد الطبيب في إكمال الجملة ماسحاً العرق عن جبينه الأسمر بمنديل
أخرجه من جيبه ..

تكلم وليد بثقة :

- ذي إعاقة .. حسناً ثم ماذا؟

ظل الطبيب مرتبكاً وتحدث بنبرة مُخرجة :

- آه ليس تماماً فخروجك من المنزل وتكوين العلاقات مع الآخرين حق
من حقوقك كباقي الأطفال .

- تقصد يا عمي صابر أن ألبس هذه النظارة مظهراً رغبتني في حماية عيني ..
بينما الحقيقة إخفاء إعاقتي؟

- إجراء احترازي فقط يا عزيزي .

قال الأب وقد ارتاح لتقبل ابنه هذا الاقتراح :

- بارك الله فيك حبيبي وليد ولكن أريدك أن تعدني بعدم الخروج إلا في
النهار لكي يكون وجود الشمس سبباً وأيضاً معي فقط وعصاك بيدك
حتى يتسنى لك حفظ الطريق .

- وإذا حفظته؟

- تستطيع الخروج من دوني .. فقط في الأماكن القريبة من المحل لكي
أكون بالقرب منك إذا ما احتجت مساعدة .

- حسناً هذا رائع .. شكراً لكما من أعماق قلبي .
- ثم تحركت يده الصغيرة في الهواء حتى تحسست يد الطبيب فصافحه ممتناً.. أخذ الهدية وأمسك بعصاه خارجاً من الغرفة ليحرب لبسها ..
- فمال السيد صفوان بجذعه إلى الطبيب صابر وقال باهتمام :
- بالمناسبة! أردت أن أسألك سؤالاً عن ذلك المدعو ميمون .. هل تعرفه؟
- رد الطبيب بجدية وأصبعاه الإبهام والسبابة يسيران في حذر على ذقنه فيلتقيان ثم يتعدان :
- إنه مجنون غريب .. بالأمس فقط وصل إلى القرية ومع ذلك فإنه يملك مالاً وفيراً وقد استأجر منزلاً وحده بسعر باهظ في الجانب الشرقي من القرية عند البحر .. وحفظ أسماء أهل القرية جميعهم .. كأنه يعرفهم منذ مدة ..
- عجبٌ أمره .. أهو مجنون حقاً؟
- قد يفاجئك بعض المرضى العقلين بمواهب نادرة تبهر العقلاء!
- هل دعوته لعيادتك؟
- فعلت .. ولكنه أشار إلي وقال إنني مرسول الشر وعميل للشيطان الذي يتمشى في عيادتي لانتظاره وقتله ..

ثم وصف طريقة قتله على يد الشياطين بمشهد مرعب ..

صمت السيد صفوان وهو يفكر بعمق .. بعدها نظر في عيني الطبيب
وقال :

- لماذا يتفوه بهذه الترهات كالقتل والتربص والشياطين .. لا أعتقد أن هذا
أمر طبيعي؟!

لحق الطبيب شفته وتحدث بتشاؤم :

- إن كانت توقعاتك صحيحة فهو خطر ولن أستغرب يوماً ما أن يطبق ما
وصفه لي على نفسه أو على غيره!

* * * *

الفصل السادس



عند الساعة التاسعة صباحاً رن جرس المسكن ففتح هارون الباب مرتدياً بدلة سوداء أنيقة وأضاف لها ربطة عنق حمراء لامعة وقد مشط شعره البني الجعد بعناية :

- أهلاً بك سيدي المشرف ..

استنشقت المشرف البدين رائحة الهواء وقال :

- يا لها من رائحة أزهار جميلة ..

ابتسم هارون بأدب وقال بلباقة :

- إنها فواحة سكبت بها زيتاً عطرياً مستخلصاً من أزهار الخزامى والتي تبعث على الشعور بالاسترخاء والراحة وإن كنت يا سيدي المشرف مهتماً بها فيسرنى بل ويزيدني شرفاً أن أقتني لك النوع الجديد الفاخر الذي يباع في ...

قاطعه المشرف شاكراً وأخبره أنه ممتن لعرضه ولكن لا حاجة لتكليف نفسه بالشراء له وقال مختصراً :

- حسناً والآن أين تجتمعون؟

دَلَّه هارون على غرفة المعيشة بإشارة مهذبة من يده فمشى المشرف
اتجاهها وتبعه هارون ..

كان ساري يجلس على طاولة الطعام غير مكترث بوجود المشرف
ويحتسي كوباً ساخناً من مسحوق الشوكولاتة الممزوجة بالقهوة السوداء
ويأكل قطعاً من الشوكولاتة الداكنة التي أُضيفت لها نكهة البرتقال ..
بينما قفز جمال لإلقاء التحية وساعد المشرف بأخذ حقيبته الكبيرة التي
كان يحملها ووضعها على طاولة الطعام بقوة متعمداً إزعاج ساري، لم
يلحظ المشرف شيئاً من ذلك فقد كان يحدث هارون ..

اهتز كوب ساري فنظر إلى جمال وقال ساخراً :

- حسناً فقد ساعدت في تحريك الكوب وإذابة السكر بداخله .. يبدو أن
مذاقه أصبح ألد!

وقرب الكوب من فمه ثم رفع حاجبيه مظهراً الاستمتاع بتطور المذاق،
في حين كان البركان على وشك الانفجار في صدر المستجد الذي عاد إلى
طبيعته بعد نداء المشرف لهما ..

جلس المشرف على الأريكة الكبيرة المسندة للجدار وقد غاص فيها ثم
قال :

- عددكم قليل جداً لكن رئيس الشرطة لم يشأ أن يُرسل إلى القرية أكثر من
ثلاثة ونحن نحترم رأيه .

تجمع الضباط ليستمعوا إليه .. جلس هارون على الأريكة المقابلة أولاً بجسمه الضخم في جانبها الأيمن فمالت الأريكة ولم يحقق جلوس ساري على الجانب الأيسر أي توازن وكأن ريشة سقطت عليها .. تدمر جمال في نفسه فقد أجبر تلقائياً على الجلوس في المنتصف، نظر إلى هارون الذي كان يصغي باهتمام إلى المشرف .. كانت علاقته مع هارون جيدة فهما مقربان من بعضهما بعضاً وفي السن نفسها وقد تخرجا من دفعة واحدة ولكن المشكلة تكمن في ...

نسي أمر المقاعد تماماً عندما رأى ساري مطأطئاً رأسه ويبدو نائماً! قال بحنق بصوت غير مسموع :

- قليل الأدب .. تبّاً له .. المشرف يحدثنا بجدية وهو يحلم!

وعلى الفور حرك جمال حذاءه ليطأ قدم ساري بخفة تنبيهاً له حتى يرفع رأسه قبل أن يلاحظ المشرف ذلك إلا أن ساري رفع قدمه على نحو مباغت ووطئ حذاء جمال بقوة مما جعل جمال يجحظ من شدة الألم فأصدر أنة خفيفة ..

نظر إليه المشرف باستغراب وقال :

- هل من خطب يا ضابط جمال ..؟

سحب ساري قدمه بسرعة ثم رفع رأسه منتظراً إجابة جمال ..

ارتبك جمال وقال معتذراً بصوت مسموع :

- لا .. لا شيء سيدي المشرف .. أكمل من فضلك ..

وفي الوقت نفسه كان صوته الداخلي يشتم ساري ..

أكمل المشرف شادي بجدية :

- أنتم تعلمون أن جميع الضباط لم يرغبوا بهذه القرية ولذلك جعلنا الأمر قرعة فالعمدة شخص متعاون مع الحكومة على الرغم من معارضة بعض السكان وأيضاً ربما سمعتم عن جرائم القتل والاختطاف التي حدثت قبل عدة سنوات، وبما أن التعليم ذو مستوى متدنٍ فإن القصص والخرافات سرعان ما تنتشر وتُصدق أيضاً، عدد سكانها ليس بالكثير ألف وأربعمئة نسمة فقط .. وعلى أرضها يوجد مسجدان كبيران ومستوصف متعدد العيادات، وتوجد محلات تجارية قليلة متناثرة في القرية وكل مالكيها من السكان الأصليين فقد يأتي بعض التجار لبيعوا بضاعتهم بين الفينة والأخرى إلا أنهم لا يهتمون السكن هناك فعملهم مؤقت .

المدارس هناك للمرحلة الابتدائية فقط، واحدة للصبيان وأخرى للفتيات .. ومن أراد إكمال تعليمه بعد ذلك فإنه يتوجب عليه السفر إلى العاصمة أو المدن المتطورة الأخرى .

المسافة بين العاصمة وبينها ألفان ومئة كيلو متر وستستغرق رحلتكم بالطائرة مع حساب التوقف في بعض المطارات قرابة سبع ساعات لتصلوا إلى مركز للشرطة قريب من القرية، ستستريحون يوماً كاملاً، بعدها ستندم الطرق المعبدة ما بين مركزنا الآخر وبين القرية لذا ستكملون الرحلة على خيول!!

ضحك المشرف ضحكة لم يكن لها مناسبة! ثم أردف :
- لا بأس ستعودون إلى الوراء قليلاً بما يخص وسائل النقل وكل شيء تقريباً، لكن الشيء الأهم هو ..

نظر إليهم فوجد هارون وجمال مشدودين تماماً أما ساري فقد كان ينظر بصمت ووجه جامد .

أكمل المشرف :

- الشيء الأهم ينقسم إلى نقطتين، الأولى : أنكم لن تتمكنوا من إرسال أية رسالة أو نتيجة لنا قبل موعد عودتكم المقررة بعد شهر من وصولكم .

والثانية : أنه يمنع منعاً باتاً التواصل فيما بينكم حتى عن طريق الإشارة!! نريد أن نضمن أن تقرير كل فرد منكم ناتج عن مجهوده الشخصي بناء على ما رآه وسمعه وبحث فيه، ولكن في يوم الجمعة من كل أسبوع فقط تستطيعون الاجتماع وعرض ما توصلتم إليه للفائدة فقط ..

احتدت نبرة المشرف فقال :

- التواصل ممنوع، أنتم في فترة عمل .. هل هذا مفهوم!؟

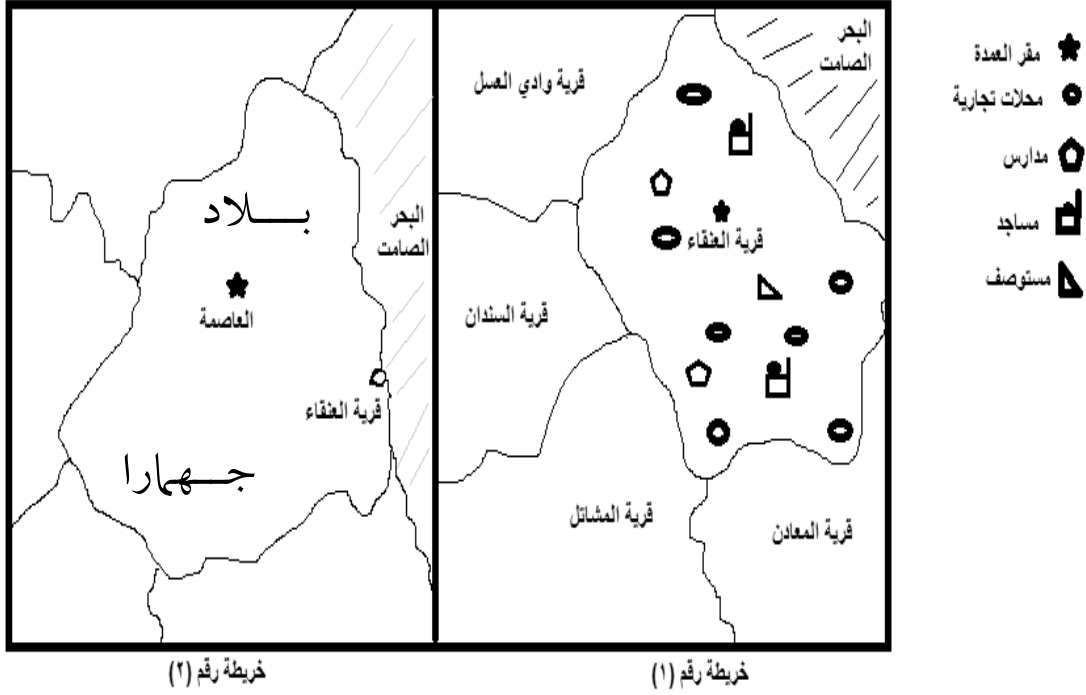
أجاب هارون على الفور :

- مفهوم .. نستطيع التأقلم مع ذلك يا سيدي ..

أيده جمال بحماسة المستجد :

- أجل سنبدل ما في وسعنا .

لم يقدم ساري أي رد وكان الأمر يعني هذين الاثنین فقط!
أخرج المشرف لوحین مطويتین من حقیبته ثم فردهما قائلاً :



- كما ترون خريطة رقم (١) توضح المساجد والمنشآت وغيرها في القرية ..

وخريطة رقم (٢) تبين موقع قرية العنقاء بالنسبة لبلاد جهارا المتطورة ..
بإمكانكم الاحتفاظ بالخريطين ..

طوى المشرف شادي الخريطة ثم سلمها هارون ..

قال بعدما أدخل يده في الحقيبة :

- والآن سنبدأ الاختبار!

وزع على كل واحد ورقة وقلماً ثم أشار إلى الساعة :
- الساعة الآن التاسعة وخمس وعشرون دقيقة، أمامكم خمس وثلاثون دقيقة فقط للحل .

وقد كان المشرف سريعاً ودقيقاً حيث لم يعطِ جمال المندehش وقتاً للتفكير.. إذ بدأ بحساب الوقت .
وجد الجميع أنفسهم مجبرين على الإجابة خلال هذه المدة .. وقد أيقنوا أنه متعلق بمهمتهم القادمة ..

شرع هارون بقراءة الأسئلة السبعة في سره .. وعندما وصل إلى السؤال الثالث سمع ساري يقول انتهيت .. ويمد يده النحيلة ممسكاً بالورقة لتسليمها إلى المشرف .. نظر المشرف إلى الساعة لم تمر دقيقتان على بدء الوقت فصفر بإعجاب بينما استغرق الآخرون بالحل ..

وعندما فرغا سلما الورقتين .. لم ينظر المشرف لأي من الأوراق الثلاث بل أدخلها في الحقيبة وقال :

- انتهت مهمتي هنا .. سأرفع أوراقكم إلى اللجنة حالاً .. وأرجو أن تسركم النتائج .. آه، نسيت أمراً .. هواتفكم النقالة، ستودعونها في خزائن مغلقة هنا بالمركز قبل ذهابكم .. هل من سؤال؟

نظر هارون وجمال إلى بعضهما بعضاً ثم قال جمال :

- نعم .. نريد ورقة دونت فيها القوانين وبزاتنا العسكرية هناك ..

- حسناً سنوفر لكم ما طلبتم مع مبالغ نقدية لكل منكم ..

وعندما وصل إلى الباب

قال له ساري :

- أسلحة للاحتياط!

استغرب الاثنان فمهمتهم سلمية لا تستدعي أسلحة ..!

لم يشاركهما السيد شادي مشاعرهما بل ابتسم وقال :

- أنت تعرف أن هذه المهمة قد لا تستدعي وجود السلاح، لكن بما أن

ضابط النخبة ساري أراد ذلك فسنبلي لك ما تريد ..

ثم حياه التحية العسكرية بإجلال وانصرف .

أغلق هارون الباب خلفه وأخذ جمال جهاز التحكم في الغرفة وزاد من

التبريد .

ذهب ساري للاستحمام فيما بقي الاثنان يتحدثان عن الأسئلة وكل منهما

يخبر الثاني بإجابته .. قال جمال بانزعاج وعيناه الزيتونيتان تلمعان بغضب :

- أسئلة تافهة جداً واختبار ليس له هدف .. لقد تخرجنا ما الفائدة من مثل

هذا ..؟!!

غير صوته مستهجناً وهو يذكر بعض الأسئلة بنبرة مشمئزة :

- (إذا تعثرت امرأة كبيرة فماذا تفعل؟) لماذا لم يقل إذا تعثر شخص كبير

بالسن فقط .. وهل سأساعدها إن كانت امرأة وأتركه إن كان رجلاً!

(كيف تتعامل مع طفل ذي إعاقة؟) الإعاقة ليست مقتصرة على الأطفال.. ما هذا الهراء.. أحسست بأنه اختبار لدخول الروضة ..

رد هارون ضاحكاً :

- مهلاً يا رجل وهل ستعيد كل الأسئلة علي..!

ثم أكمل مفكراً :

- ربما تريد اللجنة التعرف على ثقافتنا ووعينا في العلاقات الاجتماعية مع سكان القرية، فهذا عامل مهم في نجاح مهمتنا وجمعنا للمعلومات المطلوبة .

- بالمناسبة .. لماذا انتهى ساري بهذه السرعة؟ وما قصة تلبية طلباته العجيبة هذه؟

- لا علم لدي .. قلت لك دعك من هذا المتعجرف .. أنت تجعل حجمه أكبر مما هو عليه ..

- ليس كذلك وإنما فضول فقط .

بعد ساعة من الانتظار والثرثرة .. رن جرس السكن فهرع جمال للرد عليه .. وجد موظفاً بيده عدة مظاريف مغلقة سأله عن اسمه فأعطاه الظرف ثم انصرف .. فكر جمال في نفسه بأن جميع الفرق الاستكشافية نالت مثلما نلنا ..

عاد إلى الداخل وفتحته مع هارون، كان الظرف يحتوي على أربع أوراق منفصلة ثلاث هي اختباراتهم وواحدة ورقة شكر لأدائهم الجيد في الاختبارين ..!

قرأ جمال المراكز بصوت عالٍ :

الأول ساري!

الأول مكرر: هارون ..

الثاني : جمال ..

وفجأة سُمع صوت صادر من غرفة النوم أشبه بتحطيم شيء صغير ..
خرج ساري مرتدياً بدلة رمادية مرتبة كأنه يهيم بالخروج وشعره ما زال رطباً ..
كان يمسك قلماً بيده فاتجه إلى الزاوية المسندة إليها الأريكة .. بينما هارون
وجمال يرقبان .. إذ قذف القلم بسرعة كالسهم فوق رؤوسهما ليتحطم من
السقف شيء صغير وتتناثر قطع زجاجية سوداء .. قفز الاثنان إلى الأمام
باستياء مبتعدين عن الزجاج المتناثر ..

قال ساري لهما موضحاً :

- لقد وصلت نتيجة الامتحان .. أليس كذلك؟ إذاً لا حاجة لكاميرات
المراقبة بعد الآن!

رد هارون مصدوماً :

- أي كاميرات؟!

- ألم تقرأ جيداً ورقة النتيجة؟ لقد كُتب فيها : شكراً لأدائكم الجيد في

(الاختبارين)! فقد كانت المراقبة علينا منذ تم اختيارنا للمهمة .. أي

بعد اجتماع البارحة .. وحتى الآن كانت اللجنة تراقب تصرفاتنا .. وهذا

هو اختبارهم العملي لنا!

ثم أكمل بضجر :

- تَبّاً .. كيف أرسلني رئيس الشرطة مع شخصين يطلقان على نفسيهما مسمى ضابط ولم يلاحظا هذا الشيء حتى ..!

تبرم جمال من هذه الجملة وقال بحقنق :

- هل تعلم أيضاً أنك أحرزت المركز الأول؟ كيف حصل هذا بالله عليك؟ وأنت أنهيت الاختبار في دقيقتين؟ لقد بدأت أشك في نزاهة اللجنة .

- صمت ساري وهو ينظر إليه ببرود .. ثم أشار إلى ورقة إجابته وقال بثقة :

- بين يديك ورقتي اقرأها إن شئت واعتبرها هدية مني ..

رتب ساري شعره الطويل الأملس بأصابعه ثم خرج من المسكن متجهاً لمقهى الإسكان ..

نظر الاثنان إلى أوراق الإجابات في تمعن ..

كانت ورقة هارون مليئة بالثناء على إجاباته المثالية أما ورقة جمال فأقل منها مديحاً .. بقيت ورقة واحدة خالية من أية عبارات .. فقد حصل ساري على المركز الأول بكلمتين فقط :

(بطريقتي الخاصة)!

* * * *

الفصل السابع



بعد أسبوع من اختيار الفرق الاستكشافية تم إرسال حقائب مجهزة بالمستلزمات .. خرجت الوحدات إلى الساحة بطوابير منتظمة واصطف كل مشرف أمام الوحدة المسؤول هو عنها ثم حُشيت رؤوسهم بالقوانين والتعليقات حشواً حتى كادت تنفجر أدمغتهم .

في الأول من شهر صفر (١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م) انطلقت كل وحدة صوب وجهتها ووصلت وحدة الضباط الثلاثة إلى قرية العنقاء في الثالث من الشهر نفسه..

وعندما وصلوا بأزيائهم العسكرية السوداء تماماً إلى بوابة القرية كان السكان متجمهرين عند مدخلها .. مع أن القرية صغيرة إلا أنها تحتوي على ساحة للمناسبات العامة ولصلاة العيد .. وقد اكتظت بالرجال والنساء والأطفال ..

ترجّل الضباط عن خيولهم .. كان ساري يمتطي فرساً وحده بينما جمال وهارون يتشاركان فرساً واحدة ..!

مشوا باتجاه منصة خشبية مزينة تم نصبها في الساحة .. تقدّم السيد شاكر وهو عمدة القرية ببطنه المتدلّية وحوله الحرس فاعتلى كرسياً

خشبيًا غير ملاحظ حتى يجبر قصره .. تنحنح جاذبًا الانتباه وتحدث
بصوت مبحوح :

- أقدم لكم أيها السكان فرقة الضباط الاستكشافية والتي تكرمت
علينا حكومة جهمارا بلفتة طيبة وقبول كريم لرغبتنا في ضم القرية إلى
بلادها.. لن أطيل عليكم ولكن أرجو أن تظهروا لهم جانباً حسناً حتى
ترفع التقارير ويتم القبول ..

بينما كان الضباط يقفون بجانبه كانت أعين الناس معلقة عليهم،
ومن شدة تحديقها بدت كأنها تفتقر للأجفان.. لم يلتفت أحد لخطاب
العمدة.. تضايق جمال عندما سمع بعض المهمات والاستهزاء بأرديتهم
السوداء.. بينما وقف هارون بأدب وقد ضاق قميصه لحجم عضلاته ..
رافعاً رأسه ينظر إليهم بابتسامة ودودة ..

انتهى العمدة من حديثه فقال :

- والآن سأترك لهم المجال ليعرفوا بأنفسهم ..

بدأ هارون بمقدمة مشوقة وحديث عذب وكيف أنه سيجعل من حياتهم
حياة مرفهة وعيشهم عيشاً رغيداً .. وقد كان لكلماته الساحرة أثرٌ عليهم
فتعلقت قلوبهم به وشفقوا له بحرارة وسط همسات الفتيات المعجبات!

تناهى لمسمع جمال بعض كلماتهم فقال في نفسه مستسخفاً : منذ متى
وصديقي الأجدد ذو العضلات المفتولة يحظى بهذه الشعبية!

ثم لخص السر في سحر البيان، لأنَّ هارون لم يكن وسيماً ..

أمسك مكبر الصوت بعد هارون وقال باختصار :

- سنقوم بعملنا على أكمل وجه بإذن الله .. أرجو أن تتعاونوا معنا ..

بعدها ناول جمال المكبر للمساعد الذي بدوره مرره إلى ساري .. رفض
ساري أن يتكلم وقال للمساعد مبعداً المكبر عن فمه :

- لا أطلب سوى استقامتهم حتى أستقيم فأنا لا أرغب باستخدام طريقتي
الخاصة إلا إذا استلزم الأمر ..

يبدو أن مكبر الصوت ذو جودة عالية فقد نقل كلام ساري بدون قصد
للجمهور على الرغم من ابتعاده عن فمه ..!

بدأت الهمهمات والاستهجان ونال ساري حظاً وافراً من النفور .. ارتبك
العمدة بعد سماع هذا التحذير ومسح العرق عن جبينه ثم قال كاذباً للضباط
الثلاثة :

- صدقوني .. لا أعتقد أن حال القرية سيسوءكم .. بل ستحظون بإقامة
سعيدة خلال هذا الشهر .

ثم بدأ بإعطاء النصائح والتوجيهات لأهل القرية بعد انصراف الضباط .

كانت أوامر شرطة العاصمة تقتضي أن يفترق الثلاثة ولا يلتقوا إلا يوماً واحداً هو يوم الجمعة من كل أسبوع، وبما أن اليوم أحد فسوف يفترق الثلاثة الآن .. مشى كل واحد باتجاه ..

بينما تردد جمال في اللحاق بساري لشعور غريب انتابه وقتها!

مشى هارون بين الأزقة مبتسماً وأخذ يدون ما لاحظته في دفتر ملاحظات ليعيد صياغته في تقرير يُرسل إلى شرطة العاصمة آخر الشهر .. كان ضخمة البنية ولكنه لطيف جداً مع الأطفال، لعب معهم كرة القدم ثم ودعهم وتعرف على بعض الأهالي .

خرجت من أحد المنازل عجوز محدودة الظهر ترتدي عباءة سوداء وقد ظهرت عيناها المحاطتان بالتجاعيد .. قالت بصوت منهك :

- أيها الضابط!

أتى إليها هارون بسرعة وقال باحترام :

- معك الضابط هارون .. ما تأمريني يا خالتي؟

أعجبت العجوز بلباقته وسألته أن يساعدها في إدخال الدلاء المملوءة بالماء داخل المنزل .. حملها هارون على الفور بخفة وحقق ما أرادت ..

فقالت بامتنان :

- بارك الله فيك يا بني .. أنا متأسفة لإزعاجك .. لكن حفيدي الشقي

- وأشارت بيدها إلى شاب بعينين حادتين يجلس مع رفاقه في إحدى

الزوايا - جلب الماء وتركه في الخارج .

إن شباب هذه الأيام لا يأخذون الأمور على محمل الجد ونادراً ما تجد منهم من يحمل المسؤولية، كما حصل للسيدة سوسن هل تعرف منزلهم ذاك الذي يقع بقرب مدرسة البنات؟
أوماً هارون برأسه غير متيقنٍ ..

فاستمرت العجوز :

- لقد قام الصبية في حارتها بتهشيم المصابيح المعلقة في الخارج! المسكينة لم تهناً بها يوماً واحداً فقد كانت المصابيح جديدة ولكن سوسن استمرت بالتذمر على عكس زوجها الذي خرج للأطفال وهددهم ثم ذهب يشتكي لوالديهم ..

حقاً لا بد للطفل أن يتعلم احترام حقوق غيره وأن يصلح ما أفسده، إن هذه القرية تعاني من الجيل الجديد المدلل فجميع الآباء الآن بلا استثناء يعاملون أبناءهم كالرضع .. ويحتجون بأنهم لا يريدون لهم حياة قاسية مثل التي عاشوها في الماضي ..

بدأ مخ هارون يلتف ويدور فحاول التملص منها ليكمل مهمته إلا أن العجوز استمرت :

- لقد كان والدي رحمه الله صارماً معنا لذا تعلمنا الأدب ولم نزعج أحداً من الجيران أو من السكان .. وبما أنني كنت فتاة بين صبية فقد كان يشفق علي أكثر من إخوتي ..

ذات يوم أفقت من نومي على صوت ضربه لهم بالعصا لقد تأملت لذلك..

قاطعها هارون بأسف :

- إنها قسوة يا خالتي هذا ليس أسلوباً تربوياً!

قالت العجوز بإصرار وعناد :

- ولكن النتيجة دائماً مُرضية .. هم الآن خارج القرية اثنان طبيبان في العاصمة والآخر مهندسٌ في إحدى المدن المتطورة ..

لو أنه دللهم لأصبحوا عائلة على غيرهم .

لم يجد هارون مفرّاً سوى الموافقة على ما تقول أمامها على الأقل فقد بدا أنها لن تغير موقفها مهما حصل .

وعندما سرد لها عدة أعذار لينصرف .. ودّعته ثم دعت له بالتوفيق قائلة:

- إنك شخص جدير بالاحترام يا ولدي .. ولذلك فأنا أدعوك سرّاً لحضور حفل زفاف حفيدي ابن ابنتي التي توفيت قبل عامين .. على ابنة الدهان حسان في اليوم السابع عشر من هذا الشهر، في الواقع لم أرد له الزواج حالاً فما زال صغيراً بعيني وكيف سيتحمل أعباء الزواج، ولكن الفتاة موافقة وهما منسجمان تماماً وعائلتها سعيدة بالخبر .

- لماذا إذا دعوتك سرية؟

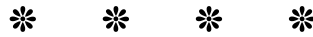
خففت العجوز صوتها وهمست بتوجس :

- في الواقع، واجعل هذا سرًّا بيننا .. الفتاة عرجاء وهناك قصص عن الأذى الذي يحصل عليه ذوو الإعاقات لذا فقد اتفق حفيدي وعائلتها أن يكون الزفاف في منزل الفتاة بدعوة بعض الأصدقاء المقربين فقط!

أطرق هارون مليًّا وقال :

- فهمت لن أخبر أحداً، إنه من دواعي سروري أن أشارككم أفراحكم .. لا تحجلوا من طلب أي شيء أستطيع مساعدتكم به .

سُرت العجوز كثيراً ووصفت له المكان وتجهيزات العرس فانصرف بعدها هارون ووعداها بالحضور إن لم يطرأ عليه أمر ضروري ..



الفصل الثامن



جلس جمال على أحد الكراسي في السوق الشعبي بعد صلاة العصر
وطلب من الصبي كوباً من الشاي :

- لا تنسَ النعناع .
- حاضر سيدي .

كان السوق الشعبي مزدحماً وقد خرجت النساء ليشتري حلى محلية
لأطفالهن ..

جميع الجُدر في السوق الشعبي باللون البني الباهت وقد رسمت أعلاها
مثلثات باللون الأحمر والأخضر، واحتوى السوق على العديد من الممرات
المتداخلة ليسهل الوصول إلى المحلات الصغيرة فيه .

في منتصف السوق هناك ساحة صغيرة فيها مقاعد خشبية وشيخ طاعن
في السنّ يحضر المشروبات الساخنة والعصائر الطازجة وبعض الفطائر
الخفيفة على المعدة، ثم يقوم ابنه بقبض الثمن وتوصيل الطلبات إلى الزبائن
داخل الساحة فقط .

وصل كوب الشاي فدفَع ثمنه وشكر الصبي ..

كان جمال مغرماً بالنعناع ورائحة النعناع وشكله ولونه وكل ما يتعلق به .. استنشق رائحته باستمتاع ومد يده ليأخذ كوبه .. ولكن طفلاً صغيراً صدم الطاولة بعصاه الطويلة فاندلق الشاي على الأرض ..

لقد قُضي على متعته .. قبل أن يحصل عليها!

نظر إلى الشاي المسكوب بحسرة .. وبجانبه الكوب الذي بقي سليماً .. فسمع صوت رجل كبير يقول :

- شاي بالنعناع حالاً ..

التفت فوجد رجلاً أبيضَ محمراً من الخجل وشعره أشهب بجانب نسخة مصغرة منه!

وعندما وصل الكوب الثاني دفع الرجل ثمنه كعربون للاعتذار ثم أخرج منديله ليمسح الأرض ..

ركض الصبي الذي يوصل الطلبات ومسحها برشاقة ثم ذهب إلى زبائن آخرين .. قال جمال للرجل :

- أهذا ابنك .. إنها نظارة جميلة يا صغيري .. لماذا لا تخلعها فالشمس لا تصل إلينا هنا؟

رد السيد صفوان بسرعة :

- ابني وليد مسرور بها لذلك لا يخلعها أبداً إلا عند النوم ..

لم يصدق جمال مدى تمسك الفتى بها فاقرب وهمس له مازحاً :

- أجزم بأنها هدية من شخص عزيز أليس كذلك؟

- نعم عمي الضابط .. إنها هدية من الشخص الوحيد المحترم في هذه القرية ..

- شخص واحد محترم .. ما هذا البخل؟

ضحك جمال والتفت إلى السيد صفوان ليتعرف عليه ويحدثه مستمتعاً
بكبوب الشاي الجديد بالنعناع!

اقتحم السوق المجنون ميمون راكضاً والأطفال من خلفه وخرج من
مخرج آخر ..

رفع جمال حاجبيه بدهشة :

- ما هذا الذي مر للتو ..؟!!

هز السيد صفوان رأسه بأسى وقال :

- مسكين ميمون إنه مختل تماماً ويبدو أن عائلته تخلت عنه لذا فهو يعيش
وحيداً .. ودائماً ما يهذي بالبيوت المسكونة ومطاردات الجن له، وكثير
من الأطفال العديمي التربية يجتمعون حوله للتندر والاستهزاء ..
يؤسفني حاله .

قال جمال ويده تمسح على رأس وليد :

- لكن هذا الفتى مؤدب وخلق .. ماذا سوف تصبح يا صغيري عندما
تكبر؟

لم يبتسم الطفل وظل صامتاً لعدة دقائق .. بعدها تحدث بصوت يحمل
ألماً أكبر من عمره :

- سأخرج من القرية الموبوءة هذه أولاً!..!

استغرب جمال رد وليد المقهور ونظر إلى والده الذي كان يحدق في الطاولة
بصمت فصمت هو الآخر ولم يعلق!..!

* * * *

الفصل التاسع



كان ساري يقف في مكان منزو ومرتفع قليلاً عن القرية متأملاً أرضاً فارغة مليئة بالمقابر ومحاطة بالأسوار المنخفضة .. هبت نسبات العصر خفيفة عليه فبعثت شعره الأسود الكثيف الذي أمسك طرفه بانزعاج فقد طال بسرعة ونزل عن كتفه بمقدار عشرة سنتيمترات على الأقل .

المكان خال وهادئ جداً في أعلى التل والجو يبعث على الاسترخاء، ملأ رئتيه بالهواء النقي وجلس تحت الشجرة اليتيمة في ذاك المكان .

قرر أن يبحث عن مسكن يقيم فيه الأربعة والعشرين يوماً الباقية من هذا الشهر بعد صلاة العشاء، فتنفس بعمق ثانية، تسلل النوم إلى عينيه فأغمضهما ببطء طمعاً في غفوة هائلة ..

وفجأة!

طارت ثمرة خووخ متجهة إلى رأسه من الخلف حتى كادت تقسمه إلى نصفين .. هرب النوم بسرعة فوقف متأملاً يحك رأسه وقد نوى نية سيئة للفاعل .. التفت إلى الوراء باحثاً عن رامي الثمرة وإذ بصوت مضطرب يقول :

- خسارة .. لقد حسبت أني أوقعت الغراب ميتاً!

ضيق ساري عينيه الكبيرتين وقال :

- اسمع أيها المعتوه .. لو أعدت فعلتك ثانية فسأفلق رأسك بإحدى عينيك بعد اقتلاعها ..

ثم وثب على الرجل بسرعة خاطفة لم تتح له الهروب فجذبه من فتحة قميصه المهترئ، ورفعته إلى الأعلى بعنف يريد رميه على الأرض بقوة ..
كانت عينا ميمون تدوران من الذعر كالهرباء ..

توقف ساري لوهلة ونظر إلى وجه المجنون بتركيز كمن يقرأ خبراً هاماً في صحيفة ثم أفلته بهدوء وعاد إلى مكانه بصمت مطبق!

صرخ ميمون برعب وراح يركض باكياً نازلاً من التل :

- سيقتلع الغراب عيني ويقتلني ..

ظهر له من خلف الحائط بائع الحليب سليم وقد أنهى عمله للتو فاصطدم الاثنان اصطداماً عنيفاً .. تلفظ سليم بألفاظ بذئية ثم سأله بعنف :

- أنت أيها المجنون .. ما هذا الغراب الذي سيفقأ عينك ويقتلك .. أهو من عقلك أيضاً؟

كان ميمون ساقطاً على الأرض ككومة ملابس بالية .. أخذ يمسح أنفه بطرف كفه ثم أشار إلى ساري من بعيد وقال :

- ذاك ..

ثم هرب مكملاً طريقه بينما نظر سليم إلى أعلى التل فلم ير إلا سواداً

بشكل ضبابي .. دفعه الفضول ليستكشف الأمر، اقترب أكثر ..
ثم توقف في منتصف الطريق عندما رأى ساري نائماً تحت الشجرة ..
وعاد مبتسماً بخبث فقد وجد مادة لذيذة يقصها على الناس!



الفصل العاشر



في الساعة الثامنة مساءً سلمَ المقاول سليمان مفاتيح المنزل إلى الضابط جمال والذي أتى قبله بساعة الضابط هارون .. فقال له بتملق :

- هل ارتحت لبقائك هنا؟

تردد جمال قليلاً ثم أجاب :

- أعتقد أنه من المبكر قول هذا .. لكنني سأرتاح إن وجدت المنزل الذي استأجرته موافقاً للمواصفات المكتوبة .

قهقه المقاول سليمان :

- لا تخف سيعجبك وستشكرني على ذلك .

قطب جمال حاجبيه بعد سماعه لهذه العبارة وأخذ يبحث بجدية في خزائن ذاكرته حتى رأى في إحداها ساري متكئاً على الأريكة البنفسجية في مسكنهم في العاصمة وهو يقول : ستشكرني يوماً ما ..

كشر جمال باستهجان راغباً في محو تلك الكلمة من دماغه .. مما دفع المقاول سليمان للاعتذار قائلاً :

- آسف سيدي الضابط هل أغضبتك؟ كنت أقصد ..

قاطعته جمال مُطمئنًا :

- لا لم ترتكب خطأ .. فقط .. تذكرت شيئاً بغيضاً فجأة!

صمت المقاول سليمان وقد خشي على مكتبه المحترم .. وقام ليشعل سراجاً آخر .. كانت غرفة استقبال الزبائن ممتلئة بالزخارف الملونة واللوحات المنقوشة المزعجة .. وتساءل جمال في نفسه عما إذا كان المنزل الذي استأجره مشوشاً مثل هذا .. ثم قال :

- بالمناسبة هل استأجر منك رفيقاي منزلاً أيضاً؟

مسّد السيد سليمان شاربه الكث بخيلاء بينما ارتفع أنفه بشكل لم يلاحظه جمال :

- نعم .. نعم .. بالطبع، فقد مر علي الضابط هارون قبلك بساعة وكنت سعيداً بالتعامل معه فهو عذب الحديث مشرق الوجه ..

لقد استأجر منزلاً بجانب منزلك الذي استأجرته للتو في المنطقة الغربية. أما الآخر الذي لا أعرف اسمه، فلم يمر بي حتى الآن وفي الواقع لقد تشاءمت من حضوره بعدما سمعت عنه قصصاً وإشاعات مخيفة!

- قصص مخيفة؟

خفض السيد سليمان صوته فأصبح كفحيح الأفعى وقال :

- سليم بائع الحليب .. أظنك رأيتته ذاك الشاب القبيح بالشعر الأحمر، إنه

يهوى القصص والخرافات، قال لأصحابه وبعض الأطفال إنه سمع بأذنيه الضابط ذا الشعر الطويل يهدد أحد السكان بقتله وفقء عينيه!

أخبرني يا ضابط جمال لماذا يقوم بترويع الأبرياء! هل أوصتكم العاصمة بهذا؟

زم جمال شفتيه بامتعاظ بينما أسرع السيد سليمان موضحاً:

- لست أنا من يقول هذا الكلام، ولكن بطبيعة الحال فقد انتشر كالنار في الهشيم .

لم يقل جمال أية كلمة عن رفيقه ولأنه يعرف طبيعة ساري الشرسة فإنه لم يدافع عنه أيضاً، وعندما همَّ بالخروج واضعاً المفتاح في جيبه التقى عند الباب بساري داخلاً محل المقاول سليمان!!

توقف ونظر إليه نظرة تساؤل ذات مغزى لم يفهمها ضابط النخبة ولم يتبادلا الحديث الممنوع بينهم .. لذلك فقد أجَّل جمال سؤاله إلى يوم الجمعة وخرج .

وثب السيد سليمان من مكانه وصافح ساري بحرارة مكذوبة ثم أعطاه دفترًا يحوي معلومات المنازل المعروضة للإيجار خلال هذا الشهر .. وبعد فترة صمت أشار الآخر إلى منزل يقع بجوار البحر عند الجانب الشرقي .

ابتسم السيد سليمان وهو يفرك يديه قائلاً :

- أخشى يا سيدي أن مبلغ الإيجار قد لا يناسبك .. فهو مرتفع جداً لأن المنازل هناك فخمة وأثاثها غال وتطل على البحر مباشرة، أما المنازل الأخرى البعيدة عن البحر فهي أقل سعراً وقيمتها ألف درهم بالشهر .
- أريده ..

سُر السيد سليمان ولم يفوت هذه الفرصة .. فأعطاه ورقة يملأ بها معلومات عنه .. وقد كانت البيانات المطلوبة طويلة جداً، أخذها ساري وبدأ الكتابة بيده اليمنى فلما تعبت أبدل بها اليسرى وأكمل!

أعجب المقاول الجشع بهذا عندما رأى أن خطه لم يتغير بين اليدين فقال بعدما استلم الورقة :

- ر .. رائع سيدي الضابط تستخدم كلتا يديك ببراعة!

- كم؟

رد السيد سليمان بلا تفكير : ماذا؟

- سعر الإيجار لمدة سبعة وعشرين يوماً.

- ألفا درهم .. ولكن سأتعاون معك ليكون تسديدها على أقساط أسبوعياً.

بدأ ساري يبحث في محفظته والمقاول يتأمله، شاب صغير يبدو في أواخر العشرينيات من عمره .. أبيض .. شاحب كالموتى وشعره طويل لا

يلائم هيئة الضابط المحترم! فتساءل في نفسه : هل هذا النحيل الشبيه بالدمى القماشية هو الذي أشيع عنه ما أشيع .. ظل ينظر باستصغار إلى ساري وهو مطأطئ رأسه يبحث حتى وجد النقود، أخرج ألفي درهم كاملة ووضعها على الطاولة ثم رفع رأسه وأبعد خصلات شعره عن عينيه ناظراً مباشرة بصمت في عيني المقاتل ..

ظن السيد سليمان لو هلة أنه سيفقأ عينه هو الآخر فارتجفت قدمه ورجع إلى الخلف قائلاً :

- م .. ماذا تريد مني؟!!

رفع ساري حاجبيه مستغرباً وأجاب :

- ماذا أريد! أريد المفتاح وهل تريدني أن أدخل المنزل عبر النافذة؟

ضحك المقاتل بتصنع مخفياً قلقه وأعطاه المفتاح، وبعد خروج ساري من المحل ألقى السيد سليمان جسده على الكرسي متنهداً بارتياح متحدثاً لنفسه : تباً لذي الرأس الأحمر، لقد جعلت نفسي غريب الأطوار عندما تأثرت بكلامه، صحيح أن هذا الكابوس الأسود سيسكن في أرقى منازل لكن ..

برقت عيناه الطمّاعتان وهو ينظر إلى الدراهم فوق مكتبه وقال بسعادة :
لا بأس فالمال يأتي أولاً !..





الفصل الحادي عشر

ذهب ساري سريعاً إلى المنزل الذي اختاره .. أعجبتة الحديقة ورائحة
الفل العطرة فأسرع ليرتب أغراضه داخل المنزل .

اختار غرفة واسعة من بين العدد الكبير إلى الغرف وانتهى من ذلك في
وقت قياسي .. أحس أن هناك شيئاً ينقصه، ذهب إلى المطبخ ووجد أدواته
مجهزة لذلك أعد لنفسه مشروب الكاكاو والقهوة الساخنة وأخرج من جيبه
لوح الكاكاو الأسود بنكهة البرتقال .

حمل صينيته وذهب ليسترخي في مقعد مريح بالحديقة .

كانت الأجواء هادئة .. سمع أصواتاً متداخلة وكأنه شجار بين زوجين
من ناحية البيت الأيسر، أغمض عينيه بنكد... فما كان يجب عليهما أن
يتجادلا في الوقت الذي يشرب فيه مشروبه المفضل!

ثم سمع صوتاً غريباً من خارج المنزل، صوتاً لم يسمعه من قبل ولا
يتذكر أنه مرَّ عليه!

قال الصوت بهدوء ممزوج بسخرية :

- أما زلت على عادتك تشرب قهوتك الممزوجة وتأكل الشوكولاتة أيها القبط الأسود .. يا ضابط ساري .. عفواً يا (.....)

نطق الصوت باسم لا يعرفه إلا القليل جداً في العاصمة ..!
فتأهب ساري للحاق به وإمساكه .. ولكنه غير خطته فعاد متكئاً يأكل
بهدوء ..

عندما انتهى .. نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الحادية عشرة ليلاً لذا
قرر أن يأوي إلى فراشه وقبل أن يغمض عينيه عاد يفكر في صاحب
الصوت .. ليس الضابطين المستجدين اللذين قدما معه، إنه شخص من
الماضي .. يعرف لقبه .

ذاكرة ساري عندما عادت إلى لحظة الطفولة تشوشت قليلاً وتقلب على
فراشه محاولاً محوها .. جلس على سريره ممسكاً برأسه بقوة وكأنه يريد
عصره .. إنه لا يريد أن يتذكر شيئاً أبداً فقط يريد النوم لكن النوم طار
بعيداً فلا بد أن يعرف صاحب الصوت، فكر لدقيقة ثم اثنتين .. ثم
ابتسم بمكر .. يتحدث في نفسه :

لقد عرفته ..!

إنه ذاك بلا شك ..

تباً .. سأجعله يدفع ثمن تأخري عن النوم لعدة دقائق ..!

* * * *



الفصل الثاني عشر

كان صباح يوم الإثنين منعشاً ماحياً معه فوضى سكان القرية وإشاعاتهم
على الأقل بالنسبة لجمال ..

مشى بين الأزقة راضياً عن منزله المريح وقد نعم بنومة هائلة، توقف
قليلاً عندما رأى السيد صفوان يرتب بضاعته فذهب لمساعدته حتى فرغاً
مبكراً ..

تسلقت الشمس إلى الأعلى ببطء في الأفق وامتزجت ألوان الشروق مع
خيوط الليل الراحلة .. لتغدو لوحة بديعة الإتقان ..
زقزقة العصافير ونسيم الهواء العليل مع ذاك المنظر أعاداً إلى جمال هدوءه
فابتسم بارتياح .

لم يكن محل الخضروات كبيراً فقد صفّ البائع بضاعته بشكل منظم
ليتسع المكان للزبائن جاعلاً الفواكه مصفوفة على رفوف الجدار الأيمن
والخضروات على الرفوف اليسرى، أما صناديق النعناع والبقدونس
والورقيات الأخرى فقد جعلها على رفوف منخفضة أمام مكتبه ..

عاد السيد صفوان ويده كوبان من مغلي النعناع فاستوقف جمال الذي
همَّ بالخروج فور انتهائه من المساعدة وقال بامتنان :

- لا يجدر بك الذهاب هكذا يا رجل .. أعلم أنك تحب هذا لذا فقد
صنعتة خصيصاً لك ..

وضع الكوب الذي كان يحمله بيده ففاحت منه رائحة النعناع التي
أسرت جمال وسحبته من رقبتة لتجبره على الجلوس أمام السيد صفوان
في مكتبه .

ارتشف من كوبه رشفة ثم قال :

- ما أجمل الطبيعة في قريرتكم يبدو أنني محظوظ بقدومي إلى هنا ..

- أجل .. طبيعتها خلابة بلا شك ولكن على الرغم من ذلك فإن أغلب
قاطنيها ذوو عقول سقيمة .

ابتسم جمال بخجل وقال متلطفاً :

- لقد سمعت ذلك .

ظل السيد صفوان يتكلم بجدية وقد غدا ضئيلاً أكثر مما يبدو عليه :

- إنهم يقولون ما يجلو لهم ولو كان على حساب الآخرين! التعليم هنا بدائي جداً وغالبية السكان جهلة وعنيدون لذلك لم يجبرهم العمدة على التعليم، وهذا خطأ برأيي فلا بد للإنسان أن يتعلم ما يجمله ويتقن ما يتعلمه .

لقد كنتُ في صغري مستاءً لعدم وجود مراحل تعليمية بعد المرحلة الابتدائية لذا فقد أرسلني والدي رحمه الله إلى قرية المشاتل لأتعلم على يد مهندس زراعي وقد استمتعت بوجودي هناك ووددت لو لم أعد، لكن قريتهم ذات أنظمة صارمة، ففور انتهاء مدة التعليم دفعت إلى المهندس حقه وعدت إلى قريتي .

تنهد بأسى ثم تابع :

- الناس هنا يحسدونكم لكونكم من دولة متطورة ومجتمع غني متفهم مقارنة بنا!

ضحك جمال وقال بعدما ضرب كتف السيد صفوان مازحاً :

- وأنت .. هل توافقهم؟

- لا بالطبع، فأنا قد أتقنت عملي وأحبيته الآن ولكني أتمنى لابني حياة كريمة في مجتمع واع .

نظر السيد صفوان إلى الخارج عبر باب محله المفتوح .. ثم أردف :
- الآباء قد يفرطون أحياناً في خوفهم على مستقبل أبنائهم فالمجتمع قاسٍ لا يرحم .

- لماذا تخاف على ابنك لهذه الدرجة؟!!

أطبق السيد صفوان شفتيه وقد أدرك أنه كاد يفضح سر ابنه ثم قال :
- لا أريد أن يعيش في بيئة جاهلة مثل هذه .. إنهم كالماشية يسوقهم الكلام يمناً ويسرة، نساء بألسنة ثرثارة ورجال بعقول مريضة، كيف تريد أن يكون الأطفال إذا كانت هذه حال أبويهم، القرية تتوارث الصفات السيئة جيلاً بعد جيل .. والعمدة لا يهتم إلا بأمواله وتجارته والتملق للحكومات الأخرى!

وجد جمال أن البائع متحامل على قريته كثيراً لسبب يجهله ففكر في سؤاله عن بعض الإشاعات :

- اعذرني سيد صفوان ولكن أريد أن أسألك بشأن بعض القصص التي سمعتها عن قريتك قبل مجيئي؟

اتكأ وجه السيد صفوان على كفه وقال بغير اكتراث :

- سل ما بدا لك ..

- قيل لي إن هناك قصصاً تنتشر حول شجرة ضخمة على قمة التل بين الجانب الشرقي والمنطقة الوسطى؟ وأيضا جرائم قتل حدثت قبل عدة سنوات لم يعثر على الجاني ..

- آه .. أنت تقصد تلك التي وقعت قبل تسع سنوات، إنها مأساة فعلاً فالسيد عارف وابنته الأصمان كانا في منتهى الأخلاق الحميدة والاهتمام بالناس، ولكنها أمسيا بين عشية وضحاها جثتين مهشمتي الرأس بوحشية ومدفونتين في أعلى التل، وكذلك الحداد عصام على الرغم من أنه لم يكن معاقاً أو ما شابه ولكن علاقته قوية بالسيد عارف وأجزم أنه كان معه أثناء هجوم المجرم العديم الرحمة لذلك فقد نال نصيباً من حظهما السيئ أو ربما قد حاول الدفاع عنهما .

- لقد قُلت هُشمت رؤوسهما .. هل السيد عصام قُتل هكذا أيضاً؟

- نعم .. فقد قال طبيب القرية لشرطة العاصمة آنذاك إن أداة القتل تبدو شيئاً حاداً وثقيلاً وقد بوغت الثلاثة من الخلف .. ولما لم تفلح جهود الشرطة في العثور على الجاني عادت بتقرير سيئ إلى العاصمة مما منع انضمام قرينتنا لبلاد جهمارا المتطورة في ذلك الوقت، ثم بدأت بعدها الإشاعات والخرافات بالانتشار والتي تُعد مكسباً لذلك الفتى الأخرق سليم .

ابتسم جمال بيأس عند ذكره فقد مر به ليلة البارحة وهو يتحدث ببذاءة مع أصدقائه فلم يستنكر ذم السيد صفوان .. ثم سأل البائع عما حلَّ بعائلة الضحايا فأجابه :

- السيد عارف كان له ثلاث بنات غير الفتاة المقتولة وزوجة ضعيفة مكلومة .. لذا فقد أوتها زوجتي المرحومة عندنا شهراً حتى أتى أخوها من قرية أخرى نسيت اسمها وأخذ أخته وبناتها إلى هناك .

أما السيد عصام فلم يكن له إلا ابن هزيل منطو لا يختلط بالناس ولذلك فإن سكان القرية لا يستطيعون تمييز وجهه على الرغم من أني سمعت سابقاً أنه ساعد أباه في توصيل بعض الطلبات ولكن الأمر لم يدم طويلاً فقد كان يرتكب الأخطاء في توصيل البضاعة إلى أصحابها مما دفع البعض إلى الشكوى من ذلك لوالده .. وعاد السيد عصام ليعتمد على نفسه في هذا الأمر .

- وماذا حل بالصبي بعدها؟

- اختفى بعد الحادثة .. وتضاربت حوله الأقوال .. فمنهم من قال إنه قُتل معهم ولكن لم يُعثر على جثته ومنهم من قال إنه ذهب لقرية أخرى عند أهل والده، ولكن كلها غير مؤكدة فهو منقطع عن الناس ولا يكاد أحد يميز شكله ولا يعرف أخباره ..

- وبعدها؟

جاء الرد بصوت هادئ على نحو غامض :

- أغلق ملف القضية لكون المجرم مجهول الهوية!

لم يكن السيد صفوان من أجب، لذلك التفت الاثنان إلى الخلف بسرعة..
حيث كان ساري قد دخل المحل كالقطة بلا خطوات مسموعة!

أمسك تفاحة بيده ووضع ثمنها بيد البائع ثم نظر إليه محذراً وخرج .

فهم السيد صفوان التحذير وابتلع ريقه وعيناه لا ترمشان .. ظل جمال
يكلمه ويلح عليه إن كان قد فهم شيئاً أو تذكر شيئاً بينما ظل البائع محمر
الوجه مصعوقاً!

مرت أربعة أيام وجمال يزور السيد صفوان ويخرج خائباً خالي الوفاض..
حتى جاء ظهر الجمعة .. ذهب جمال إلى محله فوجده مغلقاً ولوحة كبيرة
عُلقَت على الباب :

نعتذر لزبائننا الكرام سيغلق المحل حتى إشعار آخر!





الفصل الثالث عشر

- لقد أخذه الجنى أنا واثق من ذلك ..
- سمعت الغول يغني بالأمس :
- سأخذ غداً حبة الفول .. وأدور بها بين الحقول
- فإن نجت فتلك واحدة .. والباقي سيكون مقتول!
- سأل أحد الأطفال بائع الحليب :
- سيد سليم لقد قلت إن الجنى اختطف السيد صفوان وابنه؟
- نعم، ليس في ذلك شك أو لم تفهم الأنشودة؟
- حك الطفل رأسه والأطفال يتضحكون من حوله وقال بخجل :
- في الـ.. حقيقة .. لم .. أفهم منها شيئاً!
- تنهد سليم بنفاد صبر وبدأ يشرح الأبيات :
- لقد سمعته يقول إنه سيأخذ حبة الفول وهو يقصد السيد صفوان وابنه

لسببين : الأول أن السيد صفوان وابنه متشابهان جداً كالفولة التي قُسمت نصفين والثاني أن الفول نوع من الحبوب التي لا يبيعهها في القرية سواه .. ثم قال إنه سيدور بعدها بين الحقول أي سيخرج من ناحية التل إلى خارج القرية .

فإن نجت فتلك واحدة أي إن نسبة نجاة السيد صفوان وابنه واحد بالمئة، ونسبة قتلها الباقي أي تسعة وتسعون!

ارتجف طفل آخر فقال ودموعه تسيل في حضنه :

- لقد كان وليد صديقاً جيداً لم نتعرف عليه إلا منذ عدة أيام ولكنه متواضع رغم أنه يرتدي النظارات الفخمة من العاصمة إلا أنه لم يتكبر علينا ..

رد سليم :

- هكذا هو الغول لا يرحم أبداً ..

في تلك الأثناء كان جمال قد أخفى مسجلاً صغيراً في جيبه وسجّل كل ما قاله بائع الحليب .. وقد كانت هذه عادته منذ قدومه إلى القرية ثم يفرغ محتويات شريط التسجيل في ورق بشكل مرتب .

ظهر جمال من خلف أحد الجدران وقال بجدية أمراً :

- سيد سليم .. تعال معي من فضلك!

تفرق الأطفال بجزع واختبؤوا خلف الحيطان ينظرون بتجسس ..

أحس بهم سليم ولم يُرد لهيبته أن تسقط أمامهم فمشى سريعاً والذهول
باد عليه حتى قال بصوت منخفض يخاطب الضابط :

- هل نستطيع ذلك في منزلي لو سمحت؟

وافق جمال وذهب معه إلى جنوب القرية .. كان بيته صغيراً وله أختان
ووالدة في الأربعينيات ومزرعة صغيرة خلف المنزل فيها عدد لا بأس به من
الأبقار .

قرع سليم الباب وهو يقف وجلاً مصفرّ الوجه إلى جانب الضابط
الغاضب ..

فتحت والدة سليم الباب وفور رؤية الضابط جمال صاحت وملمت
رداءها حولها من الخوف وقالت :

- لم يفعل ابني شيئاً .. اتركوه .. إن له رفقة سيئة ولا بد من أنهم حاكوا
حوله خيوطهم، آه صغيري المسكين .. أنت مظلوم أليس كذلك ..؟

صمت بائع الحليب ثم قال وقد اختار كلماته بعناية :

- لقد أراد الحديث معي في موضوع وطلبت منه أن نتناقش هنا فقط!

وضعت يدها على صدرها وتنهدت بارتياح ثم قالت لجمال الذي ظل
واقفاً بصمت :

- أعتذر إليك لسوء ظني أيها الضابط أنت تعرف قلب الأم .. وما تحس
به اتجاه وحيدها ..

أوماً موافقاً وهو يفكر كيف لذكر أن يعرف ما تحس به الأمهات وبالذات
أم هذه الآفة التي بجانبى ..!

- تفضل سوف نعد الشاي والقهوة .
- شكراً سيدتى ولكنى فى عجلة من أمرى لذلك لا داعى للمزيد من
إزعاجك .

دخلت السيدة المطبخ فاستقبلتها ابتهاها بذعر وقد كانتا شبيهتين بأخيها
ذى الشعر الأحمر .. قالت والدتها :

- بسرعة اصنعا ضيافة لسليم والضابط .
- بعد أقل من عشر دقائق .. طرقت السيدة باب غرفة الاستقبال فنهض
سليم واستلم من والدته صينية بها دلتان من القهوة والشاي وصحن كبير
من التمر .. قدمه للضابط ثم جلس أمامه .

كانت الغرفة مؤثثة بأثاث ملون بألوان فاتحة متناغمة تبعث على البهجة
وقد زينت الزوايا بأصيصات الزهور ذات الرائحة الشذية، أيقن جمال أن
هذه لمسات نساء البيت وليس هذا الشاب المتسكع أمامه .

- إذاً .. لا أريد أن أعطلك عن عملك ولكن ما قصص الغول واختفاء
السيد صفوان؟

أُخرج سليم واحمرَّ وجهه ثم قال مراوغاً :

- الأطفال دائماً يحبون مثل هذه ..

قاطعہ جمال بحزم :

- وما شأني بالأطفال، لماذا تزعم أن السيد صفوان سيقتل؟ هل تعرف شيئاً؟

- لا أعرف شيئاً يخص اختفاءه أبداً .

- بلى .. تعرف وستخبرني .

- هذه مجرد قصص فقط يا سيدي الضابط .

- عض جمال شفته وضيق عينيه الخضراوين .. صمت دقيقة ثم تكلم بإصرار :

- أنت تعرف .. أنا متيقن من ذلك، أخبرني بكل ما تعرفه الآن وإلا أرسلتك إلى شرطة العاصمة حالاً بتهمة تضليل الشرطة .

أخذت دقات قلب سليم تتسارع ونفسه يختنق، حاول أن يصب الشاي لنفسه ولكن يده المرتجفة خانته، استجمع قواه وقال بحذر كأنه حيوان محاصر :

- اسمع .. أنا لا أعرف ما تقصد بالضبط ولكن سأقول لك ما أتذكره عن هذا الأمر .. وإن أرسلتني إلى العاصمة ظلماً فليأخذك الله إلى قعر الجحيم..!

نظر جمال إلى الأسفل محاولاً تهدئة غضبه وقد ساوره شعور بأنه لو نظر مباشرة إلى عيني الشاب الوقح أمامه فإن لكمة قوية ستطير منه إلى وجهه لتفسد أسنانه أكثر مما هي عليه .

قال سليم بخشية :

- الذي أعرفه أن عائلة قُتلت قبل تسع سنوات وأن المجرم كان يستهدف ذوي العاهات لسبب تجهله كل القرية ولذلك كل أسرة فيها معاق تخفيه خوفاً عليه من القتل .

- والسيد صفوان؟

- السيد صفوان كان سليماً ولكن ابنه ..

ثم صمت في تشكك وبعد برهة أتم حديثه :

- يبدو أن ابنه الذي نسيت اسمه ذو عاهة في عينيه فهو لا يمشي إلا مع والده ..

بعد سماعه لقول سليم، ركضت ذكرى سريعة في مخ جمال فأمسك بها بقوة .. تذكر اللقاء الأول له مع السيد صفوان وتعثر الصغير بالطاولة واندلاق كوب الشاي بالنعناع .. استرجع كلمات الطفل الحاقدة على القرية ورغبته ووالده بالخروج منها في أسرع وقت .. كلا لم يكن مرضاً عارضاً بل كان الطفل كفيفاً ووالده يخشى عليه!

هكذا إذاً .. مم يخشى عليه يا ترى ..؟

سأل هذا السؤال لسليم :

- إن كان الطفل كفيفاً أو به عاهة أخرى فما الذي سيحصل؟

رد سليم ببطء مستمتعاً :

- سيقتل يا سيدي بلا شك .. وبعدها ستخلو القرية من ذوي الإعاقات ..

أحس جمال برغبة جامحة في ضرب هذا الشاب وتأديبه ولكنه أجّل ذلك احتراماً للسيدة وإجلالاً لأهل المنزل، فطلب منه أن يوصل شكره لوالدته على حسن الضيافة وخرج مسرعاً .

* * * *



الفصل الرابع عشر

خرج هارون من المسجد بعد صلاة العصر مبتسماً بعدما سلّم على الإمام والمصلين وتعرف على جميع من في المسجد ..

انتعل حذاءه الجلدي الأسود .. كان يشعر بالضيق لهذه البدلة العسكرية السوداء والقبعة ولكنه واسى نفسه فاليوم الثامن من الشهر وقد تبقى اثنان وعشرون يوماً ثم يعودون إلى العاصمة، رسم لنفسه منظراً جميلاً عندما يتم تكريم الضباط الذين نجحوا في المهمة، سمع أصوات التصفيق في مخيلته فتحمس ليحقق حلمه ..

لقد كان هارون طموحاً ومحبوباً من السكان، نظر إلى المجنون ميمون الذي خرج من المسجد أيضاً!

تساءل في نفسه :

هل يحفظ السور هذا .. كيف يستطيع الصلاة!؟!

ابتسم ليمون لكن الآخر بصق على التراب أمام هارون وسط استهجان

الناس :

- هيه .. أنت .. أيها المختل كن مؤدباً مع الضابط ..
- لقد ابتسم لك ألا تتعلم منه الأخلاق ..؟!!
- عُد من حيث أتيت ..
- بقي ميمون يضحك في مكانه ثم تغيرت نبرة صوته وغدت كنبرة فتاة
غير تخاطب والدها :
- أنتما لا تحبانني أليس كذلك؟ أنت وذاك ذو الأعين الخضراء البغيضة ..
أنتما تتأمران علي .
- ثم تحولت نبرته إلى أكثر عدوانية وصرخ بصوت عالٍ :
- نعم .. لقد هددني رفيقكما الثالث صاحب الشعر الطويل بفقء عيني
وقتلي .. أنا أيضاً أكرهكم فلتخرجوا من هذه القرية ..!
- فغر هارون فاه وهو ينظر إلى المجنون ويحس بمشاعره العدوانية الخانقة
.. دفع الناس المجنون إلى الخلف فهرب إلى منزله وتفرق الجمع بينما بقي
هارون مذهولاً .. لمح جمالاً قادماً من الجهة الجنوبية فذهب مسرعاً إليه :
- أهلاً بصديقي جمال .. اليوم يوم الجمعة ونستطيع الحديث أليس كذلك؟
- حك جمال جبهته وما زال مشغول البال فرد باقتضاب :
- حسناً .. هناك الكثير من الأمور التي تشغل بالي وبها أن اجتماعنا سيكون
في بيت واحد منا فأنا أرشح ساري .

- صحيح .. إن منزله الذي استأجره فخم في الجهة الشرقية، يبدو أن شرطة العاصمة قد أغدقت المال على دميتها المدللة .

كان جمال يهز رجله بتوتر ولم يستسغ الدعابة في هذا الوقت فقال :

- وكيف عرفت أن منزله في الجهة الشرقية؟

دُهِش هارون من السؤال فأجاب ببطء :

- عندما ذهبت للصيد هذا الصباح قال لي ذلك الصيادون!

- لأول مرة أعرف أنك تهوى الصيد!

أدخل هارون شفتيه داخل فمه بانزعاج لدقيقة يتأمل جمال الواقف أمامه متوتراً .. ثم قال بعصبية :

- ما لك؟ لم تسأل هذه الأسئلة التافهة؟ أضربت على رأسك؟

تنفس جمال الصعداء وتكلم معتذراً :

- ما بالي؟ صحيح .. هناك أمور شائكة في رأسي .. و.. يبدو أنني فقدت عقلي لبعض الوقت .. لا عليك يا صديقي ..

مسح هارون على رأسه الجعد وانصرف غاضباً إلى طريق آخر ..

ظل جمال واقفاً ينظر إلى التراب يتأمله كأنها يبحث عن نملة ضائعة ليفتعل معها شجاراً، قادته قدماه بعد ذلك إلى محل السيد صفوان الذي ما زال مغلقاً، سأل عنه المارة والجيران فعاد بخفي حنين ليستقر في السوق الشعبي فاقداً الأمل، كان يتأمل بشهية مسدودة كوب النعناع أمامه .. فأحس بعينين تحترقان قلبه ودماغه .!

رفع رأسه .. والتفت يمنة ويسرة .. لا شيء مريباً .. ما الأمر إذاً ..؟!
طمأن نفسه بأنه يتوهم ذلك .. ثم أنزل رأسه مختبراً حدسه .. نعم لم يكن هناك من يرقبه ..!

مرّ الطبيب صابر عليه فسأله عن السيد صفوان .. أجاب جمال بحيرة :
- ما المسؤول عنه بأعلم من السائل ..

جلس الطبيب أمامه وخرج صوته متألماً :

- لقد فاجأني ذلك .. كنت أزوره كل يوم بعد إغلاق محله .. لم يحادثني عدة أيام، ثم رحل فجأة دون سلام ولا كلام .

- هل كان يعاني من مرض ما .. أجبره على الرحيل؟

- لا بالعكس لقد كان مستصحاً متفائلاً .

- وابنه كان أعمى أليس كذلك؟ حتى فترة قريبة كنت أنت الوحيد الذي تعلم بهذا ولكن الآن انتشر الأمر .. لذلك لا داعي أيها الطبيب المحترم لإخفاء أي شيء عني .. إن كنت تريد الاطمئنان على صديقك وابنه فأرجو أن تثق بي حتى أتمكن من إبقائهما سالمين .

- أنا أثق بك .. ولي نظرة لا تخطئ في الحكم على صدق الناس وكذبهم .
- كيف؟
- لا أستطيع الإسهاب في هذا الموضوع الآن بسبب اضطراري للعودة إلى العيادة ولكن باختصار فإن الكاذب حين يكذب تتحرك مقلتا عينيه باهتزاز قليلاً ويحاول تجنب عينيك إن نظرت إليهما مباشرة، هناك أمور أخرى تظهر على ملامح الوجه ولغة الجسد .
- حسناً وهل تراني صادقاً؟
- نعم .. بلا شك .
- بعدها .. تحاور الاثنان في قصة ابن الحداد واختفائه واحتمالية ربط المأساة السابقة باختفاء السيد صفوان وابنه .. ثم تحدث جمال :
- إذا .. هل بإمكانك أن تطلعني على سجل القرية الطبي خلال السنوات التسع الماضية؟
- إنه ممكن ولكن هناك معلومات خاصة للعمدة والحرس وغيرهم ومن الأمانة ألا يراها غيري ..
- والطبيب الآخر أظن اسمه جلال هل يُسمح له؟
- لا .. إنه جديد أتى إلى القرية قبل ثلاث سنوات وهو صعب المراس ولا أظنه سيفيدك في شيء .

- إذاً قد يتضرر السيد صفوان بسبب رفضك .. فكر أكثر يا سيد صابر .

حك الطبيب أنفه وقال مستسلماً :

- في يوم الأحد بعد غد .. الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة ظهراً تعال إلي منفرداً لأريك إياها، وأرجو أن يكون الأمر بسرية تامة فالموضوع خطير وقد يُساء فهمي من العامة ولا أستطيع الشرح لهم، أرجوك هل تعدني بذلك؟

رد جمال بجدية وقد برق في عينيه شعاع من أمل :

- أعدك ..

ودّع الطبيب جمالاً وخرج من باب السوق الشعبي ..

أنهى الضابط كوبه وتوقف في منتصف الطريق، فكر في نفسه بسرعة : لم يكن وهماً هذه المرة .. هناك من يراقبني!

من؟ ولأي غرض؟ من بين مئات الأعين في السوق .. فقط عينان ..
حارتان

تكادان تخترقان قلبي .. لم أشعر بمثل هذا من قبل ..

يبدو أن شخصاً يضمّر لي شعوراً قاتلاً .. شعور تهديد ..

نعم إنه الوصف الأنسب .. لكن الشيء الذي ما زلت أجهله ..

هل التهديد صادر مني لذلك الشخص ويخشى من شيء ما؟

أو أنه هو يهددني إن تصرفت أو قلت ما لا يصب في مصالحه ..!
تَبَّأ .. أحس بلهيب العينين ينبعث من الناس الجالسين على الطاولات
خلفي .. لا أريد أن ألتفت .. ولكن .. أريد أن ألتفت ..!
فقط من؟ إذا عرفت من فيني سأعرف لماذا ..

- سيدي الضابط من فضلك .. هلا أفسحت لي الطريق فأنا مستعجل .
جفل جمال من الصوت الذي قاطعه .. فنظر خلفه، فإذا برجل يرتدي
بدلة العمل، يجر نقالة ممتلئة بمواد البناء الثقيلة ويبدو أن جمالاً قد سد
الطريق عليه فقد وقف في منتصف الممر ليفكر .
تحرك إلى اليمين ليعبر الرجل .. فتحركت معه الأعين المراقبة .
حرك قدمه اليمنى ثم اليسرى متجهاً إلى الباب فتبعته الأعين!
أحس بقربها منه تضغط على رقبتة .. تخنقه .. تريد قتله .

خرج من السوق مهرولاً فاصطدم بساري الذي كان يمر بجوار
السوق ..!

ترنح جمال لكنه استطاع الوقوف على قدميه مرة أخرى بينما لم يتزحزح
ساري من مكانه كأنه عمود حديدي مغروز بالأرض .
ضاعت الكلمات والحروف من جمال فنظر إلى مدخل السوق بهلع ينتظر
شخصاً ليخرج منه .. ولكن لم يخرج أحد!

قال جمال وهو يتنفس بسرعة :

- أنا لا أتوهم إنها حقيقة ..

ظل ساري يحدق فيه بصمت .. ثم قال بصوت هادئ كالطبيب النفسي
الذي يروض مجنوناً هائجاً :

- إنها حقيقة؟ ما هي؟ أخبرني .

- ف.. في الواقع ..

صمت جمال للحظة متذبذباً ثم أكمل :

- في الواقع .. سنجتمع اليوم في بيتك بعد صلاة العشاء!

اتسعت عينا ساري بتعجب وقال مستدركاً :

- أنت لا تتوهم، إذاً الحقيقة التي لحقتك حتى خرجت من السوق هي أن
الاجتماع سيكون في منزلي؟!!

كان يعرف أن جمالاً لا يقول الحقيقة لذا أكمل باستهزاء :

- حقيقة مرة بالنسبة لك، سأستمتع باستضافتكما .. في تمام الساعة الثامنة
مساءً .

أدار ساري ظهره، وتوقف عندما سمع صوت جمال غاضباً :

- أنت لا تفهم .. تبقى نائماً تحت تلك الشجرة بجانب المقبرة النهار كاملاً
.. ثم تكمل نومك في منزلك في الليل! ..!

هل هذا ما تسميه عملاً؟! كيف أصبحت من النخبة بهذا الضمير الميت؟
أنت لا تتواصل مع السكان ولا تعرف شؤونهم ومطالبهم ومخاوفهم ..
هناك أرواح بريئة في خطر .. وأنت تتسكع كالعاطلين عن العمل .

مرت دقيقة وساري يقف مولياً ظهره للضابط المنفعل خلفه على بعد
ثلاثة أمتار منه، سمع عبارات جمال التي خرجت من قلبه المتألم .. كان
جمال ينتظر إجابة تشفي غليله ولكن ساري مضى في طريقه بصمت ..





الفصل الخامس عشر

في الساعة السابعة وثلاثين دقيقة مساءً مرَّ هارون على بيت جمال وبيده
حزمة من الأوراق ورائحة العطور تسبقه فوجده مكفهر الوجه يغلق
باب منزله ويحمل ملفاً مرتباً، قال هارون بتلطف :

- ما الذي غيرك .. كنت مرحاً بشوشاً .. وها أنت هنا كالبركان الذي
يكبح انفجاره في أية لحظة؟

- لا أدري .. أنا في الحقيقة لا أعلم .. لذلك .. أرجو ألاّ تسألني حتى
نصل إلى بيت التمثال الصامت .

- حسناً يبدو أن انفجارك سيكون هناك؟

لم يجب جمال ..

مشى الاثنان في طرق ملتوية بين المباني وقد لوح الكثير ممن التقيا بهم
بأيديهم مرحبين بهما فقد كانت لهما سمعة حسنة منذ مجيئهما .

منظر السماء خلاب .. سواد كالح ونجوم لامعة تبرق بين الفينة
والأخرى، أصوات الأمهات ينادين أطفالهن للعودة إلى المنازل والرجال
يتحدثون في كل زاوية من القرية .

إنها وداعة مزيفة!

هذا ما قاله جمال في نفسه ذلك الوقت ..

وصل الاثنان إلى الجانب الشرقي .. ثم مشيا بمحاذاة البحر ..

قال هارون بغبطة :

- هذا الحي الراقي يستمتع بمنظر كهذا طوال السنة .

رفع رأسه الأجدع إلى السماء متأملاً روعة القمر وانعكاسه على البحر
الذي أمسى أسوداً في هذا الليل البهيم ..

ثم استدارا إلى الخلف فوجدا يداً بيضاء تلوح عالياً .. مع الملابس
العسكرية السوداء والشعر الأسود الكثيف .. لم يلفت انتباههما إلا هي ..
بعدها وصلا إلى المنزل .. كان ضخماً مساحته شاسعة .. مطلياً باللون
الزهري الفاتح وعلى سقفه قرميد أحمر .. وقد زُينت الأبواب والنوافذ
بنقوش مشابهة .. دخلوا أولاً إلى الحديقة المبهجة بمسالك الورد والأحجار
الملونة، ثم قادهم ممر نظيف إلى صالة داخلية للمنزل مؤثثة بأثاث ذهبي فاخر

وقد علقت المصاييح الزجاجية الضخمة في السقف المرتفع بشكل أضفى عليها تألقاً ورونقاً، فكر جمال بانبهار وهو يتأمل روعة المكان .. إن كان من شيء غير متناسق .. فهو هذا الغراب الأسود أمامي .

جلس جمال وهارون في مقعدين متفرقين أمام ساري ..

وعلى نحو مباغت ..

دخل خادم بشعر فضي مموج يغطي أذنيه ونظارة ثقيلة من الطراز القديم، كان يرفعها بقفازه الأبيض عندما تنزلق عن أنفه مرتدياً بدلة رسمية بنية اللون !..!

بدا على وجهه الحاد الملامح مسحة الاحترام فقام بواجب الضيافة على أكمل وجه وصب القهوة للثنتين ثم وضع مشروب ساري المزاجي في وعاء خاص أمامه وسكب له بدقة .

تبادل الضيفان النظرات في تعجب .. من أين أتى بالخادم؟!!

هارون ظل يرقبه ويلاحظ براعة حركاته حتى انصرف .. بينما جمال الذي لم يكن صبوراً قال مخاطباً ساري وقد أزال قبعته فظهر شعره البني الذي ما زال كالوبر الناعم :

- هل يوزعون خدماً مجاناً في البيوت الراقية؟

قال ساري بلا مبالة :

- ربما ..

غَيَّر هارون بسرعة مجرى الحديث :

- حسناً فهذه الأوراق أمامكم قد جمعت فيها إحصائية عن عدد السكان

إنثاءً وذكوراً، وقابلت أيضاً بعض المعلمين ومديرة مدرسة البنات ..
وتناقشنا في الأوضاع والمستجدات .

وضع جمال شريطاً مسجلاً وحزمة من الأوراق ثم قال باستياء :

- لقد قابلت بعض الحراس وسألتهم عن عملهم ومساكنهم ومرتباتهم،
وأيضاً ذهبت إلى العمدة فأطلعني على بعض السجلات الخاصة
بصادرات وواردات القرية .

سرد الاثنان معلومات أكثر .. ثم دخل الخادم فوقف على رأس ساري
كالخارس وقال :

- سيدي هل تريد أن أجلب تقريرك؟

- لا داعي .. إنه غير مهم ..

- ماذا أفعل به إذاً؟

- اجلس هنا وفكر فيما ينبغي عليك فعله به!

جلس الخادم بهدوء على إحدى الأرائك وكأنه ضيف من المدعوين ..
خيّم الصمت على المستجدين فقال هارون بلباقة :

- ضابط ساري .. ما كان ينبغي على اجتماع وحدتنا أن يدخلها شخص
غريب!

تنهد ساري وقال :

- إنه لن يشاركنا بالحديث .

قبل الاثنان على مضض وجود الخادم وأكمل جمال :

- آه .. لقد تذكرت أمراً .. ذاك الشاب ذو الشعر الأحمر .. إنه يبدو لي مريباً بعد اختفاء السيد صفوان .. ما زال يقص حكاياته المبتذلة ويصدقه العامة، أما من قانون يمنعه .. في الحقيقة قال لي عندما زرته في بيته إن هناك حالات اختفاء وقتل حدثت قبل تسع سنوات .. وأظن أنه لا يمكننا العثور على السيد صفوان ما لم نتحقق من الواقعة القديمة .

ردَّ هارون على جمال مذكراً:

- لم تطلب منا العاصمة البحث في الجرائم أبداً، أخشى أننا إن فعلنا ما لا يدخل في نطاق أوامر المشرف فسيعود البحث علينا بنتائج وخيمة ..

لم يبدُ على جمال الاقتناع أبداً فأكمل هارون :

- أما أنا فتنتابني الحيرة حول ذاك المجنون فهو يكرهنا كرهاً عميقاً، وقد أخبر أنك يا ضابط ساري هددته بنفقه عينه وقتله!

قال جمال بحماس محمر الوجه يخاطب ساري الذي أغمض عينيه برضا :

- هل قمت بذلك فعلاً؟

- نعم ..

- اغتاظ جمال وصرخ به :

- أنت تعلم أنه مجنون لا يؤخذ بما يقول، لماذا إذاً تهدده؟
- لأنه أفسد علي قيلولتي .
- .. أنت تشوه سمعتنا بين السكان، تصرف باحترام أكثر .
- وهل تريدني أن أتعلم الاحترام من شخص يرفع صوته على من هم أعلى منه رتبة؟ لو نقلت كلامك إلى العاصمة فسيُزج بك في السجن لتمردك أيها المستجد ..
- وقف جمال بسرعة وأشار بإصبعه مهدداً ساري :
- أخبرني حالاً .. لماذا تهمل عملك وتلقي بكل شيء فوق ظهورنا؟
- رفع ساري كتفيه بغير اكتراث واضعاً قدماً فوق الأخرى وقال :
- البحث عن معلومات القرية أمر ممل جداً، لذلك لن أقوم بذلك .
- قطب هارون جبينه بعصبية، بينما اندفع جمال ليقذف ساري بالملف، قفز الخادم بسرعة كالبرق وأمسك بيده قائلاً :
- تمهل يا سيدي .

وقف هارون وقال بأدب :

- شكراً على حسن الضيافة يا ضابط ساري والجمعة القادمة سيكون الاجتماع في منزلي إن شاء الله .

أمسك صديقه الذي يصر على أسنانه بقهر .. وخرجا من المنزل .
بدأ هارون يلوم جمالاً على تهوره، فأطرق رأسه ثم فتح فمه وكأنه تذكر شيئاً فقال :

- انتظرنى هنا .

ترك صديقه متعجباً وراءه ودخل بسرعة ليقول لساري شيئاً .. ولكنه توقف عندما رأى من النافذة الخادم يخلع نظارته ويجلس مسترخياً ثم يسكب لنفسه كوباً من الشاي! خاطب الخادم ساري بكلمات لم يستطع جمال سماعها ثم رد الآخر فصفق الخادم بإعجاب .. بينما ابتسم ساري وهو يشير إلى الخادم الذي ضحك بدوره!

أحس جمال بأن الخادم سيتجه لإغلاق الستائر، فنسي ما جاء من أجله وعاد بسرعة إلى هارون الذي كان قد ابتعد عن المنزل ووقف في الاتجاه المقابل متأملاً البحر ..

وقف جمال بجانبه حزيناً مكسور الجناح ..

قذف هارون حصاة صغيرة في البحر فتحركت المياه الراكدة ثم قال :

- لا تفكر بهذا العنيد أبداً .. فهناك مشكلة ينبغي التفكير بها أكثر لم أكتبها في التقرير حتى تُحل ..

- لا أريد سماعها فأنا مشتت ..
- أوه .. لا تتحدث هكذا .
- سوف نرفع التقارير آخر الشهر وهناك أحد السكان مختفٍ منذ مجيئنا، سوف يشك الناس، لقد قال لي السيد صفوان إن الناس هنا ذوو ألسنة ثرثارة ولكن ..
- في الواقع لقد دافعوا عني اليوم عندما تهجّم علي المجنون ميمون .
- لأنهم يحبونك فقط .. لو كنت شخصاً عادياً مثلي أو بغيضاً مثل الغراب الذي يستمتع بعشه خلفنا لم يهتموا بشأنك .. على سبيل المثال بائع الحليب تكلم عن إمكانية موت السيد صفوان وابنه باستمتاع .. هل حقاً موت الناس وقتلهم ممتع إلى هذا الحد؟!

وضع هارون يده على كتف جمال بمواساة وقال بتعاطف :

- لا تشغل نفسك بأي شيء سوى أوامر شرطة العاصمة، لذلك أنصحك ألا تقوم بأي مجهود إضافي قد يرهقك ويشل تفكيرك فتخفق تبعاً لذلك في مهمتك الأساسية .

لم تواس هذه الكلمات جمال أبداً .. فارتدى قبعته وودع صديقه ثم سار بخطواتٍ متثاقلة إلى منزله، ارتقى على سريره الأبيض النظيف بقوة وتقوقع على نفسه ملتحفاً كالشرنقة ..

قال في نفسه بكآبة :

يبدو أنني لم أتغير، لقد كانت والدتي دائماً تحذرنى من الإفراط في سقي
الورد حتى لا يموت .. ووالدي دائماً ينبهني ألا أدافع عن أبناء الحارة لأنني
كنت غالباً ما أقع في المشكلات متخلين عني، وها هو هارون يخبرني بعدم
الانخراط فيما لا جدوى فيه .. أنا فعلاً شخص بائس، كل ما أريده هو أن
يعيش الجميع في سلام .. ولكن السلام لا يريدني أن أعيش .. الأمان دائماً
مزيف! فالنفس البشرية قد تحنون وتظلم وتسرق إن لم تجد ما يردعها ..

هناك أمور غريبة جداً في هذه القرية ..

أمسك جمال بورقة وقلم وبدأ يكتب :

أولاً: اختفاء السيد صفوان وابنه :

رجل في أواخر الثلاثينيات .. وابنه الكفيف في الثامنة من عمره .. له
زوجة شهدت معه الحادثة قبل تسع سنوات وأوت زوجة الأصم وبناتها
ولكن زوجة السيد صفوان التي كانت حاملاً بوليد وقتها توفيت منذ سنتين
وزوجة الأصم رحلت مع أخيها بعد مقتل زوجها وابنتها، لو كان المجرم
يضمركرها للعائلة لقتلها أيضاً هي وبناتها ولكنه اختار الزوج الأصم
والبنت الصماء وترك باقي العائلة السليمة!

إذا فإشاعة قتل ذوي الإعاقات صحيحة!

أحس جمال بأنه أمسك أول الخيط فأكمل الكتابة :

ثانياً: السيد عصام :

حداد مجتهد قوي البنية مخلص في عمله وله ابن هزيل ضعيف يكاد يكون

نكرة في مجتمعه .. ولكن الحداد قُتل مباغته مع أنه لم يكن معاقاً .

هل كان ابنه معاقاً ودافع عنه؟

لا .. لا .. مستحيل، لو دافع عنه لقتل من الأمام وليس من الخلف ثم إن الابن نفسه لم يُعثر على جثته أبداً .

ثالثاً : خادم ساري :

شخص جدير بالاحترام ولكنه عندما أمسك بيدي لمنعي من رمي الملف كان كالحارس القوي .. لقد كان جندياً يدافع عن رئيسه وليس خادماً يهدئ من روع الضيوف، أحسست بذلك من خلال نظرتة خلف النظارة .. شرساً متأهباً .. ترى لو قذفته فعلاً فماذا كان سيفعل؟

تخيل جمال أن الحارس سيقطع يده قبل أن تتمكن من الرمي .

كتب مرة أخرى :

خادم متبسط يجلس بأريحية مع سيده ويحتسي معه فنجاناً من الشاي .. إنه ليس بالوضع الطبيعي أبداً!

رابعاً وأخيراً : الفتى النكرة ابن الحداد :

أين هو؟ إن كان قد مات في هذه القرية الصغيرة فستظهر جثته، وإن كان لم يمت فإنه ما زال في القرية، لن يعرفه أحد .. سيغير اسمه بالتأكيد، فحسب اطلاعي على سجل سكان القرية عند العمدة فإن تغيير الأسماء أمر سهل مقابل مبلغ مادي يُدفع للعمدة مع أنني لم أجد اسمه السابق هنا فلا بد من أنه غيره في قرية أخرى تسري بها القوانين نفسها ..

لكن لماذا يغير اسمه؟!

وإن كان خارج القرية إذاً لماذا ما زالت الإشاعات مستمرة؟

هل أحس السيد صفوان بشيء غير مألوف فأخفى ابنه الكفيف؟

والأدهى والأمر .. لماذا زعم ساري أن أبحاث القرية وتاريخها ومعلوماتها أمر ممل ولكنه دخل كالقطة إلى محل السيد صفوان ليكمل القصة القديمة؟

كيف علم بها إذاً؟

وأيضاً من هذا الخادم المتبسط الذي يدافع عنه كأنه يحمي روحه؟

هناك شعور ينتابني منذ بدأنا المهمة .. لا أعرف كيف أصفه ولكن أحس بأن أحداً هنا في هذه القرية لا يتصرف تصرفاً طبيعياً .. شخص واحد أو شخصان يخفيان حقيقتهم واسمهما وهويتهما .. لم يخني حدسي قط .. إنهما اثنان .. لكن .. من هما؟

أتمنى لو أعرف الإجابة ..

في الساعة الخامسة فجراً .. صدح الأذان عالياً ولم ينم جمال تلك الليلة فذهب يصلي .. ثم عاد إلى المنزل ليغط في نوم عميق بعد يوم طويل منهك .





الفصل السادس عشر

- ليس لك الحق يا سيدي الحارس .. هذه ثمرة تعبي طوال الشهر .
- رد الحارس الضخم بشاربيه الطويلين مخاطباً الدهان حسان :
- كل شهر تفتعل هذه المشكلة .. ألا تسأم؟
- بل أنت ألا تمل من أكل حقوق الناس؟
- إن هذه الضرائب التي أمرني العمدة بأخذها منك لا تساوي قطرة من أرباحك .
- تدخل إمام المسجد عبد الغفور فقال بعزم :
- كن أميناً أيها الحارس فالرجل يعمل وأنت تسرق الأموال بحجة الضريبة وما الذي قدمته له حتى تستحق الفائدة؟!!
- أرجو منك يا سيد عبد الغفور ألا تتدخل فيما لا يعينك .. هذا حق مشروع لنا من قبل العمدة .
- خرج هارون تلك الأثناء مبكراً فوجد الشجار قريباً من منزله .. سأل بعض الناس الذين تجمهروا حولهم فقصوا عليه الحكاية، فتوجه صوب

الحارس وقال :

- اشرح لي سبب وجودك عند محل الدهان لو سمحت .
- سـ .. سيدي الضابط .. في اليوم التاسع من كل شهر نقوم بأخذ فوائد بسيطة للعمدة من أصحاب المحلات .. والجميع يعطينا ما عدا هذا الشخص والسيد صفوان الذي هرب بدون أن يعطينا فائدة هذا الشهر.. ولو رفعت اسمهما إلى العمدة فسيسجنهما ويأخذ الفائدة عنوة .
- ارتد رأس هارون الأجدع إلى الخلف بدهشة وقال :
- يسجنهما؟! حسناً وأين تذهب الأموال؟
- تذهب الفائدة كدعم للملجأ الأيتام والباقي للعمدة يصرفها على الأعمال الخيرية الأخرى.
- ومنذ متى والأعمال الخيرية تقوم على الأموال المغتصبة؟
- من فضلك .. سيدي الضابط، استخدم عبارات أنسب عندما تتحدث عن أوامر العمدة .
- فوائد .. ضرائب .. أموال مسروقة .. مغتصبة .. مأخوذة عنوة من أهلها، جميع العبارات تصب في قالب واحد، لا تزور الأمور .
- أسقط في يد الحارس فتوعد هارون مبتعداً :
- سأرفع تقريراً إلى العمدة بهذا، وليتصرف معك هو ..

خرج جمال يجر قدميه متعباً وقد خيمت الهالات السوداء تحت عينيه لقلة النوم، شاهد الناس ينفضون من المحل القريب من بيته وبيت هارون ولمح صديقه يتحدث مبتسماً مع الدهان حسان .. فاستوقف أحد المارة وسأله وحينما أخبره عن أمر الحارس والدهان ودفاع الضابط عنه اطمأن إلى أن المشكلة التي لم يستمعها من هارون قد حُلت لذا ذهب إلى السوق الشعبي وطلب من الفتى النادل أن يُحضّر له فطيرتين محشوتين بمربي المشمش وكوب شاي بالنعناع .

كانت الطاولات ممتلئة فاستأذن أحد الجالسين بالجلوس على المقعد الخالي الذي بجانبه .. صفق المجنون ميمون بفرح وصدح بصوت عالٍ :

- يا للفرحة سيجلس أمامي الضابط الوسيم ..

نظر إلى المتحلقين حول الطاولة فوجدهم مجموعة من الشباب يبدو عليهم أنهم عاطلون عن العمل .

كانت الطاولة تتسع لثمانية أشخاص، الشاب ذو العيون الحادة الذي بجانبه هو حفيد العجوز .. وبجانبه بائع الحليب سليم وشاب أسود اللون آخر .. وفي المقابل شابان متشابهان يبدو أنهما أخوان وقد نفسا شعرهما إلى الأعلى بشكل لافت! وفتى ذو أنف كبير يبدو خجولاً .. وأخيراً المجنون ميمون الذي يجلس أمامه مباشرة ..

كان جمال حساساً لذا وصلته مشاعر الترقب والفضول من المجموعة على الطاولة .. لكنه جرب أن يكون غير مبال لذلك بدأ بالأكل وهو ينظر إلى كوبه فقط من غير أن تتحرك مقلتاه عنه أبداً ..

قال الشاب ذو العينين الحادتين :

- سيدي الضابط .. رائحة عطرك زكية هل أستطيع أن أسألك من أين اشتريته؟

كان فم جمال مملوءاً بالفطائر لذا حرك إصبعه مشيراً إلى مكان بعيد ..

رد الشاب :

- العاصمة؟

هز جمال رأسه وهو يأكل فقال الآخر بحسد :

- كل ما هو جميل في العاصمة فقط ..! ونحن لنا المنتجات المحلية الرديئة .

أحس جمال بأن جيل الشباب أو على الأقل هذه المجموعة ناقمون على وضع معيشتهم لذلك رأى أنه الوقت المناسب للدخول في بعض الموضوعات بشكل غير مباشر .. فسأل سؤالاً عاماً :

- إلى أي مرحلة أكملتكم تعليمكم؟

ضحك الشباب فيما أجاب الفتى الأسود :

- قبل تسع سنوات أنهينا الابتدائية .. ولا يوجد مكان يقبلنا لنعمل به بهذه الشهادة، هذا الفتى تعطيه والدته مصر وفاقاً شهرياً مقابل توزيع الحليب ..

نظر جمال إلى سليم الذي حوّل عينيه عنه إلى مكان آخر بذعر ..

وأكمل الفتى :

والباقون انخرطوا في أعمال حرة كالتوصيل ومساعدة الناس مقابل أجر زهيد .. صراحة كنت أرى بعض الصبية في الماضي يساعدون آباءهم وهم في مرحلة الدراسة .. وأشفق عليهم ولكن هم الآن أصحاب عمل وتجارة بينما أنا لا أتقن أي حرفة ..

أنصت جمال بقليل من التعاطف ثم قال :

- ماذا كانوا يعملون ..؟

- كل منهم يساعد أباه في حرفته، فمن كان والده مزارعاً يعمل معه في الحقل ليكتسب الخبرة ومن كان حداداً يساعده في التوصيل و ..

قاطعه جمال مخفياً حماسه :

- بالمناسبة لقد سمعت سابقاً أن حداداً قُتل في هذه القرية ..؟

رفع سليم والمجنون رأسيهما بترقب عند هذه المداخلة فحرك الفتى
الأسود فمه بتعجب ثم قال :

- نعم لقد كنا نحتفل بتخرجنا من الابتدائية آنذاك وحدثت الحادثة بعدها
بيوم ..

قال جمال رافعاً حاجبيه ببراءة مصطنعة :

- إذاً فلا بد أن ابنه قد عمل مكانه بما أنه اكتسب الخبرة ..

صمت الجميع وتبادلوا النظرات باستغراب .. قال الفتى ذو العينين
الحادتين :



- لا .. مستحيل ..!

- ولماذا مستحيل؟

- إن حمد طفل أخرج .. دائماً ما يعذب بأدوات والده محاولاً المساعدة
ويتهني به الأمر بحروق وخدوش .. إنه فاشل جداً .

تثبت جمال من عمل جهاز التسجيل في جيبه ثم سأل مرة أخرى :

- ولكن كيف استطاع العيش بعد والده؟

- لا أعلم فقد اختفى وأظنه ذهب يعمل في مكان آخر مع أي أشك في
مقدرته على ذلك .

سكت جمال ثم قال : صِف لي شكله من فضلك ..

تردد الشاب برهة ثم قال :

- في الواقع كان كثير الغياب، لا يحضر إلا عدة أيام خلال الفصل الدراسي
ووالده يأخذ له الواجبات .. لذلك لا أستطيع أن أصفه لك ولكن أباه
كان ضخماً قوي البنية غليظ الملامح ..

أشار الفتى صاحب الأنف الكبير الذي يجلس في الجهة المقابلة بحركة
من يده وقال :

- لقد كان نحيلاً، عيناه ذابلتان .. صحته ضعيفة ودائماً ينهار في الفصل ..
حفزه جمال بحركة من رأسه :

- وبعد؟

- أستميحك العذر يا سيدي .. ليس باستطاعتي تذكر شيء آخر غير الذي
قلت لك ..

وقف جمال وشكرهم منصرفاً، يبدو أنهم ارتاحوا له لأن عمره قريب من
عمرهم والحديث معه بصفة غير رسمية أكثر طمأنينة .

لكنه أحس بشعور غريب .. فالتفت خلفه قبل أن يخرج من الباب ..
كان ميمون المجنون صامتاً على غير العادة وينظر في الفراغ!

* * * *





الفصل السابع عشر

أغلق ساري ستائر غرفته ففهم الخادم وخرج من الغرفة، كانت غرفة نومه ذات طراز حديث خالية من الزخارف المنبججة والنقوش الملتوية .. وكان اللون البني ودرجاته هو الغالب عليها، جلس على سريره مفكراً .. فإن كانت الأمور التي يرسمها في عقله صحيحة .. فلماذا القلق؟

ارتدى منامة من قميص طويل وبنطال باللون الأزرق الفاتح ثم نظر إلى ساعة يده فوجدها تشير إلى الواحدة صباحاً لذلك خلعها وأسندها على منضدة قريبة من رأسه واستلقى متغطياً بلحاف ناعم سميك .. ولكنه لم يسدل جفنيه ..

هناك شخص ما يتدخل في خطته!

سواء عن قصد أو لا .. إنه جمال الضابط المستجد ..

كيف يمكن إبعاده مؤقتاً؟ فكر في عدة طرق واختار واحدة رآها الأنسب مع أنها ستكون قاسية بعض الشيء، وعندما ارتاح لتلك الفكرة أغمض عينيه لينام ولكن .. علت الأصوات من المنزل المجاور مرة أخرى .. صوت خصام بين زوجين كأنها يتشاجران بمحاذاة أذنيه، تضايق كثيراً فانقلب على الجهة الأخرى .. تحقق من إغلاق الباب، النافذة، سد أذنيه

بالوسادة، حاول تجاهل الموضوع، لكن الضوضاء خارج حدود السيطرة ..
تناهى إلى سمعه بعض حديثهما :

- أنت لا تملك ذرة من إحساس .. ابنتي الوحيدة أريد أن أفرح في يوم
زفافها .

- وأنا والدها أريد ذلك .. لكن ما باليد حيلة .

- ألا تملك الشجاعة وتعلن عن ميعاد الزفاف أمام الناس؟

- ليس الأمر وكأني لا أريد، لكن ..

- بلى .. أنت تخاف من حدوث أي مكروه لها ولكنك تحقر من شأنها وهذا
يؤذيها أكثر مما تخافه عليها .

- لماذا لا تتحدثين بالمنطق ..؟ الناس ذوو الإعاقة مثلها قد لقوا حتفهم في
هذه القرية .

- لا تتكلم عن ابنتي وكأنها آفة بشرية .. أنا لا أسمح لك .

- هي عرجاء .. لا تنكري ذلك .

- وماذا في الأمر؟ ألا يحق لها أن تحيا حياة كريمة كقريناتها .. خطيبها راضٍ
بكل ما فيها .

- لكن قد تُقتل!

- لن تقتل .. سأحرسها .
- هه .. وكيف ستحرسينها بالله عليك، ستقتلين معها كما حدث للحداد .
- لن يحدث ذلك .. ولن أرضى لأي كان أن يقلل من شأن إكليل .

قال ساري بصوت بائس :

- إكليل .. هذا هو اسمها، عرجاء، سيُقام لها عرس قريباً .. إن الأمور تتعقد أكثر وأكثر، تبّاً .. هناك مهمة جديدة لم تخطر على بالي!

نزل من الدرج بخطا متثاقلة فركض الخادم لمساعدته مستغرباً من خروجه بعدما أعلن نيته في الخلود إلى النوم .. ناوله معطفه فارتداه على عجلة وخرج من المنزل .

أحس بالصوت يجيء من ناحية المنزل الأيسر المجاور .. كان منزلاً فخماً من المنازل الثلاثة التي يقطن ساري في المنزل الأوسط منها ..

رن الضابط الجرس طويلاً متعمداً إزعاج صاحب المنزل، وبعد دقائق فتح الباب رجل بدين ذو شعر أسود خفيف مسرح على أحد جانبي رأسه وخدين كبيرين نما عليهما عارض أشيب .. قال بنفاد صبر بعد أن أنهك جدال زوجته قواه :

- أهذا وقت للزيارة؟

كان الليل مظلماً وإضاءة الطريق خفيفة فضيق عينيه وأدنى رأسه من الشخص الذي يلتحف السواد أمامه ..

- من أنت؟

- أنا شخص بريء يريد النوم ..!

- ماذا؟!؟

قالها باستهجان ثم أكمل :

- وهل تريد أن تبني في منزلي؟ آسف هذا ليس مأوى للمتشردين .

- لا .. أنا فقط أريد أن أبيت في منزلي ..

وأشار بإصبعه النحيل إلى المنزل المجاور .. تبع رأس الدهان حسان إصبع ساري وتذكر أنه سمع عن إقامة أحد الضباط الثلاثة في نفس الحي الشرقي الذي يقيم به .

عاد ليتحقق منه .. فبين أنه هو، قال وما زال متشككاً في سبب مجيئه :

- وما الذي يريده الضابط مني في منتصف الليل؟

- قلت لك أريد أن أنام .. وقد منعني شجارك مع زوجتك من إغماض عيني ..

أُخرج السيد حسان فلعق شفتيه بوجه محمر عندما علم بأن صوتهما

وصل إلى الجيران .. وخشي أن يكون قد سمع الموضوع الذي دار بينهما.. فكان ما يخشاه صحيحاً ..

- هناك أمر آخر بخصوص ابنتكم العرجاء .. أسمح لي بطلب خدمة منكم؟

جفل الدهان ولكنه استمع لطلب ساري كاملاً .. وبعد أن انتهى من كلامه رد الدهان بصوت جاد يشوبه القليل من الوجل :

- آسف سيدي، لا أستطيع الموافقة على هذا الأمر إنه صعب جداً .

أدار الضابط ظهره مبتعداً ثم قال مهدداً بنبرة مخيفة :

- هناك أمور لا ينبغي التهاون بها .. لن أسمح بحدوثها أبداً مهما حاولت منعي، والشيء الأهم الآن لن أتجاوز عنكما إذا ما أفسدتما نومي مرة أخرى!

اختفى في ظلام الليل عائداً إلى مسكنه بينما ظل الدهان واقفاً وقلبه ينبض بشدة .. كان يكره ساري كما يكرهه كل سكان القرية ولكن هذا الضابط الشاب أتاه مهدداً في منتصف الليل ..

غمغم السيد حسان بضغينة واضحة ثم دخل منزله مغلقاً بابه بكل ما أوتي من قوة .

* * * *



الفصل الثامن عشر

في الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة ظهراً .. مشى جمال بين الأزقة قاصداً عيادة الطبيب صابر وهو يفكر في نفسه في النتائج التي قد يحصل عليها من الاطلاع على السجل ويقلب في رأسه العديد من الاحتمالات المتعاكسة، لقد عزم على ألاّ تنتهي الثلاثون يوماً في هذه القرية العجيبة إلا وقد حل مسألة اختفاء السيد صفوان وابنه وإلا فسوف يقدم استقالته لكونه ضابطاً فاشلاً .

وبينما هو كذلك إذ باغته صوت الطبيب صارخاً :

- النجدة ضابط جمال .. إن العيادة تحترق!

تسمر جمال مصعوقاً وهو ينظر إلى الطبيب الذي أتى من الجهة المقابلة فحث خطاه للحاق به حتى يصل إلى الموقع بأسرع وقت .. عندما وصل رأى الناس متجمهرين وحراس العمدة يسكبون الدلاء الصغيرة التي لم تفلح بشيء .

وبسرعة انتشر الدخان في الفضاء كالثور الهائج وألسنة اللهب تأكل مبنى العيادة بنهم! كان الأطفال يصرخون بهلع والناس يهربون من كل حذب

وصوب ..

سأل جمال الطبيب صابراً :

- هل من أحد في الداخل؟

كان الطبيب يتحرك في مكانه بقلق فأجاب فوراً :

- نعم .. الطبيب جلال لم يستطع الخروج .

وثب جمال بين النيران ودفع بيده أحد الحراس الذي حاول منعه، كانت أعمدة السقف تهوي بقوة فسدد أنفه بيده وعثر على الطبيب جلال ساقطاً على الأرض في إحدى الزوايا فاقداً للوعي .. سحبه بيده الأخرى ومن حسن حظه أن الطبيب جلال كان خفيف الجسم مرناً .. وضعه على كتفه ثم خرج ثانية .

حاول إجراء بعض الإسعافات الأولية بمساعدة الطبيب ولكنه أيقن يائساً حقيقة كون الطبيب جلال محتاجاً إلى رعاية طبية عاجلة ..

نظر في عيني الطبيب صابر وصاح بحماس :

- ألا يوجد هنا معدات طبية غير التي في العيادة؟ بسرعة .

- يوجد ولكن ..

- ولكن ماذا؟ أسرع فالوضع لا يحتمل التأخير .

- إنها عند الطبيب الخاص بالعمدة .. لا يستخدمها إلا هو .

جاء هارون مهرولاً من طريق آخر خلف ظهر جمال وبدأ يسأل الناس بخوف ويساعد في إطفاء الحريق الضخم، أما ساري فقد أتى من الطريق المقابل كالقطة بدون أن يصدر ضجيجاً أو يكلم أحداً فانحنى على جسد الطبيب جلال ثم حمله بخفة وهمس في أذن الضابط جمال :

- سأتكفل بأمر سلامة الطبيب .. حقق في الموضوع .

كاد جمال يرد عليه فتذكر أوامر المشرف الصارمة وتعجب من جرأة ساري على خرق القوانين فنظر إلى العيون السوداء الكبيرة أمامه نظرة موافقة، انطلق بعدها ضابط النخبة بسرعة .. مع أنّ جمالاً يكره التعاون معه إلا أنه لم يعترض على هذه الأوامر، فللضرورة أحكام! .. ظلت عيناه معلقتين برجاء على جسد جلال الذي يتأرجح فوق كتف ساري حتى غابا عن ناظره .

ضغط على زر التسجيل وبدأ يحقق بعدما أطفأ الحراس وهارون الحريق. عاد الناس إلى أعمالهم وكثر اللغط والأقاويل، فقال جمال في نفسه ساخراً:

- كالعادة الكل شعر بحدوث شيء غامض قبل وقوعه .. والكل حلم ليلة الأمس بهذا .. إنهم يحاولون لفت الانتباه والحصول على الاهتمام بالخدس المكذوب! ..

كان هارون أيضاً يحقق مع الشهود .

أسرع جمال إلى السوق الشعبي وطلب كوباً من الشاي بالنعناع، أغمض عينيه وحاول أن يصم أذنيه عن سماع الفوضى في السوق ولكن لم يستطع.. سمع أحدهم يقول : لا بد أنه ميمون .. فهو مختل عدواني وقد قال إن العيادة تسكنها الشياطين و.. و..

فكر جمال في نفسه بعد أن هدأ قليلاً :

- ما من شك في أن الحريق مُتعمد ..! أعتقد أن الفاعل هو شخص علم بالسبب الذي من أجله طلبت السجلات من الطبيب .. لم يكن الطبيب ليفشي سرّاً كهذا، فملفات العمدة وباقي الملفات السرية كلها فيه، ولم يكن ليفرط في سمعته وينهي مستقبل مهنته ..

والغريب أنني لم أخبر أحداً بذلك أيضاً .. إذاً لا بد أن أذن المجرم حادة جداً ليسترق السمع أثناء لقائي بالطبيب هنا.

نظر جمال إلى وجوه الناس الجالسين معه في استراحة السوق .. الجميع يثرثر .. يخمن .. يتوقع .. لكنهم مجتمعون على شيء واحد :

أن الحريق من فعل فاعل ..!

استفاد جمال من جلسته السابقة مع مجموعة الشباب الذين برفقة سليم.. فذهب إليهم بصورة ودية .. كان مكانهم في السوق هو نفس الذي كان

بالأمس .. لذا لم يجد صعوبة في العثور عليهم .

- أهلاً شباب ..

- آه أهلاً بالضابط جمال ..

- لا يا رجل .. لا تستخدم هذه الرسميات .. أنا جمال فقط ..

ابتسم الشاب الأسود وكان اسمه ثامراً فقال متحمساً :

- جمال من هو الفاعل؟

غمغم الضابط باستياء :

- لا أعرف .

- كيف لا تعرف! أنت ضابط؟

- صحيح ولكنني لا أعلم الغيب .. لقد مرت ساعتان فقط لا يمكنني بهذه

السرعة أن أجزم .

- إذاً في ذهنك عدة أفكار .. شاركني بها فربما أكون ذا فائدة صغيرة في هذا

الشيء .

انتبهز جمال فرصته في استغلال حماس ثامر :

- أتعرف ميمونا؟

رفع الفتى كتفيه .. وأردف :

- المجنون! .. ومن لا يعرفه؟

- حسناً .. أريده على الفور، هلا بحثت لي عنه؟
 - أتشك به؟
 - لا .. ولكنها إجراءات روتينية .
 - حسناً سأحضره ولكن عدني .
 - أعدك .. بماذا؟
 - إن انتهت مهمتكم هذا الشهر أن تذكر اسمي في التقرير ممن عاون الضباط ..
 - أهذه الدرجة .. يهكم هذا؟
 - أجل .. لطالما ارتبط اسمي بأعمال لا جدوى منها .. أريد هذه المرة أن أكون أفضل .
 - حسناً أعدك .
- انطلق الفتى بساقيه الطويلتين يسابق الريح، كانت سرعته مذهلة فقد خرج من السوق باحثاً في كل زقاق من أزقة القرية .. الأسواق .. المساجد .. المدارس .. كما سأل المارة .
- وعندما لم يعثر على أي أثر لميمون، خطرت في باله فكرة ظنها مخاطرة لكنه وعد الضابط جمال أن يأتي بالمجنون، لذلك لا يمكن أن يكسر وعده ويخيب ظن الضابط به .
- انطلق إلى التل حيث مكان جلوس ساري دائماً ..

لم يخطئ حدسه فقد شاهد ساري وقد عاد من مهمته مسترخياً تحت الشجرة وقبعته السوداء تغطي وجهه .. اقترب حتى صار واقفاً بجانب رأس الضابط الطويل .. توتر قليلاً ثم قال بصوت خافت :

- أتستطيع مساعدتي سيدي الضابط ..؟

لم يجبه .

أعاد عليه السؤال بنبرة عالية فأزاح الضابط عن وجهه القبعة بتملل وقال ناعساً :

- من أنت؟

- أنا ثامر .. أبحث عن ميمون، هل تستطيع أن تخبرني أين هو؟

عدل ساري من جلسته وقال بعناد :

- وهل تظني أباه حتى أكثرث بشأنه؟!!

صمت الفتى محبطاً فتابع ضابط النخبة باستخفاف :

- أيهما أرسلك؟

أطبق الفتى شفثيه مختاراً في الإجابة ثم قال :

- صديقك .

- لا تعبت معي .. ليس لدي أصدقاء ولا أهتم بذلك .

استطاع الفتى الذكي ملاحظة وميض من الشر يخرج من عيني ساري

المظلّمتين .. ففضل الإجابة على المِراوغة :

- الضابط جمال أمرني بإحضاره .

نهض ساري وقال بابتسامة داهية :

- إن الفريسة التي يبحث عنها .. في مكان لا يستطيع المستجدون الوصول إليه، إنه مكان عالٍ لا يصله الأتزام، ملعب خطر ليس للهواة .

ثم وضع إصبعاً من الكاكاو الأسود في فمه وانصرف بهدوء .

وقف ثامر مذهولاً .. كان يحس بهالة سوداء تخنقه بعدوانية، لم يستطع الانصراف، ظل يحدق بذاك الضابط الذي اتجه إلى الجانب الشرقي من القرية .. أحس الفتى بضرورة إخبار جمال بهذه الكلمات التي لم يفهم مغزاها لكنه شعر بأنها تُعد تهديداً يجب على جمال أن يعلم به .

* * * *



الفصل التاسع عشر

أمسك هارون أوراقه التي استجوب فيها المتجمهرين بإحكام ودخل إلى السوق الشعبي ليرتاح قليلاً .

سلم عليه جمع غفير من المتسوقين وسألوه عن المجرم .. فأجابهم بلباقة أنه سيبدل جهده في القبض عليه، استراح بعدها على أحد الكراسي وأحس باضطراب وضحك عالٍ ينبعث من الطاولة المقابلة له !..

رفع عينه .. فأبصر جمالاً مبتسماً يكلم مجموعة من الشباب ويتحاور معهم كأنه فرد منهم .. سُر هارون، فقد كان صديقه مرحاً واجتماعياً دائماً لكنه تغير عندما قدم إلى هذه القرية ويبدو أنه عاد إلى طبيعته .

مرت على هارون ذكرى لطيفة في بداية تعارفهما ودخولهما كلية الضباط قبل خمس سنوات، لقد كان جمال يقلد بعض الضباط في سخرية لإضحاك المستجدين .. يواسي المحزونين ويبث الحماس والهمة في نفوسهم، لم يره حزيناً إلا مرة واحدة عندما سأله :

- هارون هل يمكن أن أطلب إجازة اضطرارية؟

- لماذا؟
- اشتقت إلى عائلتي وقد سمعت أن والدتي مريضة .
- يحزنني سماع ذلك .
- أخاف أن ينالها مكروه في غيابي .
- لا أعتقد أن المشرف سيسمح لك بذلك، وإن سمح لك فربما ينقص من علامات المواظبة عندك .
- لقد وعدتها ألا أعود إلا إذا أنهيت مهمتي الأولى بعد التخرج بنجاح، لكن هذا أمر طويل المدى، بقي على التخرج الكثير من الوقت .. حتى نُعطى المهمة الأولى ثم أزورها .. إنه شعور مرير .
- اطلب أن يسمح لك بمكالمتها هاتفياً ..
- لقد كان جمال حساساً للغاية .. فعندما هاتف والدته عاد وعيناه تفيضان من الدمع، ويده على قلبه :
- الحمد لله .. إنها بخير .
- يسرني سماع ذلك .
- لقد قالت إنها ستغضب علي إن عدت قبل إتمام مهمتي الأولى بنجاح، سأنفذ رغبتها وأعود مرفوع الرأس إلى منزلنا حيث والداي وعائلتي .

لقد كنت سعيداً حقاً معه .. لكنه تغير منذ إعطائنا المهمة، يكتئب فجأة..
يستبشر فجأة! لقد تغير بعد لقائه بضابط النخبة ساري .. أنا وجمال في
مستوى واحد .. لكنني لا أعبأ بذلك المتكبر أبداً، بل أستغرب من تجاوز
شرطة العاصمة عن تصرفاته الهوجاء .. في لقائنا الأول كان نائماً على كراسي
النخبة التي تقع مباشرة أمام رئيس الشرطة ولم يستنكر عليه ذلك! إنه تصرف
غير طبيعي البتة ..!

في الاختبار الورقي كتب كلمتين مبهمتين (بطريقتي الخاصة) .. ومع
ذلك فقد أصبح الأول مثلي!

كسر كاميرات المراقبة وحوّلها إلى فتات في المسكن ولم يُعاقب!
شعره طويل جداً ينزل عن كتفه بشكل لا يلائم أي شرطي فضلاً عن
ضابط!

قطع على هارون تفكيره هبوب رياح قوية أتت مع فتى أسود جاء راکضاً
من المدخل، انحنى قرب رأس جمال حتى لا يسمعه بقية الشباب وتمتم ببضع
كلمات .. ثار بعدها جمال وضرب الطاولة بيده قائلاً:
- تَبّاً لذك الغراب .

وضع قبعته على رأسه وخرج مسرعاً، بينما جلس الفتى مضطرباً على
الطاولة، سأله زملاؤه عن الأمر فالتزم الصمت .

أحس هارون بالفضول وخرج أيضاً .. لم يجد أثراً لجمال لذلك اتجه إلى طريق آخر للبحث عنه .. سأل بعض المارة .. ولكنه لم يخرج بنتيجة مرضية .. فتذكر فجأة :

الغراب .. هذا نعت جمال لساري دائماً، إذاً فلا بد أنه توجه إليه، لكن اليوم أحد، ويمنع التحدث بيننا حتى يوم الجمعة، هل ينوي جمال مخالفة القوانين في مهمته الأولى؟!

قرر هارون سؤاله عندما يجتمعون وترك أمره حتى ذلك الحين ..

* * * *

وصل جمال إلى منزل ساري والشرر يتطاير من عينيه الخضراوين، رن الجرس فخرج الخادم بشعره الفضي المسرح .. قال جمال :

- هل مرت بقربكم قطة سوداء؟

فهم الخادم قصده .. فكتم ضحكته وقال باحترام :

- تفضل بالدخول سيدي .

دخل جمال ووقع أقدامه يزلزل أرجاء المنزل ورمى بجسده فوق إحدى الأرائك المريحة وهو يلوم نفسه التي سمحت له بالتعاون مع الضابط

اللئيم، ثم واسى ضميره بأنه لم يتعاون معه إلا لمصلحة سلامة الطبيب
جلال ..

انتظر طويلاً فلم يأت ساري لذا قال للخادم آمراً :

- اجلس بسرعة لو سمحت فأنا مشغول وليس لدي وقت لأبحث عن
قطط ضالة ..

أنار الخادم أحد المصابيح الذهبية الفخمة وجلس برشاقة على الأريكة
المقابلة ورفع نظارته المنزلة باهتمام ..

- ما اسمك؟

- اسمي؟!!

- ألا تسمع جيداً؟

- بلى، حسناً .. اسمي مراد .

- منذ متى وأنت في هذه القرية؟

- منذ زمن يا سيدي .

- كاذب .. لقد حققت في أمرك، لست من هنا أبداً .. تكلم بصدق لو
سمحت .

- أنا لا أكذب .. لقد أتيت منذ زمن، أنا هنا قبل مجيئك على الأقل .

- ومن أين أتيت؟

- لقد قدمت من قرية المعادن للعمل .
- أستطيع تمييز وجوه أهل القرية حتى وإن لم أستطع حفظ جميع أسمائهم ..
لماذا لم نرك فور وصولنا؟

حك الخادم خده بقفازه الأبيض النظيف ثم رفع نظارته قائلاً :

- لقد كنت وقتها أعمل في أحد البيوت .
- وما هو هذا البيت الذي عملت به قبل مجئنا؟

فوجئ الخادم بالسؤال فصمت .

انتظر جمال .. دقيقة .. دقيقتين .. خمس دقائق .. كان الخادم ينظر بتصميم
ممزوج باستصغار لمحدثه .

أحس جمال بذلك فغير السؤال :

- عندما أردت أن أقذف القط الأسود بالملف وثبت لتمنعني من ذلك ..
لماذا؟
- لأنني لا أَرْضَى أن يُمس سيدي بسوء، أنا كالدرع أحمي سيدي بروحي .

- أصدر جمال صوتاً مستهجنًا ورفع حاجبيه بتشكيك :
- ها أنت تكذب مرة أخرى .. في الحقيقة لم تقفز لمنعي من إلحاق الأذى بسيدك، بل تركت أصابعك آنذاك آثاراً حمراء على يدي ..
 - لقد كنت تهددني أو تحذرنى من شيء ..

ابتسم الخادم ولم يجب ..

- استفز صمته الضابط جمال فقال :
- أنا لا أخشى شيئاً لعلمك .. وما أريده سأصل إليه .
 - أتمنى ذلك ..
 - ماذا تقصد ..؟!
 - ضابط جمال أنت لا تفهم .. أرجوك ابقَ بعيداً عن سيدي .
 - وإن لم أفعل؟
 - لم يجب الخادم ..
 - اختلس جمال نظرة إلى ساعته فرآها الثالثة عصراً .. نهض من فوره وقال:
 - لي حديث آخر معك .. وستقول لي الحقيقة قبل أن أكتشفها بنفسني .

لحقه الخادم وما زال متلجماً بالصمت المطبق حتى إذا وصلا عند البوابة الخارجية .. عقد الخادم ذراعيه ونظر بحزم في عيني جمال :

- أنا لا أحذرك من إيذاء سيدي .. بل .. أحذرك من سيدي نفسه!

ظلت هذه الجملة تطل بوجه قبيح في ذهن جمال .. طوال اليوم .

عندما جنَّ الليل .. شغل جهاز التسجيل وكتب كل ما دار معه اليوم .. حتى وصل إلى جملة الخادم فكر جمال :

- لم يلتق الخادم وساري في هذه القرية، إنه يعرفه سابقاً .. لا شك في ذلك .. سأعرف الرابط بينهما ..

وسأعثر على السيد صفوان وابنه وميمون أيضاً .. وسأصل إلى معلومات عن حمد ابن الحداد .. لن يمنعي شيء .. لقد وعدت شخصاً غالياً على قلبي .. لن أسمح لنفسي برؤية أمي إلا ناجحاً ..

أحس جمال بمتعة غريبة .. تمرد .. مواجهة .. هناك شيء ما ينتظره،

أقسم جمال على أنه لن يستسلم ..





الفصل العشرون

(مذكرات السيد نكرة (أ))

صباح اليوم كئيب جداً .. أشعر بالحزن يخنقني ويشل أطرافي .. منذ
ولدت وهو يحاول التربص بي ..
كلما تأملت قرיתי بعد عودتي إليها أحسست بالألم .. لماذا لا أكون أحد
سكانها فعلاً ..

إنني هنا ولست هنا .. من أنا بالضبط؟!
لماذا أشعر بأنهم فوق جبل شاهق وأنا في حفرة عميقة ..
لقد قال لي أبي إنني حشرة على هيئة إنسان! هل تراه محققاً؟
لكنني .. أشعر بالبشر .. بقربهم .. بوجودهم المشوه .
أنا لا أنتمي لهم .. هكذا قال أبي .

عندما ربطني بالكروسي في المرة الأخيرة .. أحسست بالخنوع كالنعجة
التي تنتظر سكين الذبح ..

لكنتني لم أريد الموت .

نعم .. لقد أدركت أن لي حياة مثل حياتهم ..

ترتدي ثوباً قاتماً مغايراً لثيابهم ..

أريد الحياة .. لا أريد الموت ..

ذاك الحداد الذي يسمي نفسه والدي .. وضع السكينة بجانبه وأخبرني

بأنه سينهي مأساته التي بدأت منذ وجودي في حياته .. غداً ..

.. لكن غداً لناظره قريب .. أنا لا أرغب في ذلك .. أبداً ..

لم أجرب أن أعيش حتى أموت ..

لن يكون لي قيمة في هذه أو تلك .

لقد نهرتني العجوز الشمطاء في آخر الحارة عندما بدلتُ الطلب الذي

طلبتُه من والدي مع زبون آخر ..

أنا لم أخطئ .. لقد كنت أستوعب تماماً أن هذا أمر لا يغتفر ..

ومع ذلك أردت شيئاً واحداً .. أردت أن تخبر أبي ..

أن تنطق اسمي أمامه ..

لكن اللئيمة لم تفعل!

نعتني بالآفة البشرية ..

ليس غريباً .. يبدو أنها لا تعرف اسمي حتى ..

لقد انتظرت والدي ليعود من العمل حتى ينطق باسمي ..

لا بأس .. فليخاصمني، فليضربني، فليعذبني ..!

ولكن لينادني باسمي ولو لمرة واحدة ..

حمد .. إنه اسمي الحقيقي .. مكون من ثلاثة أحرف صغيرة سهلة النطق

اخترها والداي معاً ..

قبل أن تموت والدي أوصت أبي بالاهتمام بي .. لقد وعدها .. بيد أنه

أخلف وعده ..

لم يتحمل عبء تربيته، ولا تنبيهه لخطئي، لقد كان وحشاً كاسراً مع

عظام هزيلة مثلي ..

ولكنه ينقلب شخصاً آخر في معاملته للزبائن فيغدو بشوش الوجه

كريباً ..

ليتني كنت زبوناً عند والدي .. حتى يتسم لي ..!

مرة واحدة فقط .. قل لي .. يا حمد .. وأنت مبتسم ..

إن أمنيته ضئيلة بضالة حجمي وهواني ..

لكنها لم تتحقق .. أبداً!

لقد حاولت الانغماس في المجتمع سابقاً، دخلت المدرسة حتى أنهيت آخر فصل في المرحلة الابتدائية، كنت أكره الذهاب إليها .. فجميع زملائي بالفصل يسخرون مني ومن تلثمى في الإجابة ويفتعلون الشجارات ويفسدون الوسائل التعليمية الورقية ثم إذا دخل المعلم تحولوا إلى أبرياء مساكين وأصابهم تشير إلي بأني الفاعل ..

لم أستطع أن أشرح الأمور لوالدي لأنه لن يصدقني مهما حاولت لذلك كنت أتلقى عقاباً في المدرسة وعقاباً في المنزل ..

كنت أفقد الوعي دائماً بسبب سوء صحتي، تسود الدنيا في عيني وآخر ما أسمع هو قول المعلم: يا أولاد احملوا ذاك الذي يجلس في الخلف وأوصلوه إلى مدير المدرسة ليكلم ولي أمره ..

ذاك .. هل هو اسم جديد لي ..!

الأوغاد .. أراهم الآن وقد عدت إلى قريتي، منهم من يعمل ومنهم من يتسكع بلا فائدة وبلا أدنى إحساس بتأنيب الضمير، حتى إنهم لم يتعرفوا علي أبداً .

يتتابني شعور بمرارة في حلقي .. إنه مذاق القهر، عندما تغلق الأبواب

كلها في وجهي، ويشيح الشخص الوحيد الذي أنتسب إليه بوجهه عني ..
عندما أكون منبوذاً لسبب يعرفه الكل إلا أنا، أحس بذاك المذاق في فمي ..
أكره الذكرى التي ما زالت تطعن قلبي بخنجر مسموم بلا أدنى رحمة ..

ليت عصاماً الذي يُسمى والدي حيّ الآن لسألته عن السبب ..

لقد قال لي إن الأشخاص العديمي الفائدة لا يستحقون العيش ..
ثم وعدني أن يقتلني في غد ذاك اليوم المشؤوم .. وكالعادة لم يفِ بوعدته ..
أو بالأحرى ..

لم أجعله يفي بذلك ..

نعم .. فبتلك الحداث التي كان يفخر بصنعها .. سلبته أعز ما يملك ..

لقد سلبته حياته ..

* * * *

استفدت من موت الكائن المتوحش أكثر من حياته .. فقد كان يملك
مالاً كثيراً منعني من الاستمتاع به سابقاً ..
أحببت التعليم .. أحببت القوة .. أحببت الناس .. أحببت كل ممنوع في
قاموس عصام .

لذا عندما تعلمت في القرية المجاورة ثم أخذت شهادتي العليا من
العاصمة، أحسست بفخر شديد، بفرح لم يحتفل به أحد معي ..
وحدي وُلدت ..
وحدي تعذبت ..
وحدي تألمت .. ضُربت .. أهنت ..
وحدي دفنت ذاك الشخص بيدي ..
وحدي تخلصت من ألمي الجسدي ..
ثم بعد سنين ..
أدرس وأنجح وأتخرج ..
وحدي أيضاً ..

ليس وكأنه لم تكن هناك أجساد بجانبني .. ولكنني لم أحس بأرواحهم ..
عندما رحل والدي .. أدركت أن روحاً معذبة قد رحلت معه .. روحاً
رأت الجانب الأسود من الكرة الأرضية وقُدِّر لها الإقامة هناك ..

كلما ضحك الجميع ضحكت .. وبداخلي قلب محطم .. وروح ضائعة
لم تجد للعودة سبيلاً .. فجسور السعادة قد تهدمت في حنايا فؤادي .. وكلما
كبرت تأكلت وتصدأت .. أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

لقد رأيت الضعفاء مثلي سابقاً .. وذوي الإعاقات والعاجزين ..
كانوا يعيشون بين أهليهم .. أتراهم مثلي مكفينين بأهات الألم ..

ها أنا استطعت أن أقف على قدمي من جديد .. كجسد فقط .. أما الروح
فقد غابت شمسها منذ زمن ..

أستطيع رؤية أولئك الضعفاء في هذا المجتمع القاسي تحيطهم نظرات
الازدراء وتمتات التعاطف المؤقت ..

لن يقدم لهم أحد يد العون .. تماماً مثل ما كنتُ وحيداً منبوذاً ..

لذا .. رحمة بهم .. من بطش المجتمع ..

سأخلصهم من حياتهم المريرة .. حتى لا تستمر معاناتهم ..

(أولئك الضعفاء العديمو الفائدة لا يستحقون العيش .. لقد انتهت

صلاحياتهم)

لقد كانت هذه عبارة والدي التي ظننتها بفهمي القاصر خارجة من فمه ..
كلا .. هذه ليست عبارة .. إنها قانون ودستور يسير عليه مجتمع قرיתי البائسة ..

الكل بلا استثناء يظن هكذا ..

إذاً ليرحل جميع الضعفاء والعاجزين والمرضى من هذه القرية بسلام
وليتروا شظف العيش لتلك الأرواح الدنسة لتعيش فيها وتربض
كالوحوش الكاسرة ..

سأعمل على مساعدتهم في تخليصهم من هذه الحياة حتى لو لم يريدوا ..
فإن الخير الذي يُردد في الأناشيد ما هو إلا ترنيمة كاذبة تقال للصغار قبل
النوم ..

لا يوجد خير في هذه الدنيا أبداً ..

هكذا علمني أبي بتعامله ..

وهكذا سأعلمهم بالتطبيق ..

* * * *



الفصل الحادي والعشرون

رفع قبضته كأنه يريد لكم شخص ما ولكنه قرع الباب بتلك اليد العنيفة..

بدأ ميمون بالصراخ :

- سيدي .. النجدة .

لم تمضِ على ذلك دقيقة إلا وقد فتح هارون الباب بدعر :

- ما الأمر؟

دخل ميمون بيت الضابط بلا استئذان ووجد كرسيًا خشبيًا في إحدى

الزوايا فوقف فوقه!

تبعه هارون بتعجب :

- ماذا هناك .. سيد ميمون؟

انهمرت الدموع من عيني ميمون وبدأ ينشج بانكسار :

- آه .. لم يقل لي أحد يا سيد أبدأ، اسمعني .. لقد أتى ذاك الحارس ذو

الشارب الكث وأمرني بإعطائه مئتي درهم .. لأنني لا أعمل .

- عذراً .. لم أفهم قصدك؟
- قال لي : أنت تستهلك خدمات القرية وبأمر من العمدة يتوجب على كل شخص عاطل أن يدفع مبلغاً من النقود.
- حك هارون رأسه الأجدد بحيرة ثم قال :
- هلاً دللتنى على مكانه .
- عند منزلي .
- وأين منزلك ..؟
- عند عش الغراب .
- تنهد هارون بنفاد صبر :
- لا تكثر الألباز يا سيد ميمون فعقلي مشوش منذ حريق الأمس .. ولا أريد له أن يتيه أكثر .
- حرك ميمون عينيه إلى الأعلى وقال :
- مرتفع ..
- ثم لوح بيده بعشوائية .. واصفاً :
- صورة قديمة ..

أعاد هارون الوصف مفكراً ..
مرتفع .. صورة قديمة .. عش غراب .

ثم حله في عقله :

مرتفع ... طويل ..

صورة قديمة .. أبيض وأسود .. بوجه أبيض ورداء وشعر أسود ..

عش غراب .. منعزل سوداوي يوحى بالشؤم .

قال بصوت ضاحك :

- آها .. فهمت قصدك هيا بنا .

مشى الاثنان في طريق موصل إلى الجانب الشرقي بجانب منزل ساري!

رأى هارون شخصاً يحوم حول منزل ميمون الذي يجاوره فناداه ..

وعندما لمح الحارس قال بنفاد صبر وقد ارتسمت العديد من الخطوط

العرضية على جبينه :

- أنت ثانية .. ضابط العاصمة المتطفل .

- أنت تعرف أن ما تقوم به ظلم؟

- أنا لا أعرف إلا أوامر العمدة .

- لن يدفع لك أي عاطل بالقرية .. ما هذا السخف .. عد من حيث أتيت

أيها الحارس .

رجع الحارس القهقري وقال بعصبية مفرطة :

- سأخبر العمدة بأنك تعصي أوامره مرة أخرى .
 - لست ملزماً بها، وأخبر من شئت، لا يهمني ذلك .
- زفر الحارس بغضب ورحل .. فالتفت هارون إلى ميمون الذي يرمقه بامتنان ..
- سيد ميمون .. هل هذا القصر الكبير منزلك؟
 - نعم .
 - إنه بالقرب من منزل الضابط ساري الذي وصفته لي قبل قليل .. لماذا لم تخبره عن حارس العمدة؟
- ارتجف المجنون وحرك يديه بامتناع :
- كلا .. كلا .. لا يمكنني ذلك، سيفقأ عيني ويسلمها إلى الحارس بدلاً من مساعدتي .
 - أوه .. فظيع، ولماذا تظن ذلك؟
 - أنا لا أظن يا سيدي .. لقد هددني سابقاً إنه يكرهني ويطاردني في أحلامي .
- هدأ هارون من روع ميمون ثم أوصله إلى باب منزله بأمان وعاد إلى المنزل ليكمل بعض أوراقه .

* * * *



الفصل الثاني والعشرون

مشى الشاب ذو العينين الحادتين برفقة جمال بعد الانتهاء من صلاة الظهر حتى وصل إلى منزله، كان فادي قمحي البشرة وقد غصت قسماات وجهه بحبوب الشباب وهو أحد المجموعة التي تعرف عليها جمال قريباً، دخل جمال إلى بيت الشاب كان منزلاً متواضعاً للغاية .. جلس في غرفة الضيوف التي تنبعث منها رائحة الريحان النفاذة، كان أثاثها على الطراز الشعبي باللون الأحمر والأسود والأبيض وأرائكه منخفضة للغاية وقد علقت زينات دائرية الشكل من الصوف المغزول وصُفت بعض الأواني النحاسية وأباريق القهوة العربية فوق رف منخفض عند إحدى الزوايا .

- سأعرفك على جدتي .

- يسرني ذلك .

طأطأ الضابط رأسه وقال بصوت محتشم :

- أتأسف أيتها الجدة لإزعاجك بقدومي المفاجيء .

أحكمت العجوز غطاء وجهها وقالت :

- لا تحجل يا بني فأنت في منزلك الثاني .

تفحصته من أعلى رأسه حتى أخص قدميه كأنها تقوّم أثرية ..
فأنزل رأسه مرتبكاً، قالت العجوز بعد أن انتهت من تقويمه ووضع
الحكم النهائي :

- صغير أنت .. أعتقد أنك بعمر حفيدي في الثانية أو الثالثة والعشرين؟
- أجل، أنا كذلك .

- أرجو ألا تفهم كلامي كتقليل من شأنك .. يبدو عليك الفطنة والنباهة،
ما هي أخبار الحريق؟ هل قبضتم على المجرم؟

- أعتذر منك ولكننا ما زلنا نحقق في الأمر، بالمناسبة هل تسمحين لي
بطرح سؤال؟

وفي نيته أن يجعل سؤاله يلد عدة أسئلة أخرى وهو ما رحبت به العجوز
على الفور!

أحضر فادي الضيافة وجلس بجانب جدته، كانت كبيرة في السن بين
السبعين والثمانين، مما أعطى جمال جرعة قوية من الثقة فقال :

- حريق أمس كان كبيراً ومخيفاً .. هل حصل في هذه القرية من قبل أمر
كهذا؟

سعلت الجدة بقوة فسقاها حفيدها كوباً من الماء الفاتر .. ثم قالت :

- أنا أثق بذاكرتي، وفي هذه القرية لم يحصل مثل هذا قط .. لكن في قريتي
التي وُلدت فيها حدث حريق قبل ستين عاماً .. لقد كان شابُّ طائشٌ

يلعب بأعواد الكبريت فأشعل عدة قوارب خشبية في منتصف الليل
وعندما أفزعه منظر النار الشرسة هرب ونفى صلته بالموضوع، لكن
ضميره أنبه فعاد ليعترف، وساعدته عائلته في تعويض المتضررين .

- لم يتعمد ذلك؟

- أجل .

- وحريق الأمس .. ماذا تظنين؟

تنحنحت العجوز وشربت جرعة من الماء ثانية ثم قالت ببطء :

- إن كان غير متعمد فسيأتي ليعتذر اليوم، وإن قصد الحريق ..

صمتت فأكمل جمال :

- لن يأتي .

هزت العجوز رأسها وهي ترتب حجابها كيلا يسقط ثم قالت :

- النساء تحدثن عن هذا بالأمس .. عن شخص شوهد هارباً من
المستوصف قبل اندلاع الحريق بسبع دقائق وأجمعوا على أنه المجنون،
بينما تحدث بعض الشباب عن أمور مخزية .

قالت هذا وهي ترمق حفيدها فادي بنظرة توبيخ، فز فادي مدافعاً عن
نفسه :

- لم أقله أنا .. أقسم لك .. قلت لك إن سليماً هو من تحدث عن هذا فقط
بينما وبخه باقي الشباب .

- كلام مثل هذا عار عليكم أن يُسمع حتى .. لماذا لم تسكتوه؟
 - جدتي .. لا تظني بي سوءاً، أنا نقلت لك الإشاعة حتى آخذ رأيك .
صاحت العجوز وقالت منفعلة :
 - لا ينبغي لك أصلاً نقلها لي، إن سمعتها فدافع عن المتهم حتى لو كنت تكرهه، أنتم لا تملكون دليلاً حتى .
- كانت عينا جمال تنتقلان يمينة ويسرة بين العجوز وحفيدها .. أحس بالضياح فأقحم نفسه :
- ما هي الأمور؟ وماذا قال سليم؟ وعمّن يجب أن يدافع حفيدك؟
صمتت العجوز ولم تنبس ببنت شفة ..
 - ظل الحفيد ينظر إلى عيني جدته ليستأذنها .. إلا أنها أشاحت عنه بغضب رافضة الحديث .
 - أحس فادي بضرورة إخبار جمال عن ما قاله سليم فتوجس هامساً :
 - سيدي .. إن ما سوف أقوله لك ليس رأيي ولا أويدته ولكنني سأنقل لك فقط .
 - أوماً جمال برأسه ليحثه على الحديث .. فتشجع الفتى وصرح :
 - بالأمس قال لنا سليم إنه ذهب ليشتري سمكاً من أحد الصيادين في الجانب الشرقي للقريّة .. ولكنه جلس يسمر مع أحدهم حتى الساعة الواحدة ليلاً ثم .. ثم رأى ..

احمر وجه الشاب خجلاً :

- رأى امرأة تلتحف رداءً طويلاً تخرج مفاتيح من جيبها وتفتح به باب منزل زميلكم الضابط ذي الشعر الطويل ..

اهتزت قدم جمال بتوتر وحاول إخفاء انفعاله حتى لا يظهر على قسمات وجهه.. فتابع فادي :

- لقد عَنَّفَ الشاب سليماً وقالوا ربما تكون زوجته قد أتت لزيارته .. ولكنه قال لو كان متزوجاً لما احتاجت أن تأتي جلسة آخر الليل!

سكت بعدها فادي وكان هذا كل ما عنده لذا وقف جمال من فوره وابتسم مدعياً عدم الاكتراث ثم طمأن العجوز المتوترة بأنّ سليماً فتى سفيه لا يُعتد بقوله وأنه يعرف زميله منذ زمن وهو ذو سيرة نظيفة، بعدها شكر الشاب وأمره بنسيان هذه القصة وعدم ترويجهما .

خرج من المنزل متخبطاً .. كلما ابتعد عن أمر ساري ليحقق في باقي الأمور .. دارت دوامة الأحداث به وقذفته عند شاطئه .

أحس جمال بالذنب قليلاً عندما كذب عليها بأنه يعرف زميله منذ فترة فهو لم يعرفه إلا قبل قدومهم إلى القرية بمدة قصيرة، ولكن كلاماً مثل هذا لا يُغتفر أبداً .

قرر أن يعود إلى المنزل ليعيد ترتيب أوراقه خلال فترة العصر ثم يتحقق من قصة سليم بعد الساعة السادسة مساءً .





الفصل الثالث والعشرون

ظلت العجوز متوترة عندما خرج الضابط جمال ثم خرج حفيدها بعده إلى أصدقائه .

وقفت عند الباب لتسقي أحواض الزهور الصغيرة .. ثم رتبت أوراق إحدى الشتلات محاولة شغل نفسها عن التفكير فلمحت الضابط ساري يمشي وحده كالعادة ويقلب مظلة زرقاء كبيرة يبدو أنه اشتراها للتو .. أرادت العجوز أن تكلمه ..

فظلت تنتظره حتى يقترب وعندما أصبح بمحاذاة المنزل ..

دفعت أحد الأحواض ليسقط على الأرض قاصدة، فوقع عند قدميه ولم ينكسر .

توقف لبرهة ناظراً إلى العجوز التي قالت وهي تسعل بشدة :

- اعذرنى يا بني .. لقد خف بصري ولم أستطع رؤية الطرف الذي أمسك الحوض منه .

ظل ساري صامتاً ..!

حاولت العجوز أن تنحني في محاولة منها للتمثيل حتى يهب لمساعدتها

وتفتح معه الموضوع ..

إلا أنه لم يفعل ..

وقف جامداً كالعمود!

قالت بصراحة :

- بني .. أعتذر لكوني مزعجة لك بعض الشيء ولكن هلاً ساعدتني في جمع الشتلات وإعادتها إلى مكانها الصحيح؟

أدار رأسه فرأى الشاب الأسود ثامراً يأكل ثمرة خيار واقفاً وقد خرج من منزله فناده بحزم :

- أنت!

أشار الفتى إلى صدره متسائلاً .. هل هو المقصود؟

- أجل ..، اذهب إلى صاحبك وقل له إن جدته تحتاجه فوراً .

أذعن الفتى إلى الطلب وانطلق كالريح مستغرباً .

تنهدت العجوز بسأم فانحنت تجمع الشتلات بخفة أذهلت ساري!

وقالت :

- لا أحتاج مساعدتك .. أستطيع القيام بهذا العمل بنفسني .. أنت شاب ميئوس منك .

- نظر ساري إلى الأرض لدقيقة .. ثم قال :
- إذا .. ما هو الشيء الذي أردت قوله لي؟
- شهقت العجوز ووضعت يدها على فمها :
- كيف عرفت أنني أردت محادثتك؟
- لقد أسقطت الحوض عامدة .. إن أمراً كهذا لا يخفى علي أبداً .
- حسناً .. كشفتني إذاً لا داعي للتهرب منك، لقد دنت محدثك من عامها الثمانين ولكنني أريد مخاطبتك كابن، فهل تسمح لي بذلك؟
- ظل ساري يقلب المظلة بيده ويتأمل فيها بصمت ..
- فأكملت العجوز :
- بني .. لا ينبغي عليك مقاطعة الناس ومعاملتهم بخشونة، إن لهم قلوباً تبغض الإهمال .. وليسوا كلهم ذوي نوايا طيبة، فالبعض قد يفهم تجاهلك له كإعلان للعداوة ويفكر بالانتقام منك بأساليب خبيثة ولكنها خطيرة قد تؤذيك .
- سكون تام ..
- كان يستمع بوجه خالٍ من التعابير وعينين مظلمتين تحدقان في المظلة ..
- لاحظت المظلة التي يمسكها فقالت :
- أنا لا يهمني لو تجاهلتني .. لم تساعدني، كلها أمور لا تمثل لي أهمية كبرى،

ولكنني أعتبرك ابناً لي فأحبت تقديم النصح الذي لم تطلبه مني .. وأعتذر
ثانية على تطفلي .

لم يجب ساري .. فمشى بضع خطوات مبتعداً وتوقف عندما سمع
صوتها من خلفه :

- بني .. لقد قيل لي إنه من المتوقع هطول أمطار بمشيئة الله خلال هذا
الأسبوع .. لذا افتح المظلة بدلاً من التأمل بها واهتم بنفسك جيداً ..

انبعث دفاء كلماتها الصادقة ليلا مس قلب ساري .. أحس بطمأنينة
افتقدتها منذ زمن طويل .. فابتسم مرتاحاً وقال بصوت لم تسمعه
العجوز :

- شكراً لك .

ثم اختفى بين الزحام!





الفصل الرابع والعشرون

- ثم؟

رتب بائع الحليب سليم شعره الأحمر بيديه مضطرباً وغمغم :

- رأيت امرأة تدخل المنزل في الساعة الواحدة تماماً لقد بدا الأمر غير مألوف بالنسبة لي لذا أخبرت أصدقائي .

وضع جمال قدماً فوق الأخرى بعدما تيقن من تشغيل المسجل ..

كان السوق الشعبي بعد المغرب أقل ضجيجاً منه في النهار، وبدأ الناس يتلاشون .. حتى بقي الاثنان متقابلين على طاولة وحدهما وزبائن قلائل منتشرين في الأسواق .

- صفها مرة أخرى واذكر كل ما لاحظته عليها حتى وإن كان وصفاً تظن أنه لا أهمية له؟

- .. رأيتها من الخلف، كانت ترتدي لحافاً طويلاً غطى قدميها .. داكناً جداً، وقبعة على رأسها .. ولم أستطع رؤية شعرها لظلمة الليل ربما كان قصيراً أو تعمدت إدخاله في القبعة، لقد كان طولها متوسطاً ولم تصدر صوتاً عند إخراج المفاتيح .. كأنها معتادة على ذلك ..

- ومتى خرجت؟
- لم تخرج أبداً.. لقد دفعني الفضول حتى سمعت أذان الفجر فانصرفت عند الساعة الخامسة وخمس دقائق صباحاً.
- هل تتوقع أنها خرجت بعد ذلك؟
- ربما.. لا أستطيع الجزم..
- ولكنك جزمت بكونها امرأة!
- ارتبك سليم وأحس بألم في معدته.. ربما كان شعوراً نفسياً إلا أنه لم يستطع تفادي السؤال.
- أعاد جمال السؤال بإصرار.. فأجاب بائع الحليب متذبذباً:
- إن الرجال يصدرون عادة جلبة في المشي.. وحتى لو زار رجلٌ أحداً في منتصف الليل لم يكن ليتخفى هكذا.
- كلها توقعات منك فقط؟
- نعم.. ولكن بنسبة تسع وتسعين بالمئة، لم يكن لأي رجل أن يمشي مختلساً هكذا.
- لم تنتظر أن تتيقن مئة بالمئة بل ذهبت وأخبرت أصدقاءك؟
- مهلاً مهلاً.. أنا تحدثت معهم فقط بما رأيته ولم أخبر غيرهم، ولكنه ارتقى فوق الطاولة متبجحاً وصاح بأعلى صوته ليعلن للناس.

- من؟
- المجنون ميمون لقد أخبر كل سكان القرية!
- ميمون؟ أخبرهم بماذا؟
- قال إن جواسيس يزورون الضابط ساري بانتظام في الليل وحلف بأنهم عدة أشخاص!
- غريب! لكنه بالأمس كان مختفياً.
- لقد جاء في عصر اليوم إلى السوق الشعبي ونشر الخبر بعدما استرق السمع خلال حديثي مع أصحابي.
- تذكر جمال أنه عكف على ترتيب الأوراق وإعداد التقارير في فترة راحته في العصر .. لذلك لم يلتق بميمون .
- شكر سليماً ونهض من فوره يجوب القرية ولكن لا أثر للمجنون ..
- لقد اختفى مرة بالأمس بعد اندلاع الحريق واليوم أيضاً .. إن وراءه لغزاً محيراً .
- مر جمال عند زقاق مظلم مفكراً ثم توقف ليتأمل محل السيد صفوان المغلق ..
- أين ذهب!؟
- الشيء الوحيد الذي تيقن منه جمال هو أنه لم يُدفن في هذه القرية على الأقل ..

قرر أن يذهب إلى الشجرة التي بجانب المقابر .. شجرة الموت كما يسميها
سكان القرية، كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً والعادة الجميلة التي
تضاف إلى قائمة هذه القرية المنفرة .. هي نوم السكان قبل التاسعة، تحقق
جمال من كتابة هذه المعلومة في تقريره الطويل ثم أحس بمصايح المنازل
تنطفئ الواحد تلو الآخر .

مشى بخطوات خفية تعلمها في تدريبات سابقة حيث لا يُسمع صوت
لأقدامك مهما كان الحذاء الذي تتعله .. لاحظ سابقاً أن ساري يتقن هذه
التقنية ويستخدمها دائماً لذا أحس بأن نعته بالقط كان أنسب وصف له .

أغمض جمال عينيه ثم فتحها وحاول كتم أنفاسه قدر المستطاع ..

هناك .. في أعلى التل عند الشجرة .. وسط الظلام الدامس ..

خيال شخص ما ..!

اقرب أكثر ..

وأكثر ..

ما زال لا يستطيع تمييز الشخص في الظلام ..

خفض رأسه بحذر ..

وفجأة ..!

أحس بشيء قاسٍ يضرب أحد جانبي عنقه فبرق وميض خاطف في
عينيه!

حاول الالتفات فلم يستطع، فقد تلاشت صورة الشجرة .. فالتل ..

فالقرية كاملة تدريجياً .. وذابت تماماً في سواد الليل .

ليسقط جمال أرضاً!

دنا الظل الذي عند الشجرة وتحسس نبض جمال ثم قال للمعتدي الذي يقف خلف الجسد الملقى على الأرض :

- أوه .. ألا تظن أنك تماديت قليلاً؟ هذه قسوة بالغة يا ساري ..؟!!

- لا .. لقد كنت عطوفاً .. لقد فقد وعيه فقط .

ارتاع الخادم من عطف ساري الذي جعل رجلاً يخر بلا حراك على الأرض ثم قال :

- سيدي .. ماذا أفعل به؟

تنهد ساري وقال بسخط :

- إنه مزعج حقاً .. حسناً بما أن هذا تنبيه فقط .. لذا أسنده إلى تلك الشجرة وواصل عمله بعدها .

- وأنت؟

- سأعود إلى المنزل .. الحق بي فيما بعد .

- أمرك سيدي .

انصرف الاثنان في طرق متفرقة .. وبقي الضابط المستجد فاقداً للوعي في أعلى التل وحيداً ..

* * * *



الفصل الخامس والعشرون

كان العمدة معتاداً على استقبال بعض السكان كل يوم ثلاثاء .. ولكن الحراس غالباً ما يمنعون الناس عنه بحجة أن العمدة مشغول في أمور القرية! دخل أحد الحراس عليه وقال بطريقة فيها إجلال :

- سيدي العمدة .. هناك أحد ضباط فرقة العاصمة الاستكشافية يريد محادثتك .

ارتدى العمدة معطفاً أزرق مزيناً بنقوش فضية لامعة كمهرج سيرك ثم أوماً للحارس بالسماح له ..

تمنى العمدة في سره أن يكون ذاك المهذب صاحب الحديث العذب .. وقد تحققت أمنيته عندما دخل هارون مبتسماً وسلم عليه ..!

ابتسم العمدة بنفاق وتبادلا التحايا .. ثم قال متحذلقاً :

- تفضل أيها الضابط ..

جلس هارون بأدب على أحد المقاعد البيضاء المريحة وتنهد فقال :

- سيدي العمدة .. إن حراسك قد عاثوا في القرية فساداً، وكلما حاججتهم نسبوا أعمالهم إلى أوامر صادرة منك، على سبيل المثال بالأمس .. كانوا

يريدون أخذ فائدة غير مشروعة من الدهان وغيره من البائعين .. واليوم أخبرني أحد السكان أن الحراس يريدون أخذ مبلغ مالي من العاطلين عن العمل .. وأنا هنا أردت أن أكون منصفاً لذلك أتيت إليك، فهل سيادتكم أمر بذلك فعلاً؟ أم أنها تصرفات فردية من الحرس؟

تنهد العمدة بصوته المخنوق وقال وقد تجعدت جبهته الواسعة :

- هذا أمر لا أقبل به أبداً .. وقد بنيت قرينتنا على أسس من العدل والمساواة.. لحظة من فضلك!

استدار العمدة بكرسيه الفخم المذهب وقد ربض فوقه كبقرة متغطرة.. ثم أمر الحاجب بمناداة الحراس، مرت بضع دقائق قبل أن يجتمع عشرون حارساً .. حملق العمدة فيهم وقال لهارون :

- أيهم الذي رأيته يأخذ من الناس؟

ارتجف الحراس .. وتصيب العرق من جباههم، وكل منهم يدعو في سره ألا يشير إليه هارون .

وضع هارون يده على فمه وقال بتحفظ :

- أيها العمدة .. وهل تظنني سأشير إلى شخص بعينه؟! صحيح أنني رأيت أحدهم وهو من الواقفين أمامي الآن .. ولكن أخبرني بعض أهل القرية

أن غيره يأخذون، لذلك لن أشير إليه، بل أريدك فقط أن تمنعهم الآن من معاودة هذا الفعل .

وافق العمدة على مفضض وحذرهم مهدداً بصوت حازم مخيف من سرقة جيوب الناس وقام الحراس بهز رؤوسهم بوجل كالحمام إشارة إلى استيعابهم الأوامر .

تذكر هارون أمراً آخر فقال مستعجلاً :

- سيدي العمدة .. ماذا فعلتم بشأن حريق العيادة؟

أخرج العمدة زفرة أسى ثم مسح جبينه المتعرق وقال بحزم :

- لم يعثر رجالي على الجاني، وكذلك أنتم يبدو أنكم لم تعرفوه .. ولكن لن يفلت من قبضتي ذاك المجرم الفاسد، فأنا سأقبض عليه وأزج به في السجن لتأكله الفئران .. في الوقت الحالي هناك مبنى قديم في الجهة الشمالية .. تم نقل المعدات إليه والتي ما زالت صالحة للاستخدام وتوفير البعض الآخر وسيستخدمه الطبيب صابر ومعاونوه مؤقتاً حتى يتم إعادة ترميم المبنى المحترق .

أطرق هارون رأسه متعاطفاً :

- نعم .. يجب أن يعاقب الفاعل مهما طال الزمن، لقد كاد يودي بحياة شخص بريء، بالمناسبة .. أين الطبيب جلال أريد أن أطمئن على صحته وأسأله عن بعض الأمور؟

- لا أعتقد أنه سيحبك .. فهو عنيد وغير متعاون، لقد خرج الضابط جمال غاضباً من عنده بالأمس وأخبره أنه سيزوره اليوم .. لكنه لم يأتِ .

رفع هارون حاجبيه وأكمل بتفاؤل :

- حسناً لا بأس سأزوره أنا وأجرب .

أمر العمدة أحد الحراس أن يقود هارون إلى غرفة الطبيب جلال .. فشكر هارون العمدة على أمانته وسر سروراً بالغاً لتعاونه معه ووعدته بكتابة أمر نزاهته في تقريره .

ولكن!

فور خروج هارون من القاعة بدّل العمدة بقناع البشاشة المزيفة قناعاً مشوهاً مقيتاً .. ثم صرخ بالحراس وتطأير لعابه :

- أيها الرعاع .. أيكم الذي قابل الضابط هارون؟

رفع أحدهم يده برجفة إذ إن الكذب على العمدة لا طائل منه فقال الحارس ذو الشارب الكث :

- أعتذر سيدي العمدة .. فأنا لم أتعمد إخباره، المجنون ميمون هو من أخبره .

اقترب العمدة منه ورفع يده إلى الأعلى ثم صفع الحارس صفقة مهينة ألقته أرضاً ..

أُصيب باقي الحراس بالذعر، وأغمض بعضهم عينيه كي لا يرى ..

ثم أدار العمدة إليهم وجهه وصرخ بعنف :

- يا صغار العقول .. ألم أجمع معكم قبل قدوم فرقة العاصمة وأحذركم؟
لقد أمرتكم بإعفاء السكان من الضرائب الشهر الجاري فقط، ثم
تواصلون عملكم بعد رحيل الضباط، إلا أن حارساً خاوي الرأس
استعرض قواه أمام أحدهم .

أعاد العمدة بعدها بصره إلى الحارس الذي كان يتحسس خده بألم وقهر :

- من حسن حظك أنه كان هارون .. لو كان ذا الشعر الطويل
لأخرج عينيك من محجريها أمام المارة ثم أحضرهما إلي .. أنت مثير
للمشكلات .

ركض أحد الحراس ليعدل من وضع معطف العمدة الذي تحرك قليلاً
من فرط الانفعال ..

ثم طردهم من قاعة الاستقبال وأغلق الحاجب الباب دونهم .

سادت فترة طويلة من الصمت والحراس يقفون بالخارج .. قطع
هدوءهم موجة عارمة من الضحك الصاخب!

التفت الجميع فوجدوا أحد الحراس يقف بجانب الحارس المضروب
مشيراً إليه بشماتة :

- أحق .. لكنك كنت ذكياً حينما استعرضت أمام الضابط هارون .. لو
كان ذاك المندفع جمال أو الآخر الذي لا يعرف اسمه ..

- أكمل ضحكك بسخرية وقال :
- احترس .. كي لا تقتلع عينك .
- ضحك باقي الحراس بينما عض الحارس بحنق على شفته وتحسس خده بألم ثم قال بصوت خافت سمعه القريبون منه فقط :
- لن أدع الأمر يمر هكذا .. سأنتقم منهم .
- صمت الحارس الساخر ثم رد عليه باهتمام :
- من من ؟
 - الضباط الثلاثة .. وعلى رأسهم هارون ..
 - أشك في ذلك ! فهو ذو قدرة بدنية فائقة ودائماً ما يكون محاطاً بالناس، وإن تجمع حولك شهودٌ فهي نهايتك إن وصل الأمر إلى العمدة .
- مسد الحارس شاربه الكث وقال :
- سأسترد كرامتي ولو من أحدهم .. سأهين مجموعة العاصمة المقدسة لدى العمدة .
- انحنى عليه الحارس الساخر بخبث وسوء نية :
- جرب الآخرين .. جمال مثلاً شخص بسيط مندفع متهور .. يمكن استفزازه بسهولة، لتجعله يضربك ثم دافع عن نفسك بضراوة .. حتى لو رُفع الأمر إلى العمدة فسيكون مجرد دفاع عن النفس .

صمت الحارس المضروب مفكراً .. ثم قال :

- لكنه أيضاً محاط بمجموعة الشباب التي فيها سليم وثمر وفادي حفيد العجوز .. إنَّ سليماً ذو لسان ثرثار لا يمكن الإفلات منه .

- إذاً؟

- النحيل الصامت .. ما اسمه؟

- لا أعرف .. فهو رفض التعريف بنفسه .. ولكنك تميز شكله بشعره الطويل وعينه الكبيرتين كعيني البوم .

- لقد مر بجانبني اليوم ويده مظلة ونظر إلي بازدراء .. ذاك المتكبر العديم الفائدة .

مط الحارس الساخر شفثيه سعيداً وفرك يديه بدناءة ثم قال :

- اليوم .. الثالثة عصراً تقريباً، سيجلس تحت شجرة الموت بجانب المقبرة، ها قد أخبرتك بمكانه .. ماذا ستفعل؟

تردد الحارس المضروب .. ثم استجمع قواه .. نهض من مكانه فمشى قليلاً ثم قال :

- ليس اليوم .. جدولي مزدحم، في وقت ما سأنتقم من أحد الثلاثة، هل ستساعدني؟

- أوه .. طبعاً لا، ألا تستطيع الانتقام لكرامتك بمفردك؟ إذاً أيها الحارس الجبان تستحق ما جرى لك .

ذهب الحارس الساخر وهو يضحك بشماتة بينما بقيت نيران الغضب
تلتهب في صدر الحارس المضروب الذي أقسم على الانتقام لكرامته من
ضباط العاصمة ..

في القريب العاجل !..

* * * *



الفصل السادس والعشرون

دخل هارون غرفة استراحة الطبيب جلال في قصر العمدة .. كانت صغيرة جداً، فيها بخاخات للربو .. وعلب مياه فارغة .. ووجبة مغلقة لم يمسهأ أحد، كانت الجدران رمادية باهتة تبعث على الملل والاختناق أكثر .. لم يكن من شيء بارز سوى سرير ممدد فوقه لحاف أخضر من النوع الرخيص، تساءل هارون في نفسه لماذا ينام جلال إلى هذه الساعة .. كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، وقد قَرَّبَ أذان الظهر .

نادى هارون الطبيب .. فلم يجب .

قال بصوت يحاول فيه حثه على النهوض :

- هيا أيها الطبيب .. قم وتكلم معي، لا تخف هناك أسئلة بسيطة ستخدمني إن أجبت عليها .

لم يجب جلال ..

- لا بأس، يبدو أنك متعب ولكن فكر ثانية .. هناك شخص ما .. أحرق العيادة .. ربما تكون قد شاهدت ما يدل عليه .

صمت تام يخيم على الغرفة الخرساء ..

انخفض هارون بجسده حتى وصل إلى طرف حذائه الأسود الطويل ..
عدّل بعض الربطات .. واعتدل واقفاً، انتظر دقيقة ..

دقيقتين ..!

خمس دقائق!

يبدو أن الطبيب عنيد كما قال عنه العمدة .

حاول هارون مجدداً :

- هل من أحد يجبرك على السكوت؟ تستطيع إبلاغي عنه وسأخذ معه
الإجراءات اللازمة؟

لعق هارون شفتيه مفكراً ثم أكمل :

- هل يعقل أن المجرم يبتزك في أمر يعرفه عنك وحده؟

ظل السكون يخيم على الغرفة .. تململ هارون في وقفته فاتكأ على قدمه
اليسرى .. ثم اليمنى .. ولكن دون جدوى .

تقدم وهو يتحدث بصوت غليظ :

- هل أنت جبان؟ تندس تحت اللحاف مثل النعامة خوفاً من الكلام ..
هذا سلوك غير سوي بالنسبة لطبيب مثلك؟

أمسك هارون طرف اللحاف الأخضر وسحبه بسرعة ثم قذفه صوب
الزاوية ..

نظر مباشرة إلى وسط السرير ..

أدرك هارون بسخط .. أنه لن يجد الإجابة من شيء كهذا!

لقد كانت تلك الحيلة القديمة في الهروب .. بواسطة مجموعة من الوسائد
البيضاء المكومة!

فعلاً لم يكن هناك كائن بشري في الغرفة غيره .. أحس هارون بالخديعة ..
بأنه وقع في فخ أحدهم ..!

فكر في نفسه :

لم يكن الطبيب جلال .. فهو لا يستطيع الخروج بمفرده فقد تضرر من
الاختناق كثيراً، بل كان له مساعد .. وأراهن على أن مساعده قد دبر خطة
ذكية لإخراجه من بين كل البوابين وحراس قصر العمدة .. من غير أن يعلم
أحد .

ولكن كيف؟ هل استخدم سحراً فأخفاه عن أعينهم؟

أحس هارون بأنه يسمع ضحكات المساعد الساخرة .. ارتجف من
الغضب وشعر بالغباء عندما تذكر كيف كان يكلم الجماد ويكلم نفسه قبل
قليل .

تلقت بحرج يمنة ويسرة خوفاً من أن يكون أحدهم قد رآه ولكنه
اطمأن قليلاً عندما رأى أنه وحده في هذا الجناح، لذا أسرع خارجاً من
قصر العمدة.

صادف ساري يتمشى بالقرب من قصر العمدة ممسكاً مظلتته الزرقاء التي
كانت معه بالأمس ..!

لم يستطع الحديث معه لأن اليوم الثلاثاء .. لذلك وقف متجمداً أمامه
كتمثال شمع، كان ساري مع نحوله أطول من هارون الضخم .. فنظر إليه
من الأعلى كمن ينظر إلى حشرة تحت عدسة المجهر .

رفع جزءاً صغيراً من جفنه العلوي وترك الباقي منسدلاً ليظهر سواد
عينيه كخط عرضي رفيع ..

لم يحتك هارون بساري مباشرة كما كان يفعل جمال .. ولكنه أحس بشعور
غريب .. لم يحسه من قبل، كأن أعاصير عاتية سوداء تنبعث من ساري، تحمل
معها شعوراً قوياً بالعداوة .. بالكراهية الشديدة ..

لا بل أكثر من ذلك ..

تحمل معها رغبة في إزاحة هارون ..

رغبة عارمة في القتل!

* * * *



الفصل السابع والعشرون

فتح جمال عينيه بصعوبة بالغة ..، كان يشعر بألم شديد في عنقه، تحسس رقبته بيد ضعيفة .. لم يكن بها شيء مغرور أو أثر لجرح، فقط آلام ضربة الأمس .. ابتلع ريقه ورفع رأسه إلى السماء، كانت زرقاء ممزوجة بالغيوم البيضاء الناعمة، تنهد متعباً .. فأخرج نفساً حارقاً من رثتيه، قام بتحريك جسده الذي استجاب له كجسد عجوز هرم .

حاول تذكر ما جرى له .. عندما نظر إلى أغصان الشجرة فوق رأسه ..! تساءل ما الذي أتى به إلى هنا! كل ما تذكره جمال عن ليلة البارحة هو أنه تتبع أحدهم ليلاً .. عند الشجرة ثم؟

ثم ماذا؟

أغمض جمال جفنيه محاولاً التذكر .. أظلمت الدنيا في عيني وضاع مني الشخص الذي كنت أراقبه ..

لمس عنقه مرة أخرى .. وفكر في نفسه :

- كان الرجل في الظلام عند الشجرة .. أنا واثق من أنني كنت بعيداً عنه بحيث لو هاجمني .. فسيأتي من أمامي .

لكن الضربة أتت من يد خلفي على جانب رقبتني .. بمعنى أن هناك شخصاً آخر رأي أرقب شريكه فأسقطني أرضاً ليتخلص مني قبل أن أكشف هويتها .

نظر إلى ساعته التي تشير إلى الساعة صباحاً، فقفل عائداً إلى منزله يجر قدميه بوهن .. كان التل يفصل بين الجانب الشرقي ووسط القرية ..

أما المسافة بينه وبين الجانب الغربي الذي يقع فيه بيت جمال فتستغرق عشرين دقيقة سيراً على الأقدام حتى يصل .. مع جسده المتألم أحس بأن الطريق قد تمدد ..

أخيراً فتح باب منزله .. خلع ملابس العمل السوداء وارتدى ثوباً أبيض، وقف أمام المرأة ليرى أثر تورم في رقبتة وقد ازرق ما حوله، تساءل في نفسه عن الأداة التي ضرب بها ..!

أحس جمال بألم نفسي يفوق ألمه الجسدي .. فهو لا يريد أن ينال منه عدوه بكل سهولة .. صر على أسنانه مقهوراً حتى كادت تتفتت .. وذهب ليصلي .

بعد نصف ساعة .. كان جمال قد أنهى صلاته وأفطر بلا شهية .. ثم تذكر شيئاً ..!

شيئاً مهماً جداً!

مشى بجسده المتخدر حتى وصل إلى بدلته ففتشها وأخرج المسجل ..

بسرعة خاطفة وبلا تفكير هبت أصابع يده لتخرج الشريط ..

لا يوجد هناك ثمة شريط!

وقف جمال مذعوراً يلوم نفسه .. وقد بدأ يشك في ذاكرته، فتح باب جهاز التسجيل ولكنه لم يفلح بشيء .. فكر :

- تبّاً .. لقد تيقنت من وضعه بالأمس وسجلت كلام العجوز وبائع الحليب وغيرهما ..

هل يعقل أن الشخص الذي ضربني قد أخذ شريط التسجيل كي لا أتعرف على صوته بعدها؟!!

ترك جمال التفكير قليلاً وارتاح على سريره طيلة النهار، شيئاً فشيئاً بدأت أطرافه تعود إلى وضعها الطبيعي بعد أن كانت تؤلمه ..

ظل يفكر ويكتب كل ما يجول بخاطره على الورق ..
وفجأة ابتسم ابتسامة انتصار ..

أحس بالحماس يسري في عروقه فهب واقفاً ولبس بدلته الأخرى رامياً الأولى في سلة الغسيل .. ثم تذكر أثر الضربة الذي سيثير التساؤلات البغيضة فبحث في أرجاء المنزل عما يمكن أن يسترها ..

لقد فتش كل صغيرة وكبيرة ونسي أهم شيء من فرط العجلة ..

فقد كانت لفائف القماش الطبية موجودة في حقيبته من العاصمة، قص منها جزءاً ووضعها على أثر الضربة ثم ثبته بلاصق طبي أبيض .

نظر إلى المرأة .. فلم يرق له شكله .. لذا رفع ياقته إلى الأعلى وأحكم إغلاق الأزرار مع أنها ستضغط على المكان المتورم إلا أنه سيتحمل ذلك بدلاً من التعرض لأسئلة المتطفلين ونظراتهم .

الآن اختفى الأثر كلياً .. انتعل حذاءه الجلدي الطويل وخرج ..

كان أول من التقى به ميمونا!

ضحك جمال في سره وقال :

- يبدو أن لقاءنا المقدر قد حان ..

لم ينتبه له ميمون فقد كان يخرج لسانه ويدور بعينه وحوله الأطفال يضحكون ..

كان يرتدي قبعة مضحكة كقبعة المهرجين بدلاً من قبعة الصفراء الشهيرة، اقترب جمال وناداه .. مع أن ميمونا سمع إلا أنه تظاهر بعكس ذلك .. حتى انصرف الأطفال ..

ناداه مرة أخرى .. فالتفت إليه ميمون حزيناً :

- ما الأمر سيدي الضابط؟

- لا شيء، أود دعوتك على الغداء فقط ..

أخرج ميمون لسانه ليدور بسرعة خارج فمه كناية عن شهوته للطعام .. وقبل الدعوة على الفور! ذهب إلى السوق الشعبي وطلب جمال ما يكفي للآثنين وقد كان كريماً في ذلك، وعندما وضع الطعام .. بدأ ميمون على الفور

في الأكل بنهم بينما غض جمال بصره عن تصرفاته الخرقاء وبدأ بالأكل .. كان جمال يأكل ببطء مفكراً .. حتى باغته صوت ميمون :

- سيدي ما أمر الجواسيس الذين يزورون الغراب؟

- أنا أسألك نفس السؤال؟

ارتبك ميمون وضربت الملعقة الحديدية رؤوس ثنيتيه من غير أن يلحظ الضابط الذي واصل مثبتاً نظره على المجنون أمامه :

- في هذه القرية العجيبة لا أدري ممن أخذ الخبر لذلك عزمت على اكتشاف كل شيء بنفسى ..

- إذا سيدي ..

- أنا لم أر شيئاً بعيني وبالتالي لا يمكنني الجزم بوجود جواسيس، وأنت ماذا تظن؟

أحس ميمون بالأهمية فتحنح ووضع ملعقته جانباً ثم فتح فمه المملوء بالأرز مدعياً الجدية :

- ليسوا نساء .

- لماذا تظن ذلك؟

- إنه شخص كرهه عند الرجال فما بالك بالنساء!

حك جمال ذقنه موافقاً لقول ميمون ثم قال بحزم :

- أنت .. أين كنت بالأمس؟ وقبله؟ لقد بحثت عنك .. ولكن الضابط ساري أرسل لي تهديداً مبطناً ..

ابتسم ميمون حتى بانت أسنانه الصفراء ولم يجب ..

غير جمال مجرى الحديث وتكلم بمرح حول أمور أخرى وعرج على
موضوع الجواسيس ثانية .. بينما بقي ميمون متمسكاً برأيه ..

انتهت بعدها وجبتها بسلام فمشى الاثنان خارج السوق وجهاز
التسجيل يدون كل ما دار بينهما !..

عندما اقتربا من بيت جمال .. استأذن الضابط في أخذ شيء من المنزل
فأدار المفتاح .. وعندما فتح الباب .. جذب ميمون من ذراعه بأقصى قوته
إلى داخل المنزل بسرعة خاطفة بحيث لم ينتبه له أحد!
وقع ميمون أرضاً في منتصف منزل جمال ..

لقد تم أسره!

* * * *



الفصل الثامن والعشرون

أغلق الضابط جمال الباب بالمفتاح وأدخله في جيبه، ثم اتكأ عليه في منع
أي محاولة للهروب ..

كان يقف متأهباً .. بينما ظل ميمون جالساً على الأرض منزلاً رأسه ..
بصمت تام .. لم يقاوم حتى .. بل لاح على شفثيه طيف ابتسامة إعجاب
اختفت بسرعة ..!

لكن جمال لاحظها على الفور، قال الضابط مشدداً على الحروف :

- أنت .. من تكون؟

وقف ميمون وقد عدل من قبعته فأجاب بانزعاج :

- هل أعتبر هذا اختطافاً؟

احمرَّ وجه جمال من الغضب وصرخ به :

- احرص .. وأجبنني الآن .. من أنت؟ وماذا تفعل في هذه القرية؟

- ميمون المسالم ..

يبدو أن المجنون كان يدرك نقطة ضعف جمال في استفزازه لذلك استمر

بإثارة أعصابه .. لكن الضابط الذي مر بتجربة غريبة ليلة أمس أصبح أكثر حذراً من ذي قبل .. فعرف حيلة ميمون وتحكم بنفسه أكثر .. ظل واقفاً بالباب كالحارس .. ثم قال بتحدٍ :

- لن تخرج من عتبة هذا الباب سليماً ما لم تخبرني ..

- غبي ..

- من؟

- أنت ..

ابتلع جمال جمرة غاضبة كادت تخرج من فمه وابتسم بهدوء :

- أجل .. كنت غيباً عندما لم أربط بينك وبين الحريق .. أو عندما لم أكتشف من تكون!

صفر ميمون وحك قبعته ثم انتحب بترجٍ :

- سيدي أنا مظلوم .. أخرجني ..

- كف عن التظاهر يا هذا .. أنا أعرف أن هناك علاقة بينك وبين الخادم الجديد الذي يعمل عند ساري .. هل هو وأنت من الجواسيس أيضاً الذين أخبرت القرية عنهم؟

نفخ ميمون خديه وقال بنفاد صبر :

- لا أعرفه ..

- كاذب دنيء .. لقد كنت أتعاطف معك، لكن ليس بعد الآن .

استسلم ميمون عندما أحس بقوة جمال الذي يقف متأهباً للقتال ..

ونشج قائلاً :

- سيدي ماذا تريد من شخص ضعيف مثلي ..؟
- أين السيد صفوان وابنه الكفيف ..؟
- جفل من هذا السؤال المباغت فتلعثم .. أكمل جمال :
- أنت تعرف الكثير أيها المخادع .. أخبرني ماذا تعرف عنه؟
- لدي فكرة غير مؤكدة .. ولكنني لا أستطيع الإفصاح عنها ..
- حسناً، سأعطيك فرصة أخرى .. شاهدك الكثير تخرج من العيادة التي تأكلها النيران أثناء الحريق .. ماذا أردت من دخولها بشجاعة في تلك الأثناء؟
- لا أستطيع إخبارك ..
- الفرصة الأخيرة .. عادتك بالأكل تشبه عادة الخادم في منزل ساري، هل هو من عائلتك؟ معارفك؟ ما الذي يربطكما؟
- لا أستطيع إخبارك ..
- لماذا؟
- ليس الأمر وكأني لا أريد .. لكن صدقني سيدي الضابط .. أنا لا أستطيع ..
- هل هناك من يهددك؟
- صمت المجنون وحك صدره بعنف فتابع جمال :
- إذا ستلتزم الصمت مثل الطبيب جلال ومثل السيد صفوان قبل اختفائه .. حسناً هذا يدلني على أن الشخص الذي يهددكم هو نفسه!

تنهد جمال بارتياح مع مسحة لطيفة من الانتصار .. تكلم ميمون بعدها
بتردد :

- لماذا أنت مسرور هكذا ..؟

رفع الضابط حاجباً واحداً وأدنى وجهه من ميمون محاولاً محاكاته
بسخرية :

- لا أستطيع إخبارك ..

ثم أردف باستمتاع :

- ستختفي أنت كذلك كما اختفى الاثنان من قبلك .. وهذا باعث للسعادة
بالنسبة لي ..

- حسناً .. أخبرتك بما لدي، أخرجني الآن .

- كاذب .. لم تخبرني بشيء .

- هل ستبقيني في منزلك ؟

- أنا لا أتشرف بإيواء المشبوهين .. ولكني سأكون ظلك الملازم لك أينما
تذهب .

احتج ميمون واستجدى عطف جمال الذي بقي عنيداً واقفاً بالباب ..

تحرك الضابط إلى اليمين ليفسح لميمون مجالاً للخروج ..

خرج ميمون وجمال خلفه مباشرة! وصل إلى السوق الشعبي .. ذهب إلى
المسجد .. استقبله الأطفال في الجانب الشرقي بالحجارة ولكنهم هربوا
لرؤية جمال معه! بعد ذلك .. كلم أحد الصيادين .. اشترى سمكاً .. وما
زال جمال خلفه كظله تماماً!

اقترب ميمون من منزله وقال :

- أريد تبديل ملابسني .. هل سترافقني أيضاً؟!

- سأدخل منزلك وحسب ..

أدار ميمون مفتاح المنزل ولاحظ جمال شيئاً غريباً لذا .. أبقاه في باله حاضراً حتى يدونه في تقريره ..

دلف المجنون إلى غرفة صغيرة مبعثرة كان المكان يعج بالملابس الملقاة على الأرض مع القبعات التي شكلت جبلاً من الفوضى، دخل جمال خلفه وتحقق من عدم وجود شيء مريب في الغرفة الهوجاء .. ومن أنهما في الطابق الثالث ولا يمكن لميمون الهرب من النافذة أبداً .

لذا وقف خارج باب الغرفة وقال :

- بدل ملابسك حالاً .. سأنتظرك هنا وأحذرك من الهرب بأي طريقة .

أذعن ميمون للتهديد ودخل الغرفة متعمداً إغلاق الباب بعنف أزعج جمالاً .. وأدار القفل بقوة أيضاً .

ظل الضابط يتأمل سقف المنزل المزخرف والممرات الحجرية الزاهية، كان من المنازل الثلاثة الفخمة التي تقع على الجانب الشرقي .. أما الآخرا ففهما للضابط ساري والدهان حسان .

وجد أن استئجار ساري لمنزل باهظ الثمن مقبول .. فهو من ضباط النخبة ويبدو أن دخله مرتفع جداً، والدهان حسان من العوائل الثرية بالوراثة والمعروفة في هذه القرية ..

لكن السؤال الذي ظل يدور في خلد جمال .. هو هذا المجنون ذو الثياب الرثة، كيف جمع مالا ليستأجر منزلاً كهذا؟

أخرج دفترًا صغيراً وكتب به عدة ملاحظات ثم أخفاه في بزة الشرطة
السوداء ..

سمع جمال صوتاً غريباً منبعثاً من غرفة ميمون! فثار وضرب الباب
بعنف .. ثم أدار المقبض .. لقد كان مفتوحاً .. مع أنه سمع صوته عندما
أقفله ميمون .. أمر غريب آخر! فكر في نفسه :

- من فتحه؟ ومتى؟ وكيف لم ينتبه للصوت؟

عندما دخل وجد الغرفة قد زادت بعثرة .. وهناك على السرير ..

يجلس شيخ هرم!

بملايس بنية اللون نظيفة ولحية بيضاء تدل على الوقار وقد لف عمامة
بنية أيضاً على رأسه .. كان أبيض مبتسماً يلبس جهازاً مساعداً على
السمع وبجانبه عصا غليظة!

ظل جمال يحدق بدهشة وفمه مفتوح!

لم يستطع الكلام فساعده الشيخ بصوت منهك من التقدم بالعمر :

- أهلاً بالرجل .. لقد خف بصري ولا أستطيع رؤيتك جيداً، من أنت؟!

ما زال الضابط فاغراً فاه .. عندما تحركت يده بتلقائية مشيراً إلى محدثه :

- أ.. أنت من .. أقصد .. من أنت؟!

- هاه .. ماذا تقول يا ولدي؟ أنا آسف ولكن سمعي ثقيل أيضاً .. أيمكنك

الاقتراب أكثر ورفع صوتك؟

اقترب جمال وقد دار وجهه في كل الغرفة ليبحث عن أثر لميمون الذي

اختفى ..

- أنت يا عم .. من تكون ..؟

تنحى الشيخ وأجاب :

- هذا منزلي .. يا بني .. لقد استأجرته خلال هذا الشهر فقط، أخبرتني ابنتي التي تسكن في العاصمة أن حياة الريف والطبيعة الهادئة مفيدة لصحتي لذا أتيت إلى هنا، وأنوي الإقامة لعام كامل فقد أعجبتني هذه القرية الوداعة .

فكر جمال في نفسه .. لم تكن وادعة أبداً .. جرائم قتل واختطاف وابتزاز وجمع ضرائب من المظلومين وتسلط على الضعفاء .. إنها جحيم لا يطاق .
ولكن بالطبع لا يمكن إقناع الشيخ بهذا فكبار السن لا يعدلون عن رأيهم أبداً .

سأل جمال على الفور :

- يا عم .. كان هنا شخص منذ قليل بملابس رثة وقبعة مضحكة .. ألم تره؟

حرك الشيخ الكبير عصاه الغليظة بيد مرتجفة وقال وقد وضع يده الأخرى بقرب أذنه :

- ماذا قلت؟ ارفع صوتك يا بني .

كان جمال مستعجلاً للحاق بميمون الهارب لذا أعاد السؤال صارخاً ..
فأتاه الجواب ببطء :

- يبدو أنك تتوهم يا بني فأنا أعيش وحدي في هذا المنزل .. وليس لي إلا ابنة واحدة خارج العاصمة كما ذكرت لك .. ولم أتعرف على أحد سوى

بعض الصيادين الذين يأتون بالطعام المدفوع الثمن في بداية الشهر،
صباح كل يوم .

شكر الضابط الشيخ المسن وأسرع إلى الخارج، دار حول المنزل .. بحث
في الحديقة الخلفية .. في كل مكان .. ليس هناك ثمة أثر .

فكر بسرعة في سؤال الصيادين .. والمفاجأة أن جميعهم أجمعوا على أنه
منزل ميمون ..

لكن شيخاً كبيراً دفع لهم بداية هذا الشهر ليأتوه بالسماك المطبوخ كل
يوم، وخمن البعض بأنه قد يكون أباه وربما أصابه الخرف أو فقد الذاكرة
فنسي ابنه!

لم يقتنع بهذه الفكرة .. فأسرع راكضاً إلى مكتب المقاول سليمان، وللأسف
وجده مغلقاً!





الفصل التاسع والعشرون

كانت الشمس قد شارفت على المغيب .. وبدت السماء حمراء كثيفة زاد
لونها من كآبة جمال الذي عاوده الألم في رقبتة من الجري والعطش، اشترى
ماء من السوق الشعبي .. وجالت عيناه بسرعة فوقعتا على مجموعة الشباب
وهم يضحكون بصوت عالٍ ..

لم ينتبه له أحد منهم سوى ذاك الشاب الأسود ثامر فهب كالريح حتى
وصل إليه ..

- ما الأمر يا جمال .. أراك تبحث عن شيء ما؟
- بل شيئ .. هلاً قمت بمعاونتي؟
- أجل لكن بنفس الشرط السابق .
- سأذكر اسمك لا تخف .. والآن أريدك أن تعثر على المجنون والمقاول
سليمان، لكن توخَّ الحذر وعدني ..
- أعدك بماذا؟
- عدني بعدم الاقتراب من ميمون خاصة، فقط أخبرني عن مكانه بسرية
تامة .. ولا تلفت الانتباه، هل أستطيع الاعتماد عليك في ذلك؟

- أجل .. لكن بالنسبة للمقاول سليمان فإنه باستضافة إمام المسجد عبد الغفور .. لقد سمعته يدعوهُ إلى منزله بعد انتهاء الصلاة .

تنهد جمال بارتياح فقد عثر على واحد .. وقبل أن يخرج من السوق طلب كوباً من الشاي بالنعناع .. فرمى بنفسه فوق أحد المقاعد بلا اكتراث بالجالسين حوله ..

لكن الطاولة لم يجلس عليها سوى شخص واحد ..
هو الذي ضربه بالأمس من غير أن يعلم ..
لا أحد غير الضابط ساري!

يجلس في الجهة المقابلة ويمضغ قطعة من الفطائر المحشوة بالزعتر وبجانبه كأس من الماء البارد ..

تلفت جمال حوله بضيق ليبحث عن مكان آخر، لكن كل المقاعد كانت ممتلئة إلا هذا المقابل لساري ..!

أدرك تماماً السبب الذي جعل الناس يعدلون عن هذا المقعد .. ورضي بالواقع فاستقر مفكراً في كرسيه، لقد كانت هناك فجوة كبيرة بينهما، لاحظ جمال وجود مظلة كبيرة زرقاء مستلقية على حوض ساري ..!

وتساءل عما يفعل بها في داخل السوق بينما ما زال الجو صحواً بالخارج!

قدم له الفتى النادل مشروبه واستلم الثمن ثم انصرف ..

أخرج جمال مفكرة صغيرة ودون عليها بعض الملاحظات .. ثم ارتشف من قده الشاي وعاد ليركز في مفكرته مرة أخرى .

وضع علامة استفهام كبيرة وأخرج منها أسهماً .. ميمون .. الخادم ..
الشيخ الكبير .

لم يضم الطبيب جلالاً والسيد صفوان إلى الثلاثة لأنه وضع استنتاجاً
جزم بصحته رغم مرارته .

فكر في نفسه :

- ما سبب صمت ميمون ورفضه الإجابة؟! إنه ليس مختلاً بالكامل، قد
تكون قدراته العقلية بسيطة جداً .. لكنه يتعرض للضغط الشديد من
أحدهم .. لماذا؟! هل هدده بقتله، بابتزازه، بفضحه، والأمر الأغرب
من ذلك كيف فتح قفل الباب بلا صوت وخرج مع أنني كنت أقف
خلف الباب والغرفة تقع في الطابق الثالث ولا يمكنه القفز؟! إلا
إن كان الشيخ قد ساعده .. إن أمر الرجل المسن محير للغاية .. ولكن
سيكشف كل شيء عندما يقابل المقاول سليمان .

أعاد جمال المفكرة إلى جيبه ورفع يده ليمسك بالكوب .. التقت عينه بعين
ساري الذي كان يرقبه وربما قرأ ما دونه ..

أنزل ساري عينيه إلى الفطائر أمامه .. كان ما زال يحرك فكه باللقمة
الأولى .. فتجرع الماء قليلاً ثم قضم أخرى وظل يأكل ببطء شديد .

ارتاع جمال من فكرة قراءة ساري لأفكاره واستنتاجاته البسيطة .. إنها
طامة كبرى .. فهو ما زال شخصاً مريباً له وللكل تقريباً ..

تيقن جمال من هذه المعلومة عندما رأى هارون يجلس عند طاولة بعيدة
يراقب ساري ..

لكن هارون لم يفعلها من قبل! كان دائماً متسامحاً مع الكل ولا يكثر بتصرفات ساري حتى في مسكنهم، أعاد النظر إليه بينما لم ينتبه له هارون الذي كان يراقب ضابط النخبة بعداوة .. نظر جمال إلى ساري الذي ما زال يأكل بهدوء ..

جزم جمال بأن الصامت أمامه شديد الملاحظة فهو الوحيد الذي اكتشف كاميرات المراقبة في المسكن، وهو الذي استطاع قراءة شهادة الشكر مقلوبة من مسافة بعيدة وفسر كلمة الاختبارين بكل سهولة بينما لم يلاحظ أي شيء حينها .

لقد كان يعلم أن هارون يراقبه .. ولكنه مستمر في الأكل بدون أن تتحرك منه شعرة واحدة أو يلقي بالاً لذلك .. اعترف جمال في سره بإعجابه بهذه الأعصاب المتناسكة والهادئة جداً عند ساري والتي كان جمال يفتقر إليها!

ظل جمال ينقل بصره بين زميليه بتعجب حتى تدارك كوبه الذي برد فشربه بسرعة، في تلك الأثناء دخلت مجموعة من السيدات إلى السوق وكثر لغطهن ومجادلتهن للبائعين ..

كانت إحداهن تبدو في الأربعينيات من عمرها .. ترتدي عباءة سوداء لامعة ولها صوت حاد مزعج يصم الآذان، عرض لها البائع أقمشة نسائية وما زالت تتذمر وتجادل، بعض رواد مقهى السوق الشعبي الذي يطل على أركان ومحلات البياعين فضلوا الانصراف على تحمل هذا الضجيج والبعض رضي بمشاهدة هذه المهزلة والباقون انشغلوا بأمورهم الخاصة كجمال ..

أحس جمال بنظرات ساري تحترق عنقه ..!

مع أنّ جمالاً حرص على إخفاء الضربة وضهادتها إلا أن ساري لاحظ

طرفها ونظر إلى جمال بابتسامة مواسية كرهها جمال .. فقد اعتبر هذا تعاطفاً
مبطناً بالشهامة ..

ظل الاثنان ينظران بتحدٍ إلى بعضهما بعضاً .. حتى تحولت عينا ساري إلى
عيني وحش مفترس متأهب للانقضاض على فريسته! ظن جمال لأول وهلة
أنه المقصود إلا أن الضابط الصامت لم يكن يعنيه فقد وجه بصره إلى مجموعة
الشباب التي فيها بائع الحليب سليم .. فأمسك مظلته بإحكام وخرج من
السوق خلفهم بسرعة كي لا يفقد أثرهم .

خاف جمال من هذا التحول فلحقه ولحقه أيضاً هارون والخدام ذو الشعر
الفضي الذي كان يمشي في زقاق قريب من السوق، تبع الثلاثة ساري وهو
يركض بسرعة حتى انتبه له الشباب .. فهرب أغلبهم وبقي بائع الحليب
وثامر وفادي !..!

صرخوا بتحدٍ يشوبه وجل :

- ما الأمر .. ماذا تريد؟

لم يجب ساري فقد هجم على سليم ورفع إلى الأعلى ثم أسقطه أرضاً
بقوة .. وانهال عليه بضربات محترفة وخاطفة لم يستطع بائع الحليب ردها ..
حاول أصدقاؤه إبعاد الضابط .. فأمسكه ثامر من بزته السوداء عند
صدره ليرجعه إلى الوراء ولكن ساري ركله ركلة قوية في بطنه .. قذفته
إلى الوراء بينما بقي فادي يحاول بلا جدوى فك يده التي رسمت آثاراً في
جسد سليم ..

كان هارون وجمال يجريان في اتجاه الحدث الذي شاهدها من بعيد، وعندما وصلا .. لاحظ جمال أن ضابط النخبة يركز ضرباته بيد واحدة فقط أكثر من الأخرى التي أمسك بها المظلة بإحكام .. مما أثار فضوله .

قفز الخادم ليستلم المظلة من يد ساري حتى يضرب بأقوى ما لديه! ثم واجه الضابطين مثبتاً أقدامه بقوة في الأرض :
- أرجوكم لا تحاولا التدخل .. هذا أمر لا يعنيكما .

صرخ هارون :

- كيف لا نخصنا .. أتهزأ بنا يا هذا؟! لماذا تعتدي على شخص بريء هكذا بدون سبب؟

بقي الخادم واقفاً كالصخرة في منتصف الطريق مانعاً جمال من التدخل، ومن خلفه تماماً نهض ساري وهو يتنفس بقوة .. منزلاً أكمامه بعد أن انتهى من معركته!

كانت أشبه بثأر .. بانتقام .. لقد كان لهذه المعركة أسباب عند ساري الذي نادى خادمه بعصبية .. فتحرك الخادم من مكانه ولحق به على الفور ثم سلمه المظلة .

حاول جمال اللحاق بهما .. إلا أن هارون جذبه بقوة وأحكم ذراعيه على يدي جمال من دون أن يتكلم، بقي الاثنان واقفين في ذهول حتى انتبها إلى صوت فادي وثامر يحاولان إسعاف صديقهما .

جثا هارون على ركبته وتحسس نبضه .. كان على قيد الحياة ولكنه فاقد

للوعى مخضب بالدماء وقد ازرقَّ وجهه من الضرب بينما تثبت جمال من مسجله وأمر ثامراً بمساعدة هارون في إيصاله إلى العيادة المؤقتة ..

ثم سأل فادي :

- ما الأمر؟

كان فادي يضع يديه على رأسه برعب وهو ينظر إلى صديقه بعينين جاحظتين، لم يستطع حتى سماع السؤال .. وعندما حمل الاثنان جسد سليم وهرعوا به إلى العيادة بسرعة، تجمهر حولهم الناس وحاول الحراس إبعادهم .

أعاد جمال السؤال :

- ما الذي يحصل .. لماذا هو من بينكم؟

- ل.. لا أعرف أبداً لقد انقض عليه بسرعة وفعل به ما فعل ..

- هل سمع الإشاعات القذرة التي أطلقها سليم؟

- لا، مستحيل ..

قال فادي هذه العبارة وهو ينظر إلى يديه بأحداق مرتجفة :

- سحفاً .. يدها قويتان للغاية، لم أستطع إنقاذ صديقي .. أشعر بالعار .. لقد خذلتُ سليماً .

ربّت جمال على كتفه وقال :

- لا تلم نفسك .. سأذهب للاطمئنان عليه .

- سأرافك .

وافق جمال على ذلك واقترحها الزحام .. رافضين الإجابة عن تساؤلات
الفضوليين .

وقفت جدة فادي عند باب منزلها وقد تناهى لمسمعا ما حدث، كانت
العجوز غير متعاطفة أبداً .. بل مسرورة أيضاً!

فقد أحست برحمة ساري لسليم في هذا الموقف وعدلت من حجابها، ثم
دخلت المنزل في رضا تام!

* * * *



الفصل الثلاثون

- هل حقاً ستنتقم؟
- كان الحارس اللئيم الذي سخر من زميله صباح الأمس يدخل يديه في جيبه، ويقف متكئاً إلى جدار غرفة الاجتماع في قصر العمدة .
حك الحارس الثائر شاريه بعنف وقال :
- بالتأكيد .
- أوه .. هذا مثير للاهتمام، لقد كانت حياتنا العملية هائلة قبل قدوم غربان العاصمة .. وأنت كنت أكثر من يستمتع فينا بالتهكم على السكان وأخذ الفوائد، لكنك بدوت متردداً بعدما سمعت أحد زملائنا يبلغ العمدة بما جرى بين ضابط العاصمة الطويل وبائع الحليب، لذلك شككت بعدولك عن الانتقام .
- لن أحيّد عن قراري .
- أنت تعجبني .. لا بد أن تنتقم لكرامتك منهم، حسناً .. هل أعددت خطة للإيقاع بالضابط الأخرس!؟

- لم أقل مَنْ هو .. قلت سأنتقم فقط .

صَفَّرَ الحارس الشامت وقال بتحفز :

- إذاً هل هناك خيارات أخرى؟

كان الأمر كذلك فقد بيَّت الحارس المضروب نية سيئة لأحدهم! ولكنه لم يخبر زميله عن هوية الضحية التي يستهدفها .

* * * *



الفصل الحادي والثلاثون

(مذكرات السيد نكرة (ب))

اليوم الأربعاء أظنه الثالث عشر من شهر صفر، بالأمس حدثت أحداث كثيرة .. مع العمدة، مع السكان، حتى مع ضباط العاصمة .

لقد علمت أن زفاف ابنة الدهان العرجاء في السابع عشر من هذا الشهر ..

مسكينة!

عانت الكثير بسبب إعاقتها وما زالت مصرة على ممارسة حياتها الطبيعية والتعايش مع مجتمع يأنف وجودها فيه .. مجتمع متسلط، أردت تخليصها من حياة البؤس التي تعيشها ولكني لم أستطع .

سحقاً ..

لقد سارت الأمور في الماضي بسهولة لكن الآن .. لا أستطيع التحرك ..

هناك عيون ترقبني أينما ذهبت، أكثر من شخص يشك بي .. لا أستطيع

تبرير موقفي لهم .

لأن أدمغتهم المتحجرة تراني على خطأ!
عجباً لهم .. يضيقون على الضعفاء ويجبرونهم على الذل والحاجة، ثم
يستنكرون على من يسعى لإسعادهم .
أريد أن أواصل عملي لكن ..
هناك ثغرات في خططي لا أستطيع سدها .. أحس كأن متلاعباً بالدمى
يقيدني بخيوطه ويحركني كيفما يشاء!
حسناً .. سأحاول النظر عن كثب عليّ أجد دليلاً .. إلى ذاك المتلاعب
لأقطع خيوطه وأخنقه بها ..

أولاً : العمدة .. شخص بدين متقلب المزاج، منافق ويعمل تحتته الحراس
كالعبيد على مدار اليوم .
ثانياً : الضباط الثلاثة :

جمال ذكي جداً ولكنه يفقد هدوءه ويعرض نفسه للخطر بسبب إهمال
تفكيره العقلي وانسياقه خلف عاطفته .

هارون .. مثالي جداً، متعاون ومحبوب من الجميع، ساعد الكثير في تخطي
أزماتهم وآخرها موقفه من الضرائب .

ساري .. خطير جداً ومنعزل تماماً عن الجميع، وعلاقاته بالناس شبه
مقطوعة .. لا يثق إلا بنفسه، وفي الآونة الأخيرة أصبح يتصرف بغرابة
كحمله لمظلة بيده .. واستتجاره خادماً غريب الأطوار .

ثالثاً : الخادم الجديد .. ليس كالخدم العاديين بل إنه كالحارس يقف
بجانب ساري دائماً وأستغرب كيف تحمل سوء تعامله؟!

رابعاً : المجنون الذي كان يحوم حول العيادة ويختفي أغلب الأوقات!

هل أضيف سليماً وأصحابه؟

سليم بذيء اللسان .. يلوك في أخبار الناس ويختلق من عنده إذا لم يجد مادة جديدة!

أما الباكون فلا شيء مميز فيهم .

حسناً .. كم أصبح عددهم؟! سبعة أفراد .. من بينهم الشخص الذي يراقبني .. لقد اتخذت دستوراً أسير على وفقه في مثل هذه الحالات .. وهو أن أي شخص يعترض طريقي في سبيل إراحة الضعفاء والعاجزين فإني سألحقه بهم ..

لأنه عدو للعدالة ..

يريد السعادة لنفسه فقط .. عندما أكتشف هوية هذا الطفيلي سأبيده من على وجه الأرض .. كائناً من كان ..!

إن حمد الآن أقوى من حمد السابق .. حتى لو تغير اسمي .. شكلي .. هويتي .. كل شيء .. فستبقى رسالتي خالدة في ذهني ومغروسة في قلبي وسأسير على هذا الدرب ما بقيت .

(أولئك الضعفاء العديمو الفائدة لا يستحقون العيش ..

لقد انتهت صلاحيتهم)

تَبَّ لهذا العيش الذي يعاقب ذوي الإعاقات الذين لم يرتكبوا جرماً في حياتهم ..

لأن حياتهم في نظر مجتمع قرية العنقاء .. هي جريمة نكراء بحد ذاتها .

بقي على زفاف الفتاة المسكينة ثلاثة أيام .. سأعمل بجد قبل أن تبدأ حياة مريرة أخرى .

* * * *



الفصل الثاني والثلاثون

خرج جمال في الساعة صباحاً وقد كتب في مفكرته عدة مهام يريد إنجازها اليوم .. أحس بأن تحديدها بالساعة سيسر له الأمر أكثر ..
ففتح مفكرته وقرأ :

الساعة ٧:١٠ زيارة مكتب المقاول سليمان .

الساعة ٧:٤٠ المرور بالعيادة المؤقتة والحديث مع الطبيب صابر .

الساعة ٨:٠٥ العودة إلى العيادة المحترقة للبحث عن الأدلة .

الساعة ٩:٠٠ زيارة منزل بائع الحليب سليم والاطمئنان على صحته .

أغلق مفكرته ووعد نفسه إن خرج بنتائج مفيدة لتقريره فسيشتري وجبة دسمة من ألد مطاعم القرية ظهر الجمعة وسيصطحب معه صديقه هارون ليستمتعا معاً قبل اجتماعهما بالضابط الثالث في مساء اليوم نفسه .

عدل جمال من ياقته لتخفي آثار الكدمة التي بدأت تخف تدريجياً وحث خطاه مسرعاً إلى السيد سليمان .. وجد مكتب المقاول مزحوماً جداً .. يبدو أنه وقت الذروة الآن فالزبائن في كل مكان، تضايق من الانتظار فاستأذن

أحدهم ليبادلـه دورـه واعتذر عن ذلك باكتـظاظ جدوله ..
ومع أنه ليس بشعبية هارون إلا أنه كان يمتلك قدرًا لا بأس به من محبة
السكان له .. لذا فقد وافق الزبون على الفور ..!

دلف إلى الغرفة الملونة بزخارفها المجنونة والتي دخلها أول يوم حين
وصولهم، كان السيد سليمان يرتدي بنطالاً أخضرً ومعطفًا بلون العنب
البنفسجي وقد برز من تحته قميص برتقالي بشكل مستفز للعين البشرية!
تحركت شفتا الضابط لا إرادياً باستياء ونفور إزاء هذا الذوق الرديء في
اختيار الملابس ..

مع أنه كره زي الشرطة الأسود بالكامل .. إلا أنه يجده قمة في الأناقة
مقارنة بما يرى أمامه الآن، تنحج واضعاً يده على شعره البني ثم قال :
- السلام عليكم ..

رفع المقاول سليمان رأسه وهب لمصافحة جمال ثم عانقه بحرارة :
- كيف حالك أيها الضابط؟ لم أرك منذ زيارتك الأولى .. تفضل
بالجلوس .. يا الله .. إن أموراً كثيرة تحدث في القرية خلال هذا الشهر ..
وآخرها ضرب سليم المسكين على يد زميلكما الطويل .. في الواقع ..
لم تكن هذه المرة الأولى التي ضرب بها سليم! فلسانه السليط وألفاظه
القدرة تجبر الآخرين على المشادة معه، ولولا رحمة الله بأمه وأخواته
وسمعتهن الطيبة لما اشترى منه أحد .

سجل جمال في جهازه هذه الاستطرادات التي لم يأتِ بشأنها .. ثم قاطع

المقاول الثرثار بجدية :

- سيد سليمان .. أعتذر لأنني سأشغلك عن عملك قليلاً ولكنني آمل أن تتعاون معي وتريني سجلات الإيجار حالياً، أحتاج قليلاً من المعلومات في التقرير .

جلس السيد سليمان على طرف مقعده ومال بجسده إلى الأمام متحمساً :

- لكن سيدي .. السجلات كثيرة جداً .

- أريد سجل بداية هذا العام والذي سجلت فيه زبائن شهر محرم وصفر .

- هل أستطيع أن أسأل لماذا؟

- آسف .. لن أجيبك ..

- لم؟

- على كل حال .. إنه ليس بالأمر المهم ولا يتعلق بعملك أبداً .

لم يكن مزاج السيد سليمان صفواً فهو لا يحب أن يؤمر هكذا من شاب يصغره بكثير .. تنهد متعمداً إشعار جمال بضيقه من الطلب وقام منفعللاً ليفتح إحدى الخزائن ويشرع بالبحث، وبعد خمس دقائق أحضر سجلين كل منهما خاص بشهر ..

ثم ناولهما جمال وجلس بعصبية يرقبه ..

أمسك الضابط السجلات الجلدية السوداء بعناية .. وسأل المقاول :

- هل كل منازل القرية تُعرض عبر مكتبك؟
- لا .. فبعضها أملاك قديمة لأسر تتوارثها وترممها بين الفينة والأخرى، وهناك من يشتري المنازل من أصحابها مباشرة .. وبعضها للعمدة، لكن منازل الإيجار ملكي فقط .
- وكم يبلغ عددها؟
- خمسة عشر .. ستة من المستوى المتوسط كالتي استأجرتها أنت والضابط هارون، ومن المستوى القليل الخدمات والسعر أيضاً ستة، أما الثلاثة الباقية فهي ذات المستوى العالي والمطلة على البحر في الجانب الشرقي، أستطيع القول بأنها اثنان .. فقد أعجب الدهان حسان بالمنزل لذا اشتراه مني ليستقر فيه .
- فهمت .. شكراً لك .
- تصفح جمال سجل شهر صفر، لم يكن هناك من شيء لافت .. إلا أنه توقف عند قراءته الورقة التي تحمل بيانات ساري، توقف عند عمره بالضبط ..!
- إن كان عمره صحيحاً فإن استنتاجاته ستنحو منحى آخر! حفظ بعض المعلومات عنه .. ثم وضع السجل جانباً، أمسك بسجل شهر محرم .. أيضاً لم يلفت أي مستأجر انتباهه .. ثم حرك الأوراق سريعاً باحثاً عن منزل ميمون ..
- لم يجد شيئاً في بادئ الأمر لعجلته ..

شك جمال في بحثه، فأعاد تقليب الأوراق وبحث في عناوين المنازل بدلاً من أسماء سكانها وركز على تاريخ آخر أيام الشهر .

في الجانب الشرقي .. ثلاثة منازل فخمة فقط .. منزل واحد شاغر وهو ما أقام فيه الضابط ساري خلال شهر صفر .. أما في شهر محرم فاثنان : الدهان حسان .. وميمون !

قرأ بيانات ميمون .. دقق في كل شيء :

الاسم ميمون بن جابر بن همام .. شيخ هرم بلحية بيضاء .. أتى في الساعة السابعة مساءً في الثامن والعشرين من شهر محرم، له ابنة واحدة .. من مواليد العاصمة يبلغ عمره ستاً وسبعين سنة .. ذو سمع ثقيل وبصر ضعيف، دفع المال كاملاً لمدة شهرين .. وقال إنه قد يزيد في مدة مكوثه بعدما يناقش الأمر مع ابنته!

مع أنّ جمالاً كان مصدوماً بشدة .. إلا أنه أخفى تعبيراته وأعاد السجل بصمت .. أخرج مفكرته ليكتب كل ما قرأه وقتها خوفاً من أن ينسى شيئاً . نهض على الفور .. كانت ساعته تحته على الإسراع فقد بقي له عشر دقائق ليلحق بالطبيب صابر، لذا شكر المقاول وودعه باستعجال .

* * * *



الفصل الثالث والثلاثون

هروول جمال كي لا يتأخر ووصل لاهثاً قبل الموعد بدقيقة ..
كان مبنى العيادة القديم متهاكاً جداً .. بلون أبيض مصفر!
وقف الطبيب الضئيل الأسمر من فوره ورحب به ..
قال له جمال :

- حسناً .. أظنها معك .

ابتسم الطبيب بشفتين غليظتين وقال بتردد :

- هي بأمان .. تفضل .

سلم السيد صابر للضابط سجلات السكان الطبية والتي تعود إلى
عشرين سنة مضت ..

كانت الأوراق جديدة .. ولكن الصور باهتة وقديمة، تساءل جمال عن
ذلك فردّ الطبيب الذي سعل بقوة ثم قال بصوت متعب :

- اعذرني فقد نال مني البرد .. حسناً .. ما الذي سألتني عنه؟ آه، أنت
تقصد لماذا الأوراق جديدة؟ لأن السجل بدأت تذبل أوراقه .. فطلب

إلى العمدة قبل أربع سنوات أن أعيد كتابة السجل، وهو ما استطعت فعله بصعوبة وآلام في اليد .. لكن الصور لا تُعاد لذا أمرني بأن أدبّس صورة كل شخص من سكان القرية بجانب ملفه .

حرك جمال الأوراق بتؤدة وأفكاره تعوم في رأسه :

- قبل تسع سنوات .. أنا أبحث عنه .. ذاك الفتى .. أين هو .. حمد .. اسم والده عصام .. تَبَّأ، الصور باهتة .. ها هو عصام!

فرح جمال بنصره المصغر وأطلق صيحة سعيدة ثم انكبَّ ينسخ البيانات في مذكرته .. لقد نسخها تماماً .

لم يستطع نسخ الصورة لذا فقد كتب أوصاف السيد عصام بدقة ..

قمحي البشرة .. ضخم الجثة .. أفلج الأسنان، في كفه آثار حروق صغيرة بسبب عمله في استعمال الحديد وحرقة .. يبدو عدوانياً كريهاً ..

لم يستطع تحديد لون عينيه وشعره إذ يبدو أن الصورة أُخذت في مكان مشمس .. ومع مرور الزمن بهتت أكثر، حاول أن يقرب اللون .. كتب في مفكرته : لون باهت أظنه رمادياً .. لكن هذا غير مؤكد .

بعد عشر دقائق رفع رأسه بكآبة وأظلم وجهه، لاحظ الطبيب هذا التحول المفاجئ فاستفسر عن ذلك!؟

- لم أجد ملف ابن الحداد .

- آه .. تقصد حمداً؟! .. لن تجده .. لقد كان منزوياً وأظنه مصاباً بمرض

نفسي .. ودائماً ما كنت أحث السيد عصاماً على الاهتمام بعلاج ابنه ولكنه يتحجج بأن ابنه عنيد لا يصلح لفعل شيء ولا يحب الأطباء .

- إذاً .. هل تنصحنى باليأس؟

- آسَفٌ لذلك .

- هل يعلم الطبيب جلال بهذا أيضاً؟

- إن الطبيب جلال فضولي جداً .. لقد كان يتحين الفرص للاطلاع على السجل .. لا أعتقد أنه ذو نوايا سيئة ولكنه علم بأنه ملف سري موصى به من قبل العمدة .. لذا أحب التحدي، وغالباً ما يكون ثمن الدخول في عالم مجهول مخفوف بالمخاطر باهظاً، فقام بوضع حياته على المحك .. فليتحمل نتيجة دس أنفه فيما لا يعنيه .

- ولكنه الآن مفقود وعلمت من عائلته المفجوعة أنهم لم يروه بعد الحريق .. هل تملك فكرة عن سبب ذلك، فهو الوحيد الذي كان في العيادة قبل إضرام النار بها؟

- أملك فكرة صغيرة ..

- أحب الأفكار الصغيرة .. قلها لا بأس .

حك الطبيب أنفه المحمر بسبب الزكام .. وتابع هامساً كأنه يخشى أن تضيع الجدران سره :

- فتح الطبيب جلال الملف .. قرأ شيئاً كالذي قرأته، فقد اطلعت على

السجل بعدها وكان كاملاً بلا زيادة أو نقصان، لكنه .. رأى شيئاً لم ينبغ له رؤيته! لا أظن في السجل نفسه، بل رأى شخصاً غريباً اقتحم العيادة في وقت الراحة .. لقد رأى وجه المجرم .. ربما لم يستوعب خطورة الموقف لحظتها لكن المجرم خاف من تبعات هذا الأمر .. أو أن يشهد ضده .. لذلك أشعل العيادة ليحرق المكان كله بما فيه الطبيب!

أطرق جمال هنيهة ثم رفع رأسه بحيرة :

- لماذا تظن ذلك؟
- لقد تنصت أحدهم علي عندما حادثتك في السوق ووعدتك بإطلاعك على السجل .. إنه هو المجرم .. أنا متيقن من ذلك .
- تذكر جمال شعوره بالأعين التي تراقبه ثم خروجه بسرعة من السوق بدون أن يلتفت، إذاً لقد كان الطبيب مراقباً أيضاً! قال الضابط :
- لقد تحدثنا حول موضوع واحد .. من أجل شخص واحد .. أليس كذلك؟
- حمد .. إنه هنا .. لقد كان في مأمن .. حتى رأى وسمع أشخاصاً ينبشون في ماضيه .
- إذاً .. يا سيد صابر، أنت تظن أن حمداً سمعنا وقرر سرقة السجل لإخفاء ما يمكن إخفاؤه؟
- أجل، يبدو أنه كان يظن أن والده قد كتب معلومات عنه .. أو فتح

ملفًا باسمه من دون علمه، لذلك توجه لمحو أي أثر يدل عليه .. ولكن استعجاله أوقعه في ورطة أكبر .. فقد شاهد أحدهم وجهه .. إنه طبيب مسؤول عن مواعيد مرضاه، لم يكن من بينها حمد باسمه الحالي طبعاً .. لذلك آثر قتله والتخلص منه .. ما رأيك سيدي الضابط؟

كان جمال موافقاً لكلام الطبيب وقد فكر بهذا من قبل ولكنه لم يشأ أن يكشف أوراقه بسهولة .

- حسناً .. لسنا واثقين تماماً، وفي الوقت الراهن يجب علي أن أبحث أكثر وأعثر على الشاهد المختفي .. لا تتحدث بشكوكك مع أي شخص آخر.
- بالمناسبة، لقد تذكرت شيئاً .. قبل أن تأتي فتحت السجل لأتحقق منه .. ووجدت هذه .

أخرج الطبيب صابر ورقة من جيب معطفه الأبيض .. كانت ورقة صفراء مرتبة عليها بضع كلمات كتبها صاحبها بسرعة :

إلى الطبيب .. صابر

أسدِ إلي خدمة بإبقاء فمك مغلقاً حتى انتهاء هذا الشهر؟!!

سأراقبك .. لأتحقق من ذلك ..

- هل تظن أنها من المجرم أو من شخص آخر؟!!

هز جمال رأسه حائراً .. ثم استأذن في إبقاء الورقة معه فسلمه الطبيب
إياها، عندما وقف الضابط بالباب قال باهتمام حازم :

- أطع أو امره في الوقت الراهن .. لكيلا يلحقك ما لحق بزميلك .

- وأنت .. ماذا ستفعل؟

- لا تخف سأقوم بعملتي على أكمل وجه .

* * * *



الفصل الرابع والثلاثون

- سيدي .. بماذا تأمرني؟

- كثف المراقبة فقط .

كان ساري يتنفس بصعوبة مستلقياً على فراشه الوثير .. سأل خادمه عن الوقت فأجاب :

- الساعة الآن التاسعة صباحاً .

رفع ساري كفه النحيلة وأدارها ليتحقق من ساعته .. ثم سقطت يده بوهن على سريره .

قلق الخادم على سيده وقرَّب منه قارورة ماء إلا أنه لم يستطع الجلوس .. كان جسده مغطى بالكامل بلحافٍ أبيض .

- سيدي .. هل أنت على ما يرام .. هل تريد أن أستدعي الطبيب؟

- كلا .. فقط .. ان .. ص .. رف .

زادت صحة ساري سوءاً فوجهه غداً شاحباً وشعره الكثيف المحيط بمقدمة رأسه التصق بجبينه بفعل العرق الذي يتصبب منه، وضع يده على جبهته الساخنة وعضَّ على شفته السفلى بألم .. ليمنع أناته من الخروج .

ضغط بقوة أكثر على رأسه متأوهاً .. كانت عيناه شبه مغمضتين، أمر
الخدّام بالانصراف فوراً وهو يفر بحرارة .

تردد الخدّام ثم خرج خائفاً .. فسيده يعاني من حمى شديدة، ويرفض
استدعاء طبيب يشخص حالته .. (رأسه صلب كالبحر!) قال ذلك الخدّام
في نفسه .

قرر الخدّام أن يعود إليه بعد ساعة ليطمئن عليه، وإن تفاقم الأمر فسوف
يحضر الطبيب رغماً عنه .

في تلك الأثناء .. غطى ساري وجهه المنهك بيديه المرتجفتين .. ثم أسدل
جفنيه ليعوم في بحر عميق من السواد ..
ظلام دامس ..

هل هو يحلم .. أم أنه ما زال على أرض الواقع ..؟!
شيئاً فشيئاً ..

بدأت صورة منزل مظلم تتراءى أمام ناظريه ..
كان الهدوء يلف المكان خانقاً أي معلم للحياة .. وحدها حشرات الليل
بصوتها المزعج .. كانت تعزف ترنيمة الوداع ..

مشى ساري بقدمين حافيتين حتى وقف أمام باب ملطخ بالدماء ..
كانت رائحة الموت تنتشر في المنزل المظلم، رأى شظايا من زجاج وملابس
ممزقة ملقاة على الأرض .. لكنه عندما وطئ عليها لم تؤلمه ولم يستطع الشعور
بها، سال الدم من قدميه بغزارة .. مشى في ممر ضيق ينتهي إلى إحدى الغرف،

هناك .. في تلك الغرفة .. سمع صوتاً أنثوياً يناديه برجفة كأنه خرج من
حجرة مجمدة ..

ساري .. أين أنت .. ساري .. لا تتركني هنا!

فتح باب الغرفة التي ينبعث منها الصوت ..

رائحة نتنة في الجو .. وضع يده على أنفه ونظر إلى قدمه التي ما زال الدم
يسيل من جراحها ..

لقد كانت الغرفة مظلمة .. فتح عينيه الكبيرتين إلى أقصى حد فرأى
بصيصاً من ضوء القمر يتسلل من خلال إحدى النوافذ المهشمة ..
اقترب أكثر ..

كان الضوء يسطع على شيء لامع .. لم يعلم ساري ما هو .. لذا عندما
دنا .. رأى امرأة بشعر طويل ينزل عن خصرها .. تجلس على أريكة مخضبة
بالدماء وقد اخترقت ظهرها قطعة زجاج كبيرة وحادة كالسكين لتخرج من
صدرها!

مع ذلك كانت تتكلم بصوت مرتعد ..!

ساري تعال معي ..

مدت يدها الممزقة والتي لم تكن تحمل سوى ثلاثة أصابع مهترئة ..
لتمسك بيده فصرخ مرعوباً ودفعها بقوة ..

رجع القهقري ليهرب من نفس الباب الذي دخل منه .. إلا أنه لم يجد
أثراً للباب!

لقد رأى جداراً أسود .. فقط بلا أي ملامح ..

بدأ ساري يحس بلزوجة الأرض التي سالت فيها دماؤه .. التفت يمناً
ويسرة مرتبكاً ليبحث عن مخرج .. حرك قدميه بصعوبة فتعثر عندما داس
على شيء ما ..

سقط أرضاً وسمع أنه تخرج من المكان الذي داس عليه ..
أرعى سمعه فسمع صوتاً طفولياً :

- هذا أنت .. ساري .. اشتقت إليك .. خذني معك أو تعال معي .. لا
أريد فراقك!

حاول ساري أن يرد لكن صوته اختفى ..

جملة .. كلمة .. حرف واحد على الأقل لم يستطع النطق أبداً ..

أخذت عيناه السوداوان تحديقان في صاحب الصوت .. شهق ساري بهلع
عندما رأى وجهاً مشوهاً .. وعيني طفل ساقطين أرضاً بجواره .. لاحظ أن
الطفل يتسم له بفم خالٍ من الأسنان ومجمرين فارغين !..

ارتعشت أطرافه وأراد الفرار .. بدأت قدمه تثقل شيئاً فشيئاً .. استمر
الطفل والمرأة يناديانه وينتحبان .. أنصت إليهما بشعور مذنب .. لكنه لم يبك ..
لم يملك أية قطرة من الدموع حتى يذرفها!

بدأت دموع داخلية بالانهمار ..

دموع فؤاده .. الذي يعتصر ألماً ويبكي دماً ..

أحس بالدماء تنسكب من شرايين قلبه لتغمر أعضائه حيناً وشوقاً ..
لموتى لن يعودوا ..

أغمض عينيه الجافتين بقوة وظل يتحسس الجدران الصامته حتى وصل
إلى مقبض الباب الذي ظهر من جديد! استجمع قواه وأدار المقبض بيد
مرتجفة ..

خرج إلى الممر الذي عبر سابقاً من خلاله إلى الغرفة ..
ما زال الزجاج ملقى على الأرض .. والظلام يجول ويصول .. بدأت
قوى ساري تنهار مع نزيف قلبه، وعندما فقدت رجلاه طاقتها اعتذرتا عن
حملة ..

فارتطم بالأرض ارتطاماً قوياً ..!

نفذت شظايا الزجاج إلى خده الأيمن وشفته العليا .. ثم هرعت دماء
جسده لتخرج من هذه المنافذ الجديدة ..

وضع كفه اليمنى .. ثم اليسرى على الأرض .. رافعاً الجزء العلوي من
جسده بصعوبة وقام بجرّ أطرافه السفلى ..

دفع نفسه إلى الأمام .. لكن شعره الطويل انقلب على وجهه بعد
سقوطه .. لم تكن لديه فرصة ليرفع شعره عن وجهه .. فأخذت خصلات
شعره الأمامية اللزجة تقطر دماً ..

بدأت حاسة بصره في الانحسار .. لكنه قاوم كل هذا التعب والألم
ليزحف على الأرضية المتسخة حتى خرج من المنزل ..

حاول أن يصم أذنيه عن استغاثات الجثتين في المنزل الدموي .. فلم يفلح
في ذلك لأنها كانت مرتفعة قطعت نياط قلبه لتشق كبد السماء المظلمة ..

لماذا .. يحدث هذا معي .. الآن؟!

صاح بأعلى صوته ..

نظر إلى الحديقة التي لم تكن فيها سوى ورود حمراء ذابلة .. وشظايا زجاج

متصلة ببعض قطع الحديد .. كان الدخان خانقاً يعتم الرؤية عن مشاهدة أي شيء آخر ..

وصل أخيراً إلى الباب الخارجي .. يمشي على كفيه الجريحتين .. ساحباً جسده البالي وقدميه خلفه على الأرض، حاول أن يمد يده ليمسك بالمقبض .. لكن يداً بيضاء ساعدته وفتحت له الباب ليرى العالم الخارجي !..

رفع عينيه بمشقة .. حذاء جلدي أنيق .. بنطال أسود وسترة صوفية زرقاء .. لم يستطع رؤية وجه الشخص الذي ساعده لأن رقبتة خائنه فسقط مشلولاً تماماً .. والدماء تنزف من فمه وأذنيه ..

أدرك أنها النهاية ..

هل هذا هو الموت؟ لم يكن يُريده قبل رؤية الشخص الذي ساعده على الأقل .. إنه يبكي بلا دمع .. وينزف بلا تحثر .. أحس بوحدة قاتلة .. بخذلان قاس .. حتى جسده خذله ..

دعا لنفسه بالرحمة .. وأغمض عينيه ..

ثم سمع صوتاً فجأة!

صوتاً يألفه .. بل أكثر من ذلك .. صوتاً قديماً عشقه ساري من أعماق قلبه! إنه صوت رجولي عميق كميّاه المحيط .. قال صاحب الصوت بتشجيع:

- ساري .. هل تسمعي؟!!

قف على قدميك عزيزي .. وتابع مسيرك لقد كنت دائماً قوياً لا تخشى شيئاً ..

لا تلم نفسك على ذنب لم تقترفه .. سأبقى أقدرك وأثق بك دائماً ..

انحنى الرجل .. وجلس على الأرض محاذياً له ..

كان ساري يتمنى رؤية وجه محدثه قبل أن تودّع روحه جسده الذي
خلا من الحياة لكن شعره غطى عينيه بلوّم .. استغل فرجات بسيطة بين
خصلات شعره .. عله يتعرف على صاحب الصوت ..

حينئذ أحس الرجل بمعاناة ساري في سبيل التعرف عليه .. لذا أمسك
بالجسد النحيل ووضع في حجره .. ثم رفع رأس ساري من الخلف بيده
اليسرى وتمرر أصابع يمينه على وجهه بحنان ليزيح شعره عن عينيه ..

فتح ساري عينيه لينظر إلى الرجل ..

رأى شيئاً غير مألوف ..

إن جسد الرجل ينتهي عند رقبته .. لم يكن هناك رأس ..

لقد كان الصوت لوالده!

لكن من أين انبعث الصوت ..

صرخ بأعلى طبقة صوت يمتلكها .. ثم أحس بألم في صدره كأن عظامه
تتكسر الواحدة تلو الأخرى .. صاح ثانية وثالثة .. حتى بح صوته .. ثم
فارق الحياة ..!

* * * *



الفصل الخامس والثلاثون

كان الخادم يرتب بعض الأوراق على مكتب صغير موجود في قاعة الاستقبال .. ذهب بعدها إلى العلية ليراجع مهام اليوم عنده .. نظر إلى الساعة التي تشير إلى العاشرة صباحاً ..

لقد نسي أمر سيده!

احترار في الذهاب إليه .. فربما ينهره لأنه قد أمره سابقاً بالانصراف ..

كانت أعمال اليوم منهكة بالنسبة للخادم، فرك كتفه الأيمن المتصلب بيده اليسرى .. ثم سمع صرخة مفاجئة تنبعث من الطابق الثالث!

فزح الخادم وطار إلى غرفة سيده .. فتحها على الفور ..

ووجد سيده .. يجلس واضعاً كفيه حول رأسه .. كان منظره مثيراً للقلق .. شعر مبعثر وعينان محمرتان و صدره يعلو ويهبط .. تصبب العرق منه بغزارة فأخذ يمسح وجهه بمناديل قطنية وهو يتمتم بكلمات لم يفهمها الخادم ..

وقف الخادم قلقاً :

- هل أنت بخير سيدي؟

رأى أن عيني ساري تدوران في الغرفة كأنه يبحث عن أحد! لم يستمع للخادم بل .. ترك ظهره يسقط على السرير بيأس .. وظل ينظر إلى سقف الغرفة ..

عَنفه الخادم :

- سأحضر الطبيب حالاً .. إن صحتك تزداد سوءاً ..

سمع ساري هذه الجملة ورد متنهداً بألم :

- لا .. أحذرك ..

- وهل تظني سأتبع أوامرك، إنك تنتحر ببطء ..

- أنت .. لا تفهم .. لا تستطيع أن تفهم .. أبداً .. لذا دعني وشأني واهتم بشؤونك الخاصة .

- لا تتصرف بأنانية .

- لماذا تهتم بشأني أيها الحقير؟ توقف عن إزعاجي .. واخرج حالاً .

- المَعذرة سيدي .. لن أطيعك في هذا .

خرج الخادم غاضباً من الغرفة وترك الباب مفتوحاً .. أحس ساري بقشعريرة تسري في جسده لذا لف اللحاف حول جسده بإحكام كالمومياء .. وظل متيقظاً .. لا يريد للنوم أن يعود إليه، إنه يخشاه كثيراً!

في ذلك الوقت كان الخادم يجري بسرعة قاصداً عيادة الطبيب صابراً،

مرّ كالبرق أمام ناظري جمال الذي كان يجلس بعد انتهاء مهامه الصباحية في السوق الشعبي مع مجموعة الشباب .. أحس جمال بأن خطباً ما قد حدث .. لذا ودع رفقته وتتبع الخادم بخفية كي لا يلحظه ..

بدأت السحب تتجمع في السماء .. وقد خشي جمال أن تمطر وهو لم يقتنِ مظلة بعد .

وبالفعل ما هي إلا لحظات حتى سألت عيون السماء فأمطرت بشدة .. اختبأ خلف إحدى الأشجار .. ورأى الطبيب صابراً يخرج للحديث مع الخادم .. فتح الطبيب فمه باهتمام ثم دخل عيادته مرة أخرى .. لاحظ جمال أن الخادم يهز ركبته بتوتر ويضع يده فوق رأسه كي لا يتبلل .

خرج الطبيب ومعه حقيبة كبيرة وتبع الخادم ..

جرى الاثنان بسرعة .. فخمن جمال أن أمراً طارئاً ألمّ بسيد الخادم أي بساري!

أحس بالفضول لكنه منع نفسه من متابعتهم والتدخل في شؤونهم لذا ذهب ليشتري مظلة وعاد إلى منزله ليبدل ببزته السوداء المبتلة الأخرى ..

رأى أن عودته إلى المنزل ضرورية لتدوين لقاءات اليوم المثيرة على الورق، استغرق منه الأمر ساعة ونصف الساعة فأحس بإبهامه يتخدر محمراً .. لذا توقف عن الكتابة وأخذ غفوة قصيرة .

وبعد صلاة الظهر أتاه الإمام عبد الغفور، كان رجلاً في الخمسين من عمره، أحذب قليلاً ذا وجه طويل ويرتدي ثوباً أبيض قد وضع فوقه معطفاً باللون الرمادي الباهت .. بدا متوتراً بعض الشيء فوقف جمال باحترام وسلم عليه ثم مسد الإمام لحيته وقال :

- كيف حالك عزيزي الضابط؟ أحببت سؤالك عن حال زميلكما الطويل

..

وتوقف عند اسمه الذي لم يكن يعرفه .. ليكمل جمال :

- تقصد الضابط ساري؟ ماذا بشأنه؟

- من عادتي أنا وأخي إمام المسجد الآخر أن نسأل عن بعض المصلين إذا ما افتقدنا وجودهم بيننا والضابط ساري لم نره منذ فترة .. وقبل قليل رأيت رجلاً غريباً عن القرية بشعر فضي وأظنه صديقه يجري مسرعاً إلى العيادة ليأخذ له بعض الأدوية .

- هكذا إذاً .. لكن يا سيدي أنا أيضاً لا أعلم شيئاً بأمره، كيف تريدني أن أخدمك؟

- بعد ساعة من الآن .. أرجو أن تقابلني أمام محل الدهان حسان .. فهو محل قريب وواضح .. ثم تنطلق معي إلى منزله لأزوره فأنا لا أعرف الطريق إليه .. هل يتسع وقتك لهذا؟

لم يجد جمال عذراً للتملص من طلب الإمام لذلك وافق على مضمض ..
ثم خرج من المسجد ..

* * * *



الفصل السادس والثلاثون

كانت السماء قد توقفت أمطارها .. فارتعد جمال من الرياح الباردة التي هبت على القرية فجأة .. وأحس بأنفه يتجمد .. فغطاه بوشاح صوفي أبيض وأدخل يديه في جيبه معطف العمل الأسود ..

توقف عند مدرسة الأولاد الابتدائية وقد قفزت في ذهنه فكرة مفاجئة .. قادته إلى مكتب مدير المدرسة!

كان رجلاً محترماً أسمر ذا شارب طويل وبنية صلبة وقد زم فمه لكي يكون أكثر صلابة .. عرض المشروبات الساخنة على جمال .. لكنه رفض إذ إن النعناع ليس ضمن القائمة ..

تحدث مباشرة مع الرجل العريض الرسمي لأنه لم يرد إضاعة الوقت :

- سيدي المدير .. كيف حال طلابكم .. أمل أن تكون الأوضاع مستقرة ..

تنهد المدير وتحدث بصدق :

- إنها مسؤولية عظيمة .. عندما يُودع الآباء فلذات أكبادهم وثمار قلوبهم بين يديك يومياً لعدة ساعات، أريد أن أخدمهم وأوفر لهم بيئة تعليمية مناسبة حتى يخدموا أهاليهم ومجتمعهم وينهضوا بأنفسهم .. لكنني

أعاني مع بعض المعلمين العديمي المسؤولية، أنا أحمد الله أنهم قلة ..
ولكن بعضهم يظن أن التعليم أن تثرثر بما حفظته البارحة وتعاقب من لم
يحفظ مئات الكلمات التي قلتها خلال عدة دقائق!..!

- صحيح .. هذا مخيب للآمال .

- إن جيل اليوم يختلف عن جيلنا .. فهم ميالون للملهيات واللعب .. ولا
توجد كلمة (جدية) في قاموسهم .

- وماذا قررت بشأن ذلك؟

- أن أعاملهم وفق طبيعتهم الحيوية، كثيراً ما اجتمعت بالمعلمين وحشنتهم
على تعليم الأطفال بطريقة اللعب أحياناً .

- هل طبقوا ذلك؟

- بعضهم طبقه وبعضهم لم يستطع استيعاب الأمر خصوصاً كبار السن
منهم .. أتذكر في السنة الماضية كان أحد المعلمين ذا عقل غابر يطلب
مني أن أسمح له بمعاقة الطلاب بدنياً بالعصي والمساطر الخشبية! بالله
عليك سيدي الضابط فكر معي .. كيف أصفع وجه طفل بريء لكي
أعلمه أن الدجاجة تبيض ولا تلد! إن العنف لا يولد إلا العنف ..
لذلك أجب على ذاك المعلم بأني سأوافق بشرط واحد؟

- وما هو؟

- أن أعاقب المعلم إذا تأخر أو ارتكب خطأ بنفس الطريقة .. فكلاهما
عندي بمنزلة واحدة!..!

- هل وافق؟
- بالطبع لا، فهو يريد ليدته أن تمتد لإيذاء أجساد الآخرين ومشاعرهم لكنه لا يريد لأيديهم أن تصل إليه!..
إن التعامل مع هؤلاء أمر متعب حقاً..
- والطلاب..؟ وأسرههم؟
- في مدرستنا أفذاذ ذوو عقليات مبدعة لذلك نشجع أهاليهم على إرسالهم إلى خارج القرية حتى يكملوا تعليمهم ويحققوا طموحاتهم، وللأسف فالعكس موجود أيضاً.. أسر مهملة.. وطلاب كسالى متهاونون في الحضور.
- على ذكر المتهاونين في الحضور..
- قرر جمال أن يسأل بشكل غير مباشر لذا أكمل :
- سمعت أن بعض الآباء قديماً لا يحرصون على تعليم أبنائهم فهم يأخذون الكتب لتعليمهم في المنزل ثم جلبهم للمدرسة في يوم الاختبار.. هل هذا صحيح؟
- في السابق صحيح.. لكن الآن لا.. فقد طلبت من سيدي العمدة أن يمنع منح الشهادات للمتهاونين في الحضور من غير عذر مقبول.
- حسنٌ ما فعلت.. إذاً والذين أخذوا شهاداتهم بعد الدراسة المنزلية.. هل استفادوا منها؟

- هم قلة .. أربعة منهم خرجوا إلى مدن متطورة .. وثمانية اشتغلوا مع أهاليهم في مهن وحرف يدوية .. وخمسة عاطلون عن العمل وواحد منهم لا أعرف ماذا حصل له ..

- لماذا؟

- دعني أتذكر .. إنه ابن الحداد عصام .. فتى نكرة .. غريب الأطوار! كان يجلس وحده ويرفض التقرب منه .. لقد كان عصبياً متجهماً .. علاقته سيئة مع معلميه، اشتكى منه بعض مدرسيه بسبب وقاحته .. مع أنهم لم يحتكوا به إلا في الاختبارات .. إلا أنه سليط اللسان جارح ..

لذلك يكرهه زملاؤه ولا يوجد له أصدقاء ..

- صحته كيف كانت؟

- صحته؟! بالتفكير في ذلك .. أذكر أننا نقلناه إلى منزله في أحد الأيام عندما انهار فجأة .. كان جسده معلماً بالحروق، خفت بشأنها فسألت والده الذي طمأنني على أن ابنه يجب العمل كوالده في الحدادة لكنه أساء استخدام بعض الأدوات أثناء غيابه ..

- آه .. مسكين .. أتمنى أن يكون قد عاش بين أقاربه بعد وفاة والده حياة كريمة .

- آمل ذلك ..

* * * *



الفصل السابع والثلاثون

بعد خمس عشرة دقيقة كان جمال ينتظر الإمام ليدله على منزل ساري ..
أتى الإمام في ميعاده حاملاً معه طبقاً مغطى!

- ما هذا؟

ضحك الإمام وقال :

- عادة في قرينتنا عندما نزور مريضاً نجلب له بعض الأطعمة المناسبة .. قد لا تكون مستساغة في الأيام العادية لكن في حالة المرض فالأولى البحث عن المفيد وليس اللذيذ .

وافقه جمال وفكر بأنها نقطة ثانية جميلة تضاف لقرينتهم، ظل الاثنان يتحدثان .. حتى وصلا إلى منزل ساري، قرع الإمام الجرس .. ففتح الخادم باب المنزل برشاقة وتناول الطبق من يد الإمام ثم أمطره بعبارات الشكر والامتنان ودعاه إلى الدخول ..

دخل الإمام يقوده الخادم حتى أوصله إلى الصالة في الطابق الأرضي، جلس الزائر فاستأذنه الخادم للخروج قليلاً ريثما يطمئن على سيده ..

عندما خرج من الغرفة لم يصعد إلى ساري بل أسرع إلى الباب الخارجي ..
كان جمال ما زال واقفاً بالخارج وحده! قدم إليه الخادم وقال بألية :

- مرحباً سيدي الضابط هل تود الدخول؟
- لا .. شكراً لك، يعجبني الوقوف في هذا المكان .
- نظر الخادم إليه من فوق نظارته الزجاجية وقال متسائلاً :
- سيدي .. لا تقل لي إنك تظن أن يفعل السيد ساري بالإمام مثل ما فعله ببائع الحليب سليم؟
- كان هذا ما يخشاه جمال فعلاً لذا بقي واقفاً لمراقبة المنزل حتى يطمئن على خروج الإمام سالماً .. رد مكابراً :
- إنه شخص مشبوه، قد يفعل ذلك ..
- مستحيل !
- رفع جمال حاجبيه بتعجب من ثقة الخادم بسيده رغم أنه شاهد بأم عينيه الحادثة :
- لماذا أنت واثق هكذا؟
- لأنني أعرف سيدي .. ما كان ليعتدي على أحدٍ بلا سبب ..
- منذ متى تعرفه؟
- جفل الخادم من السؤال فقد أدرك أنّ لسانه كاد يزل .. وأجاب بكذب مفضوح :
- هـ .. هنا .. في القرية ..
- وما هو سبب ضربه لسليم إذاً؟
- لقد ضربه بسبب التعاطف !
- هرب الخادم خوفاً من وابل الأسئلة فقد خشي أن يجيب بما يُغضب سيده

إن علم، فعاد إلى الإمام واصطحبه إلى غرفة ساري في الطابق الثالث ثم قرع الباب، كان ضابط النخبة العنيد قد أغلق الباب بإحكام حتى لا يستقبل الطبيب .. وبالفعل عاد الطبيب صابر الذي أحضره الخادم قبل قليل بخيبة أمل ..

قرع الخادم مرة ثانية .. لم يلقَ أي جواب!

تكلم الإمام بصوت مسموع :

- أعتذر يا سيدي الضابط عن إزعاجك .. لقد جئت لزيارتك، ولكن يبدو أنك مت ..

قاطعته صوت إدارة المفتاح ..

فتح ساري الباب .. وتنحى جانبا ثم قال باقتضاب ووجه عابس :

- تفضل ..

دُهِش الخادم من رفضه استقبال الطبيب والآن يفتح الباب بنفسه للإمام! كانت غرفة نومه كبيرة وقد جلب الخادم كرسيًا للإمام بينما ظل واقفاً بجانبه، جلس ساري على سريره مرتدياً ثوباً رمادياً باهتاً ليجعله أقرب للشبح من كونه إنساناً ..

لاحظ الإمام حالة الضابط البائسة فواساه ودعا له، كان ساري ينظر إلى الأرض مستمعاً ثم قال للإمام :

- يبدو أنك مختار في أمر ما، إن صح تخميني فإنك تريد سؤالاً عن ذلك الذي أبرحته ضرباً .. هل أنا مُحق؟

صمت الإمام بتحفظ .. لدقيقة وقال وقد قرب كرسيه من سرير الضابط:

- أجل .. وهل يعد هذا نوعاً من التأديب؟

- ربما ..

- أظن أنك فعلت ذلك لأجله .. فلو رفعت أمر سليم عندما نشر كلاماً
بغيضاً بل خطيراً عنك إلى شرطة العاصمة .. فسيقام عليه الحد وسيجسد
ولا تقبل شهادته أبداً .. وبما أنك ضابط للدولة فيعتبر هذا اعتداء
على منسوبيها وسيعاقب عقاباً شديداً .. لذلك عفوت عنه بطريقة
تحذيرية تجبره على السكوت ليس فيما يخصك فقط بل في أعراض الناس
مستقبلاً.. أليس كذلك!؟

- كل كلامك صحيح ما عدا واحدة؟

- ما هي؟

- لم أفعل ذلك من أجله .. بل من أجل أمر آخر ..

- لكنه ما زال يعد نوعاً من العفو من وجهة نظرك ولو أنني كنت أفضل أن
تعفو عنه بلا ضرب ..

- لا بد أن أوقفه عند حده .. وأنا متيقن أنه سيخشى من تكرارها ثانية .

- أمل ذلك .. وثقتي بضابط نزيه مثلك لن تتغير .

صمت ساري مطأطأ رأسه بإنهاك ..

رأى الإمام أن زيارة المريض يجب أن تكون خفيفة .. لذلك بعد عشر
دقائق من مجيئه .. رحل واصطحبه جمال الذي كان قد ظل كالتمثال منتصباً
خارج المنزل!..!

* * * *



الفصل الثامن والثلاثون

رحبوا معي بالضابط المحبوب : هارون ..

صاح المدير بهذه المقدمة وأشبع حرف الواو مطاً بحماس شديد .

كان يوم الخميس هو موعد تسليم الشهادات لمدرسة البنين الابتدائية ويقام في هذا اليوم عادة حفل تكريم لكل المجتهدين من معلمين وطلاب خلال الفصل الدراسي الأول وحفل مثله في نهاية العام، فكر المدير باستضافة هارون المحبوب ليلقي كلمة عن حسن التعامل مع الغير وكيفية كسب قلوب الناس لما لاحظته عليه من سيرة حسنة .

كانت ساحة المدرسة التي أُقيم فيها الاحتفال بدائية جداً ومكشوفة من الأعلى .. فمكبر الصوت يخرج أزيزاً مزعجاً بين الفينة والأخرى وشرائط الزينة التي غص بها المكان تشتت الانتباه .. ظل الطلاب متربعين على الأرض كأنهم متسولون بينما يجلس المدير والمعلمون على كراسٍ بسيطة جداً!

أمسك هارون بالمكبر وشكر المدير على استضافته ثم تحدث بحب إلى

الطلاب :

- أحباب قلبي .. صناع المستقبل .. كيف هي أحلامكم التي رسمتموها لأنفسكم؟ هل ترون شكلها؟ هل تحسون بطعمها؟ هل تستطيعون

وصفها لغيركم؟ أجل .. جسدوها وعيشوا معها حتى لا تضع مع مرور الوقت بين زحام الذاكرة .. عيشوا لأجل أن تنفعوا أنفسكم .. أسركم .. مجتمعكم .. العالم بأسره يرحب بكم فأثبتوا له قدرتك الباهرة على الصمود ..

شرع هارون بعد هذه المقدمة في تقديم وصايا ثمينة في التعامل مع الآخرين فصفق له الأطفال والمعلمون بحماسة وإعجاب، ثم بدأت فقرات الحفل .. كانت روتينية كباقي الاحتفالات .. لكن ما لفت نظر هارون أن الأرجوزة القديمة جداً التي تدرسها كل مدارس بلاد جهمارا بما فيها القرى التي لم تنضم لهم إلى الآن كالعنقاء .. ما زالت الأجيال تتوارثها .. فوقف صف من الطلبة وأنشدوا :

خلف أقواس الطبيعة تحت سماوات بديعة

روحنا عاشت هناك كبذرة تنمو سريعة

انتبه هارون إلى نفسه يترنم بلحنها ويحرك سبابته مع حركات الأطفال في الأنشودة .. فضحك من نفسه على هذه الروح الطفولية التي خرجت فجأة .

عندما انتهى الاحتفال تم توزيع الهدايا البسيطة والحلويات الملونة على الأطفال .. انصرف الجميع تحفهم السعادة بمن فيهم الضابط المحبوب، كان الوقت الرابعة عصراً .. لذا قرر عمل جولة ترويحية يستنشق فيها عبق أزهار هذه القرية ويختلي بنفسه قليلاً ..

لكنه لم يستطع .. فقد أتى إليه الأطفال بكرة ليلعب معهم، حاول التملص منهم إلا أنهم أمسكوا بيده مترجين بالبحاح .. هز رأسه موافقاً فصرخ الأطفال بمرح، لعب معهم بنشاط وانتصر في جولات وخسر في أخرى .. لم يكن يتقن هذه اللعبة أبداً ..

وعند أذان المغرب .. التقط أنفاسه وشرب من علبة الماء التي اشتراها أثناء اللعب .. ثم حث الأطفال على الصلاة ودخل المسجد ..

رأى بعد الصلاة جمالاً يحدث الإمام .. ثم يخرج مفكرته ويكتب عليها بعض الملاحظات .. كان جمال مشغولاً جداً يصطدم بالمصلين عند الخروج من باب المسجد وعينه على المفكرة ..

شيءٌ مثيرٌ ذاك الذي أسر اهتمامه!

فكر هارون بأنه سيغضب من جمال إن لم يخبره غداً في اجتماعهم عما يشغل باله ..

ذهب بعدها ليشتري بعض حاجيات المنزل .. وبعض الأغذية التي تقيه من لسعات البرد الذي هاجم القرية منذ عدة أيام، أعطى البائع النقود ليصرفها لكنه انتظر طويلاً حتى يعيد إليه الباقي، وصل إلى مسامعه صوت الشباب الذين رأهم مع جمال في وقت سابق .. يمازحون صديقهم فادي

الذي بقي على زفافه يومان .. كان يتسم بحرج وكانت ضحكاتهم تعلو في الأرجاء .. سمع صوتاً محطماً يقول زاجراً :

- لقد قلت لك انتهت .. لن أفتح حلقتي مرة أخرى ..!

جال هارون ببصره ليجد سليماً يضع على جبهته وخده لواصق طبية .. وقد ارتدى بنظارة أخضر وقميصاً أبيضاً بأكمام طويلة ليخفي آثار الضرب التي ظهرت معاندة على ظاهر كفيه ..

وضع هارون يده على فمه وتمتم :

- سحقاً .. ماذا فعل ذاك الانطوائي المتوحش بهذا الشاب ..!؟

انصرف الطفل الذي طلب من سليم فتح حلقة القصص مرة أخرى حزيناً بعدما نهره بصوت عالٍ ..

فلامه ثامر والبقية .. رق قلب هارون على بائع الحليب الذي غدا كطير منتوف كسير الجناح ..

إذا فقد عزف عن نشر القصص والأخبار بعد كل ما سال منه من الدماء!
يبدو هذا جيداً لبقية السكان ..

فقد أراح البلاد والعباد من لسانه اللاذع ..

* * * *



الفصل التاسع والثلاثون

مر هارون على منزل جمال الذي خرج بلباس النوم الأبيض وعينين
ناعستين .. قال هارون بتشجيع :

- هيا ارتدِ بزة العمل ولنخرج معاً فاليوم جمعة .. هناك العديد من الأمور
أود إخبارك بها ..

أطاعه جمال ببرود وقد كانت الكأبة تخيم على وجهه، لم يستطع الابتسام
أبداً ..

مشى الاثنان في الطرقات حتى وصلا إلى الشاطئ، كان هارون متحمساً
بينما لم ينطق صديقه بشيء ..

.. حكى له هارون أمر حارس العمدة وسرقة العاطلين وعن تهديد
ساري غير المباشر له عند خروجه من قصر العمدة وعن اختفاء الطبيب
جلال عندما ذهب للتحقيق معه .. وأخيراً عن استضافته في المدرسة ..

استمع جمال بوجه فارغ من أي ملامح! ثم نظر إلى هارون وأمسك يده
اليمنى بقوة .. كان جمال لا يثق بأحد في القرية كثقته بصديقه، ظل صامتاً
وحزيناً وفجأة سأل هارون بنبرة رتيبة كشيخ مودع :

- هل تود أن تأتي معي ..؟
- آتي معك؟! وأين تنوي الذهاب؟ بقي من الشهر خمسة عشر يوماً على انتهاء مهمتنا أو أربعة عشر إن كان الشهر ناقصاً ..
- لن أخرج .. فقط سأذهب بعيداً هنا ..
- حك هارون جبينه وأجاب بحيرة :
- أنت غريب تماماً اليوم ..
- وقف هارون بينما بقي جمال جالساً .. كان الاثنان ينظران إلى البحر الذي ألبسته خيوط الشمس حللاً ذهبية فاتنة ..
- أنصت جمال إلى أصوات الصيادين ورأى الشباك تُسحب والصنارات تُرمى .. فجأة وضع هارون يده ليحجب الرؤية عن جمال .. وقال :
- لقد جمعنا سنوات التدريب وتحدثنا بكل شيء لم تكن لتخفي عني صغيرة ولا كبيرة .. لماذا إذاً أثرت فيك القرية هذا التأثير السلبي؟ أصبحت عصبي المزاج ملولاً غريب الأطوار .. افتح قلبك وتحدث إلي كما كنت تفعل سابقاً .. هل هناك ما أستطيع مساعدتك به؟
- أنا لا أستطيع فعل شيء .. إنني فاشل كبير ..
- جمال ..! ما هذا .. هل استسلمت من المهمة الأولى ..؟
- لا .. لكنني أخبرك بما أشعر به الآن .. أنت طلبت مني ذلك ..
- والسبب؟!!

هز رأسه رافضاً الحديث وأخذ يرسم خربشات على رمال الشاطئ بعود خشبي صغير .. جلس هارون إلى جانبه بصمت .. كان جمال منهاراً تماماً .. لأول مرة يراه صديقه هكذا، حاول أن يحمله على الحديث .. بلا فائدة .. انزعج هارون جداً وغير مجرى الحديث :

- لقد أعددتُ مشروباً لساري .. فقد علمت أنه مصاب بالحمى .. وكنت قد تعلمت سابقاً مما تصنعه جدتي بخليط من الأعشاب عند مرض أفراد العائلة ..

- أعطه إذاً ..

- ألا تريد الذهاب معي؟

- لا .. أريد أن أبقى هنا .

حمل هارون الوعاء والتفت إلى الورا .. بما أن منزل ساري مطل على الشاطئ إذاً بضع خطوات تكفي للوصول إليه، رن الجرس فأتى الخادم لاستقباله .. أخبره أن سيده مريض جداً وقد لا يحضر اجتماع الليلة لذا فإن الخادم سيحضر بدلاً عنه!

استغرب هارون هذا لكنه لم يمانع .. علَّ الخادم ليستفزَّ جمالاً فيخرج ما بجعبته ..!

قال الخادم بحذر :

- ما الذي بيدك سيدي؟

- إنه مشروب عشبي .. مفيد للحمى .

- شكراً لك على مجيئك للاطمئنان .

أخذ الوعاء وودع هارون ثم أغلق الباب، كان ساري مستلقياً في الحديقة يقرأ كتاباً وقد استفسر عما يحمله الخادم .. وعندما ناول سيده الوعاء .. أمسكه ساري من غير أن ينظر إلى ما بداخله وذهب إلى سلة القمامة ثم سكب فيها!

لقد أفرغ كل محتوياته!

عاد إلى صمته ممسكاً برأسه بألم ثم أكمل القراءة ..

بالطبع لم ير هارون ما حل بوعائه لأن الباب مغلق .. لكنه سمع صوت شيء يسكب والخادم يسأل أحداً عن السبب دون أن يلقي جواباً .. لذلك تيقن بأن ساري سكب بدون أن يشرب قطرة واحدة!

فعاد إلى حيث يجلس جمال وأخبره بما حدث .. فردَّ بصوت ميت كأنه كان يعلم عن هذا قبل حدوثه :

- وغد لئيم .. هل توقعت منه غير ذلك؟

صمت هارون بينما جلس جمال القرفصاء متفوقاً على نفسه وشعر في داخله أن لذاك سبباً .. بقيت جمعتان غير هذه .. كيف ستمران بسلام حتى يعود إلى العاصمة، كان جل تفكير جمال منصّباً في القبض على حمد .. وتقديم

التقارير ثم العودة إلى منزله، لا بد أن عائلته تغيرت .. أخته وأخوه التوءمان وصحة والديه .. بدأ قلق جمال يظهر على وجهه ثم نهض فجأة، أمسك هارون يده بقوة مانعاً إياه من الذهاب!

- أخبرني .. بماذا تفكر .. لا تتهور وتقع في المشكلات .

دفع جمال يد هارون بقوة وقال غاضباً :

- أنا ضابط متمكن .. لا تخاطبني وكأنك تخاطب طفلاً!

أعاد هارون يده بخيبة وقال :

- لك ذلك .. إذاً لا تنسَ حضور الاجتماع في منزلي الساعة الثامنة وسيحضر الخادم بدلاً عن سيده ..

- لا يهمني أمرهما ..

كان جمال يخفي كل استنتاجاته بحذر .. لقد أصبح مشوشاً لا يستطيع البوح إلى صديقه أبداً، أحس بأنه تغير فعلاً .. لكنه فكر بأن هذه هي طبيعة الإنسان .. لا يمكنه البقاء على وتيرة واحدة .

* * * *

الفصل الأربعون



عندما تحقق جمال من رحيل صديقه تماماً .. قفز بسرعة ليصل إلى بيت ساري، ظلت الأفكار تلعب في عقله :

كان يشتمه في سره .. يعلم أنه يخفي الكثير .. وأنه يملك فكرة عن الطفل حمد لكنه متكبر جداً بحيث لا يستطيع تبادل أي معلومة مع المستجدين! شعر بالهوة بينه وبين طبقة النخبة .. وبأن حجمه يصغر ويصغر .. ثم توقف فجأة .. كلا لا بد أن هذا ما أراد له ساري أن يفكر به .. تبّاً لذلك القط الخبيث ..

وفي داخل حديقة ساري كان الخادم يخاطب سيده بشدة :

- هل تعلم أنك تعطلني عن العمل؟
- جلس ساري على الكرسي العريض ثم أغلق الكتاب ورد بلا مبالاة :
- افتح الباب واخرج بكل بساطة .. ولا ترني وجهك السقيم مرة أخرى .. أنا لم أطلب وجودك أصلاً ..
- وجودي كان لعمل معين.

- كاذب .. أنت ملتصق بي كالطحالب السامة ..

- تكلم معي بأدب.

كان ساري متعباً جداً ويحس بالحرارة تنبعث من جسده كأنه جمره ملتهبة
وآخر ما أراده هو الشجار لذلك رغب بإنهاء الجدل بسرعة .. فوضع كل ما
تبقى من قوته في يده وقذف الخادم بالكتاب !..

حاول الخادم تجنبه ولكنه أصاب ذراعه .. فتألم بشدة واندفع إلى ساري
لينتقم منه ولكن قبل أن يصل إليه .. سقط الأخير أرضاً مغشياً عليه!
فقد غلبته الحمى ..

وقف الخادم قريباً من سيده وتذمر باستياء :

- يتصرف كالأطفال في وقت شديد الخطورة .. العمل معه يعتبر من أقصى
درجات التعذيب ..

انحنى إلى الجسد النحيل الملقى على الأرض، أسند ظهر ساري إليه ثم
وضع الخادم يديه على صدر سيده يجره ببطء حتى حمله ووضع على الكرسي
نفسه ثم انطلق إلى الخارج ..

فتح الباب ليصطدم بجمال الذي كان مصدوماً .. فقد سمع حوارهما
كاملاً!

فقال له الخادم وهو يركض ذاهباً :

- من فضلك أيها الضابط .. ابق بجانب سيدي واحرسه حتى أحضر
الطبيب !

اختفى كالسراب بين الناس تاركاً جمالاً خلفه يقف بذهول !..

دخل جمال إلى الحديقة .. فوجد ساري يرتدي قميصاً أبيض صيفياً
وبنطالاً أسود اللون متمدداً على كرسي خشبي فاقداً للوعي ..! اقترب منه
متسائلاً : ما الذي يخشاه الخادم على سيده؟ يحرسه من من؟ هل يقصدني
بحديثه .. هل كان يعني لقد رأيتك قريباً منه لذلك وجهت لك تحذيراً بأن
أي مكروه يصيبه ستدفع أنت الثمن؟

كانت أفكار شيطانية تأكل دماغ جمال فنظر إلى ساري .. لقد بدا له ضعيفاً
جداً .. كأنه شخص آخر، لاحظ انتفاخاً بسيطاً عند كعب قدمه .. مشى
بخطوات صامتة حتى لا يوقظه .. فهو لن يحرسه مجاناً! لا بد من منفعة
يجنيها منه .. خاف من عودة الخادم بسرعة لذلك امتدت أصابع يده عند
قدم ساري .. رفع طرف البنطال قليلاً ليظهر حزام أسود محيط بساقه يحمل
مسدساً صغيراً محشوًّا! .. لقد كان مثبتاً بقوة .. لذلك عدل جمال عن فكرة
أخذه معه ..

ابتعد قليلاً وعاد عند رأسه .. لقد أحس بشيء ناقص .. زي الشرطة
الأسود .. لا لم يكن هو، إنه ذاك الشيء الذي يحمله معه دائماً .. نعم. المظلة
الزرقاء الداكنة .. تلفت يمناً ويسرة حتى وجدها تستند بخيلاء إلى حوض
زهور كبير الحجم ..

مشى بهدوء متلفتاً إلى الخلف ليطمئن إلى أن ساري لم يره .. أمسك بالمظلة
فبرزت عروق يده بسبب ثقلها، حل رباطها .. لم يكن متوقفاً ما بداخلها ..!
على إثر فتحها تساقط مسدسان محشووان أيضاً .. وحزمة رصاص وكاتم
صوت وقيود حديدية لليدين وبخاخ مخدر ومسدس كهربائي وسكين
حادة!..!

كانت أحجامها صغيرة بحيث استوعبتها المظلة ..

التفت إلى ساري .. ما زال فاقداً للوعي لذا فكر بأنه لو سرق المظلة فسيئته له الخادم على الفور .. فأعاد كل شيء إلى مكانه، لكنه سمح لنفسه بأخذ مسدس وترك الآخر .

أسند المظلة وعاد خلسة إلى مكان وقوفه .. ينظر في الأرجاء عله يرى شخصاً متربصاً لكنه لم يرَ شيئاً .. باغته دخول الخادم ومعه الطبيب صابر الذي وضع مقياس الحرارة في فم ساري وعاتب الخادم :

- إن درجة حرارته مرتفعة جداً قد يموت في أي لحظة !..

ارتاع جمال من فكرة موت الضابط البغيض هكذا فهو يريد منه كل المعلومات التي يعرفها .. ثم ليشبع موتاً!

بدأ الطبيب بإسعافه ومعالجته مقطباً جبينه يلوم الخادم بين الفينة والأخرى والذي تعذر بعناد سيده .. حتى انتهى عمل الطبيب، ظل يحركه ويناديه ساعة كاملة ففتح ساري عينيه ببطء ..

- سيد ساري .. حمداً لله على سلامتكم .

حرك عينيه فرأى الطبيب صابراً .. الخادم .. جمالاً!

قال بصوت متقطع :

- لماذا؟

- لأنك فقدت الوعي .. لا بد أن تهتم بصحتك لولا لطف الله لأصبحت في عداد الأموات ..

ثم ألقى عليه الطبيب محاضرة صحية طويلة قاطعه ساري :

- أقصد .. لماذا هذا الشخص هنا؟

فهم جمال أنه المقصود فرد عليه مزجراً :

- لن أدعك تموت حتى تجيبني عن بعض الأسئلة ثم فليسعدني الله بقبض روحك ..

شهق الطبيب وهو ينظر إلى جمال ويستمع إليه كيف يخاطب زميله وقال :

- ضابط جمال .. ماذا دهالك؟ لماذا تتحدث إلى زميلك المريض بعدوانية؟

لم يجبه الضابط الذي خرج من المنزل على الفور .. لحقه الخادم وقال :

- ضابط جمال شكراً لاهتمامك بسيدي .. لقد أخذت منه شيئاً أليس كذلك؟

ارتبك ونفى بشدة بينما طمأنه الآخر :

- لا تخف .. فعلى أية حال .. كنت سأعطيك إياه بدون علم سيدي، ولكن بما أنه بين يديك الآن .. كن حذراً حتى من نفسك !..

أدار جمال ظهره متجاهلاً الخادم .. وعاد إلى منزله، وفيما تبقى من نهار هذا اليوم ظل يجمع أفكاره ويربطها بعضها ببعض على هيئة حلقات متشابكة حتى وصل إلى هوية الطفل حمد .. فكر بأي مشتبه آخر ولكن شكوكه ما

زالت تحوم حول شخص واحد فقط .. كان قد أرهق عقله حتى حل المساء،
وبعد الساعة السابعة وأربعين دقيقة .. أخذ غفوة بسيطة واستيقظ على رنين
الساعة السابعة وخمس وخمسين دقيقة مساءً ..

* * * *



الفصل الحادي والأربعون

تذكر جمال اجتماع الضباط الثاني، لقد كان موعده مع هارون الذي نسي أن يدعوه على وجبة غداء لتعكر مزاجه نهار اليوم، لذا ارتدى بزته السوداء.. ولم يبذل أي مجهود في الوصول إلى بيت هارون الذي كان جاره في المنزل .. ترك باب منزله مغلقاً لكن من غير قفل لأنه توقع عودته خلال نصف ساعة إذ ما من حديث جديد قد يطول بينهما .. وقد كان ظنه صائباً .. تناقشا حول سليم وسبب ضربه وخوفه من إعادة القصص وتوقفه عن الإشاعات.. أيضاً وجوب حماية الفتاة العرجاء التي من المحتمل تماماً أن يستهدفها المجرم .. فقط ..

سأل هارون صديقه متعجباً :

- لقد قال لي الخادم إنه سيحضر بدلاً عن سيده .. ولكنه لم يفِ بوعده .
- فليمت الاثنان !..

للم هارون أوراقه بذهول ثم وضعها على منضدة عند إحدى الزوايا وعاد ليقرب وجهه من جمال :

- هل حقًا تتمنى ذلك ..؟
- لا ..
- أتريد قتلها أم تريد أن يقوم بذلك شخص آخر! .. كي لا تشوه سمعتك؟
- أنا لا أريد ذلك .. ولا أريد أن يقوم به أحد آخر .. لقد قلت هذه الجملة تعبيراً عن الانزعاج فقط .. ولا أقصد معناها .
- لكنك ضابط .. تتحدث عن ضابط آخر، هل تعرف ماذا يعني ذلك؟
- ماذا تقصد؟
- أنت لا تتكلم عني أو عن زملاء آخرين في الشرطة، أنت تتكلم عن ضابط من النخبة .. وبالتحديد الضابط ساري، إنه من أشهر محققها الأذكياء .. ودائماً ما يحصل على ترقية تلو أخرى .. لذلك إن مسسته بسوء حتى لو لم تقتله .. فلن تنتقم منك الشرطة فقط .. بل سيأمر الملك نفسه بالبحث عنك وإخراجك ولو من تحت الأرض وإيقاع أقصى العقوبات بك .
- إنه بغيض جداً .. انطوائي .. وقح .. هذا أمر مجمع عليه، لكن لا نستطيع فعل شيء بخصوص طباعه السيئة .. لقد سمعت قبل أن آتي بأن أحد المشرفين اشتكاه إلى رئيس الشرطة .. هل تعرف بماذا أجب؟
- ماذا؟

- قال له بحزم إذا لم يعجبك أسلوبه فقدم استقالتك الآن .. فهو ورقتنا الراححة .. وهو شخص ثمين بالنسبة للملك.
 - لماذا الملك يحمي شخصاً مثله ..؟
 - لا أعلم .. لقد أنجز مهمات صعبة في سن صغيرة عندما كان مستجداً، ربما لهذا السبب .
 - لا أعتقد هذا فقط .
 - إذا لتتوقف عند هذا الحد .. فالبحث في أمره غامض جداً .. والتحقيق حول علاقة الملك بأي شيء خارج عن مهمتنا سيكون خطراً وقد يكلفنا حياتنا .. إذا ما اكتشف ذلك .
 - حسناً .. إذاً، سأعود إلى المنزل، هناك أمور يجب علي القيام بها .
 - أتريد مساعدة ..؟
 - لا، شكراً لك .. وأعتذر لسوء أدبي معك نهار اليوم .. فقد كان مزاجي متعكراً جداً .
 - لا بأس عليك .. إلى اللقاء .
- خرج جمال من منزل هارون وقد أخفى عليه جميع استنتاجاته حتى موعد ولادتها، لم يخبر أحداً بأفكاره .. لأنه فكر بمواجهة حمد بنتيجة ما توصل إليه .. والقبض عليه إن اعترف بذلك .
- لكنه لم يتوقع ما شاهده عندما فتح باب منزله ..

فقد رأى أمراً لم يكن بالحسبان!

كان الخادم يقف بداخل منزل جمال مبتسماً .. وساري يجلس على كرسي
مرتدياً بدلة زيتية اللون .. مصفر الوجه!

* * * *

دوحة الكنب حرايية



الفصل الثاني والأربعون

لاحظ ساري علامات الصدمة على وجه جمال فقال بصوت ساخر :

- مرحباً .
- وقف جمال مرعوباً في الخارج ثم دخل بحزم وأخرج مسدسه مصوباً من بعيد على رأس ساري!
- أيها اللص .. كيف دخلت إلى منزلي من غير إذن .. أتمنى لو تركتك تموت صباح اليوم لأرتاح من تطفلك .
- ابتسم ساري بهدوء وقال :
- عيناك تخبراني بأنني أكثر شخص تكرهه على وجه الأرض الآن أليس كذلك؟
- بل أعتبرك شيطاناً بلباس بشري .. انصرف حالاً .
- هل من عادتك طرد ضيوفك؟
- أيها الوغد .. ألم تطردني من حديقة منزلك؟

- لا .. فقط سألت سؤالاً بريئاً .. لماذا هذا الشخص هنا؟
- اسمع .. كونك من النخبة وكونك ورقة رابحة على حد زعم رئيس الشرطة .. لن يغير من موقفي شيئاً، لذا اخرج الآن .. ومت في منزلك كغراب بائس .
- ألا تريد اللعب معي قليلاً؟
- كان جمال ما زال مصوباً على رأس ساري .. فصرخ بغضب وقد احمرَّ وجهه :
- كل ما أريده الآن أن أفجر رأسك بهذا .
- آه .. تقصد بمسدسي الذي سرقتَه من منزلي؟ أنت لص أيضاً .. لذلك فلتحاور بهدوء كعصابة قادرة .
- أنزل جمال يده لكنه ظل متشبثاً بمسدسه خوفاً من أي هجوم مباغت .. ناداه الخادم ليجلس على أحد الكراسي .. وقال بطريقة مهذبة :
- أستميحك عذراً .. إن سيدي يريد سماع جميع استنتاجاتك بخصوص المشبوه حمد ..
- جلس جمال بعنف واضعاً قدماً فوق الأخرى وتكتّف زاماً شفتيه :
- هه .. وكأني سأفعل ذلك .
- وقف ساري ورفع كميته وأطراف بنطاله ثم أنزلها ليخرج جيوبه الخاوية ..

بعدها أمر الخادم بالانصراف والعودة إلى البيت حالاً .. حتى بقي هو وجمال منفردين فقال :

- لقد أتيتك بصفة سلمية لا أنوي شراً وقد تركت أسلحتي ورائي .. إن كنت خائفاً مني فسأعود حالاً .. لكن إن كنت ضابطاً شجاعاً تستحق فعلاً مركزك الثاني على الدفعة فتكلم ..

- أنا لا أثق بك أبداً ..

- يسعدني سماع ذلك .

صدم جمال من هذه العبارة فتردد قليلاً وقال :

- أنت تعرف الكثير .. الخادم .. ميمون .. عائلة الفتى .. الطبيب جلال وصفوان وابنه .. حتى قصة حمد كاملة ..

- أجل .. أعرف كل ما لا تعرفه أنت ..

- وغد خبيث .. لن أغير رأيي فيك، هل بينك وبين إبليس صلة قرابة؟ أظن هذا .

- لست وحدك من يظن ذلك .. هناك الكثير أيضاً .

- يبدو أنك تستمتع بكراهية الناس لك .

أعاد ساري خصلة من شعره الناعم انزلت لتغطي إحدى عينيه فقال بصوت خالٍ من المشاعر :

- أستمتع؟! .. ربما بطريقة ما .. يعجبني ذلك ..

- حسناً سأسر ذلك كل ما توصلت إليه بخصوص المجرم بشرط واحد ..

- ما هو؟

رفع جمال مسدسه وأشار إلى رأس ساري بتحدّ:

- أن أبقى يدي هكذا ..

- حسناً .. لا بأس ..!

لم يتوقع جمال أن يوافق خصمه بهذه البساطة ..!

لذا خمن أنها قد تكون حيلة من حيله فهو داهية خطير .. لكنه وثق بيده التي أعطاها أمراً بإطلاق الرصاص بلا أيّة رحمة عند الطوارئ ..

لاحظ أن ساري أدخل يده في جيب معطفه وأخرج علبة بيضاء لامعة .. ثم فتحها ونثر ما فيها على طاولة صغيرة أمامه!

لقد كانت قطعاً كرتونية مفككة من ألعاب التركيب التي يستخدمها الأطفال وتتطلب تركيزاً عالياً .. ودائماً تكون برسوم طفولية أو مناظر طبيعية حتى يسهل عليهم تجميع القطع بشكل صحيح لتكتمل الصورة .. إلا أن اللعبة التي بيد ضابط النخبة بيضاء ناصعة لا تشوبها شائبة ..!

أمسك بالقطعة الأولى ونظر إلى جمال منتظراً:

- من عادتي أن أستمع وأفكر وألعب في آن واحد .. لذا لا تلق لها بالاً ..

ظل جمال متأهباً ومسدسه باتجاه رأس ساري ثم قال مسترسلاً:

- حسناً .. لا يهمني ما تفعل .. المهم أن تستمع لما أقوله بعناية، لا نستطيع

رفع تقرير إلى شرطة العاصمة ما لم تكن الأمور مستقرة في القرية وبما أن غالبية السكان يخشون من الأشباح وجرائم القتل .. والتي قد حدثت فعلاً من قبل، إذاً يتوجب علي كضابط أن أنظف الجرح قبل أن يندمل .. لا بد أن أقبض على المتسبب بترويع الأبرياء والذي عجز عن إمساكه زملاؤنا في الماضي .

بعد جمع التحريات وتلخيصها .. توصلت إلى أن حمداً ابن الحداد عصام هو من يجب القبض عليه ..

سألت نفسي سؤالاً عابراً .. من هو حمداً؟! ثم أجبت عليه وفق النتائج التي بين يدي .. في الواقع حمداً نكرة لا يعرفه أحد إلا أبواه في هذا العالم .. أمه ماتت بينما والده بقي حياً، لقد عاش يتيم الأم فاقداً للحنان لذلك كان أهم شخص في حياته هو والده .. لكن للأسف لم يكن هو كذلك بالنسبة لأبيه .. لم يكن سوى مصدر إزعاج لوالده الذي يهتم بالمثالية ونظرة الناس على حساب ابنه المسكين، حاول إرضاءه بكل ما يستطيع .. ساعده .. ذهب إلى المدرسة لينجح .. لكن ثقته بنفسه مهزوزة فباءت خطته بالفشل، والد يحرص على المثالية وابن فاشل ضعيف وأدوات حدادة في منزل والده الحداد.. هذه هي مكونات الطعام الدموي الذي أودى بحياة أبرياء!

حرك ساري بعض القطع في الوقت الذي تحدث فيه جمال وإذا صمت جمال يتوقف الآخر عن اللعب .. واصل جمال :

- كان والده سادياً جداً يستمتع بالتعذيب بينما الطفل يتيم ضعيف الصحة ليس له أصدقاء ولا معارف .. مكروه من الكل لسوء ألفاظه

التي يسمعتها من والده ويرردها على الآخرين من غير أن يعرف معنى أكثرها، في كل ليلة يقوم والده بإهانته وحرمانه من الاستمتاع بطفولته كالبقية .. وفي يوم من الأيام آن للقدر المضغوط أن ينفجر وللعبء أن يثور على سيده فسحب إحدى أدوات والده الحادة التي لم يعثر عليها إلى الآن وباغته بضربة قوية من خلف رأسه ليخر الأب صريعاً في الحال، لم يكن هذا التصرف الشاذ ليصدر من طفل تجاه أبيه إلا بعد أن وجد فرصة للتعبير عما يقع عليه من الظلم والعدوان فقرر الانتقام بطريقة تحرس مُعذِّبه إلى الأبد .

وبما أن الوقت ليلٌ وحراس العمدة العديمي الأمانة لم يكن منهم أحد في الخارج لذا سحب الطفل القاتل جثة أبيه ليدفنها فوق التل في المقبرة الكبيرة بجانب شجرة الموت التي أخذت اسمها هذا بعد هذه الحادثة .

بعد أن دفن والده عاد إلى المنزل فوجد الرجل الأصم واقفاً عند باب منزله ليدخل وربما كانت ابنته الصماء معه أو هي التي فتحت الباب لوالدها.. لا يهم ذلك .. فقد رأهما الطفل حمد في علاقة ودية حسدهما عليها وظن أن الأب لا حظه وهو يوافق أمامه كما كان يفعل والده عندما يمسح على شعره ويربت على كتفه أمام المدرسين والسكان، لذلك ثارت ثائرتة وأرداهما قتيلين ودفنهما كما دفن والده .. لكن والدة الفتاة استغربت تأخر زوجها عن العودة للمنزل واختفاء ابنتها التي ذهبت لتفتح الباب ثم رأت الدماء عند المدخل وصاحت بأعلى صوتها ليهرع الناس لمساعدتها .

في ذلك الوقت كانت هناك وحدة استكشافية من شرطة العاصمة مثلنا بالضبط لكنهم فشلوا تماماً في العثور على حمد باعتباره الشاهد الوحيد الذي اختفى هرباً من المجرم ولم يدر بخلداهم ولو لثانية واحدة أنه المجرم نفسه!

أمر كهذا ينبغي أن يخطر على بال الشرطة لكنهم آثروا راحة أدمغتهم ليعودوا إلى العاصمة بنتيجة واحدة .. وهي أن قرية العنقاء غير آمنة أبداً ولا يُنصح بضمها إلى بلاد جهمارا وأغلق ملف القضية .

صمت جمال ليشر بجرعات من الماء ثم أنزل الكأس ورفع المسدس ثانية باتجاه ساري الذي ما زال يلعب بصمت! .. توقف اللاعب عن إكمال تركيب القطع حتى يكمل الضابط المتحمس حديثه :

- بعد تسع سنوات على مرور الحادثة بدأ الناس بنسيانها ولكنها ارتبطت بالمعاقين أو الضعفاء .. كان حمد يبغضهم .. في الواقع ما زلت أجهل دافعه الحقيقي .. لكن الأمر الذي لا يختلف عليه اثنان أنه اتخذهم هدفاً له، منذ مجيء وحدتنا الاستكشافية .. بدأت أمور غامضة تحصل وقد أخبرني البائع صفوان أنه يحس بمراقبة وحركات غريبة خارج منزلهم منتصف الليل .. كذلك الفتاة العرجاء التي يتشاجر والداها على إعلان زفافها كل ليلة .. وأعتقد أنك سمعت شيئاً من ذلك بما أنك جارهم في المسكن .

لم يجب ساري بل ظل صامتاً كأنما قد خيط فمه!

لم يكثر جمال فأكمل :

- تلقى السيد صفوان بعد ذلك تهديداً جعله يقاطع الناس ولا يتكلم أبداً حتى أغلق المحل واختفى مخلفاً وراءه تساؤلات مثيرة .. بعد

ذلك حادث صديقه المقرب الطيب صابراً عنه ويبدو أنه لا يعلم شيئاً
عن السيد صفوان ثم حققت معه بشأن حمد ووعدني بأن يطلعني على
السجل الطبي الذي يحوي معلومات عن عائلته، وفي غد ذلك اليوم ..
كنا مراقبين .. وأجزم بأنّ حمداً الذي أصبح رجلاً نكرة كما كان طفلاً
نكرة هو من يراقبنا ويتنصت على حديثنا!

لذلك تم إحراق العيادة بمن فيها صباح اليوم الذي يليه .. منعاً من
رؤيتي للسجلات .. لكن حمد كان متهوراً إذ جعل الطيب جلالاً يراه
ويستغرب زيارته بلا تسجيل موعد ..! لذلك مع أن الطيب جلالاً سليم
وليس معاقاً إلا أنه لا بد أن يصمت إلى الأبد .

ومن حسن حظ الطيب جلال أن العناية الإلهية أنقذته فقد أخرجته أنا
من ألسنة اللهب ثم .. أخذته أنت إلى عيادة العمدة الخاصة كحالة طارئة!
لكن!

تم إخراس الطيب جلال من قبل أحدهم كما فعل ببائع الخضروات من
قبل ثم اختفى!

الغريب ليس هنا فقط! بل إن بعض السكان شاهدوا المجنون ميموناً
يحوم حول العيادة لذا شك به البعض ولم أكن لأجزم أن له علاقة بالأمر لولا
أني عندما حاصرته بالأسئلة هرب واختفى هو الآخر .

أيضاً خرج لنا من العدم .. شخص جديد لا يعرفه أحد سواك!
خادمك المخلص! الذي يقف كالحارس الشخصي ويلازمك كالظل ..

عندما اختلست النظر ورأيتَه يتناول قدحاً من الشاي بعد اجتماعنا الأول لاحظت أن طريقة إمساكه بالقدح غريبة تماماً فقد كان يمسكه من الأعلى وكأنه يلتقطه من الأرض .. لم أر شخصاً في حياتي يأكل أو يشرب هكذا إلا ميموناً .. لذا فقد علمت أنهما إما أخوان أو بينهما صلة قرابة وهما على معرفة وثيقة ببعضهما البعض .

ميمون أحق تماماً وإدراكه بطيء لكن الشيء الذي لم يلاحظه سكان القرية .. أنه غير مجنون بل عاقل تماماً!

وقد أتى إلى القرية قبلنا بقليل .. لهدف نجهله .

حسناً لنعد إلى حمد الذي يبدو أنه شب خارج القرية وتعلم وتوظف وظيفة مرموقة لا تجعل مجالاً للشك فيه .. ثم عاد ليكمل انتقامه بعد مرور السنين .

كان من الصعب حصر المشتبهين في بادئ الأمر .. لكن مع أن الحقيقة مرة بعض الشيء إلا أنني لا أستطيع إنكار أنه أحد القادمين الجدد وليس من سكان القرية حالياً ..

أي إنه إما المجنون أو خادمك أو نحن ضباط العاصمة الثلاثة!

شخصية حمد الشاب كما رسمتها تختلف عن حمد الطفل قليلاً .. ولكنه هو لم يتغير .. فالعقد التي حطمت شخصيته والتحقير الذي نشأ عليه يصعب تغييره حتى مع مرور الوقت ..

فما زال سليلط اللسان .. لا يهتم بمشاعر الآخرين .. قاسي القلب وبارداً جداً .. ودائماً ما يهدد من يزعجه ولو كان المزعج لا يقصد ..

إنه لا يملك ذرة من رحمة وكأنها خُلِق بلا قلب!..!

أليس كذلك!..؟

يا .. ساري

أقصد ..

يا .. حمد ابن الحداد عصام!؟

* * * *



الفصل الثالث والأربعون

توقفت يد ساري .. وبيده قطعته الأخيرة من اللعبة .. يحدق في جمال
بذهول ثم اكتست عيناه مسحة ألم وقال :

- لقد .. لقد أفسدت علي متعتي في اللعب .. تبقت واحدة لم أضعها في
مكانها!

اقرب جمال ووضع فوهة المسدس في منتصف جبين ساري! ثم صرخ
بعنف :

- اعترف .. لقد قلت لي إنك تعرف الكثير .. تكلم الآن قبل أن تودع
الحياة، أخبرني بما تعرف؟

تنهد ساري بخيبة أمل متجاهلاً المسدس الملتصق برأسه :

- إذاً أيها المستجد .. لقد جزمت أنني حمد أليس كذلك؟

- بلى وسأنتزع الاعتراف من فمك حالاً.

- أيها الصغير .. أنت تتهم شخصاً بجريمة لا تملك شهوداً عليها ولا حتى
دليلاً!

غير ساري نبرته الهادئة بنبرة استهزاء وسخرية أصابت جمالاً بالجنون :

- هل تسمي نفسك ضابطاً بعد كل هذا؟!!

كان جمال يشعر بإحساس غريب أثناء توجيه السلاح ناحية ساري .. إنه لم يرمش قط .. لا يبدو أن هذا شيء مقلق بالنسبة له .. كأنه معتاد على الموت في كل يوم، دق قلب جمال بعنف في صدره وتردد قليلاً .. من هذا بالضبط! أحسَّ بأن قدميه تغوصان في الطين .. أطال النظر إلى ساري .. ما زال ينظر باتجاه لعبته وفوهة المسدس ملتصقة بجبينه، لم ينظر إلى جمال حتى .. فقد كان الأمر بالنسبة له لعبة باردة مملة .. لم يكن جاداً .. ولم يدافع عن نفسه .. ارتجفت يد جمال قليلاً ..

فاستغل ساري هذا التوتر .. وبحركة خاطفة ضرب معصم جمال ليطيح المسدس على بعد أمتار ثم قفز بسرعة وأمسكه مشيراً به إلى جمال الذي صرخ وأمسك بأحد الكراسي كدرع رخيص له .. قال ساري مبتسماً بلوؤم :

- ما رأيك .. لقد انتهت اللعبة .. هل تريد أن أزهدك روحك الآن؟ أم غداً؟ .. لن أكون عجولاً .. اختر يوماً وسأتكفل بقتلك ببراعة ..

أحس جمال بركبتيه تضطربان وقلبه ينبض بقوة وكأنها تقرع طبول الموت في أعماق روحه .. ازدرد ريقه وهو ينظر إلى ساري بحنق .. كان ساري يقترب مصوباً السلاح إلى جمال .. تراجع الآخر حتى التصق بأحد الجدران

وصرخ بشجاعة مؤقتة :

- لقد كنتَ شخصاً مشبوهاً دائماً .. هل تريد أن تقتلني لتضيف اسماً جديداً إلى قائمة الإجرام خاصتك؟ لكن لتعلم أيها الغراب أن لي صديقاً سيبدل الغالي والنفيس في ملاحظتك والقبض عليك .. أنت تغتر بمنصبك لتزهق أرواح الأبرياء .. كم ارتكبت يدك الآثمة من الشرور؟

ابتسم ساري بخبث ثانية واتجه إلى الطاولة يللمم لعبته بيد واحدة ثم وضعها في جيبه وقال :

- تَبّاً .. لقد بقيت من لعبة التركيب خاصتي قطعة واحدة .. لكن استنتاجك مثير للغاية .. أنت شخص غبي حقاً!

كانت السماء بدأت تمطر بغزارة .. فزاد الموقف رعباً وإثارة وميض البرق وصوت الرعد الذي يعصف بالغرفة بقوة .. شعر جمال بخوف شديد .. لطالما كره هذا الشخص والآن عندما اتهمه بأنه حمد يهزأ ولا ينفي ذلك!

عاد ساري إلى هدوئه وفتح الباب .. فتطاير شعره الطويل في كل اتجاه بفعل الرياح العاتية حتى غدا كشرارة سوداء تحيط برأسه .. وضع يده فوق رأسه اتقاء لقطرات المطر التي دخلت خلصة .. ثم قال :

- ((تخلص من قلبك .. قبل أن أخلصك منه عنوة .. فأنت لست أعمى ولكنك تتعامى!))

ثم ضغط على مفتاح الأمان في المسدس وقذفه ناحية جمال ليلتقطه ..

خرج بعدها بثقة وهدوء تام ثم اختفى في ظلام الليل!

ارتعدت فرائص جمال وانهار على ركبتيه مقهوراً محاطاً باليأس .. ضرب صوت الرعد المكان بقوة فقفز مذعوراً ظاناً أن رصاصة اخترقت قلبه إلا أن ذلك كان وهماً منه فالمسدس بين يديه وعدوه قد غادر ..

مشى يجرد قدميه حتى أغلق الباب .

وظل يفكر في آخر كلمات ساري :

تخلص من قلبك .. قبل أن أخلصك منه عنوة .. فأنت

لست أعمى ولكنك تتعمى!

ذهب إلى غرفة نومه بعدما تثبت من إغلاق كل منافذ المنزل بإحكام وارتدى على سريره وجسمه يتعرق بخشية .. أحس بالخسارة ..

بالألم .. بأنه كشف أوراقه لعدوه .. تحدث في نفسه بمرارة :

ساري .. غراب الشر

من أنت بالضبط؟

تلاعب ..

وتبتسم ..

وتأخذ المسدس بسهولة ثم تسلمه إلى من أراد قتلك ..

وتخبره بأن يختار يوماً لمقتله ..
ليس بسبب أنك محمي من أطراف عليا ..
بل لأنك شيطان أسود ..
ليت صاعقة شطرتك إلى نصفين عندما كنت واقفاً بالباب ..

ليلتها ظل جمال يتقلب من ألم يعصر فؤاده ..
فلم تنم له عين ولم يرف له جفن ..
ولم يهدأ له بال ..
فقد كانت أسوأ ليلة مرَّ بها في حياته ..

* * * *



الفصل الرابع والأربعون

(مذكرات السيد نكرة (ج))

اليوم .. هو موعد زفاف الفتاة العرجاء .. كم هي مسكينة .. في مجتمع قاس، أريد أن أمد لها يد العون لأخلصها مما يؤلمها .. فهي لا تستطيع البوح لأحد .

نعم إن أيًا من الأشخاص حولها لا يدرك مدى معاناتها بأن ترى نفسها في عيني أبيها والمجتمع بأسره عالة منتهية الصلاحية ..
سحقاً .. لقد استخدمت هذه الكلمة التي ردها والدي المأفون على مسامعي ..

عندما خرجت إلى منزل الفتاة قبل قليل .. لا يوجد ما يُشعر بأن احتفالاً سيقام الليلة، لم أجد مصابيح معلقة ولا زينات!
ما الأمر؟

.. أشعر بيد تخنني .. بأن هناك من يعلم بأمرى، ما من شك .. لقد عرف أحدهم بأني حمد .. وهو يخطط للإيقاع بي .

لكنني مواطن بريء لم أرتكب جرماً قط ..! فقط أريد تخليص من يظنهم
المجتمع عالات منتهية الصلاحية من جحيم الحياة التي يعيشونها .. إنهم لا
يملكون الجرأة لفعل ذلك .. لهذا السبب أنوي مساعدتهم .

ذاك الشخص المتربص ذو عقلية متحجرة كمجتمعه .. لذلك يراني على
خطأ، لماذا أشم رائحة خطر غريبة؟! أشعر بأن نهايتي اقتربت .
لا أستطيع المواجهة أبداً ..

لطالما عملت وحدي في الظلام، ولكن إخالني الآن خفاشاً مرعوباً ..
إن دقات قلبي تتسارع ..

ذاك الشخص الذي أعرفه ويعرفني .. يتأهب للانقضاض في أي لحظة،
حتى لو ظللت مختبئاً متخفياً .. سيطاردني حتى الموت .
يبدو أن عزمه قوي جداً بشكل لا يصدق .. شعرت بأنه اكتشفني منذ
عدة أيام ولكنه يستمتع بوضعي المرتبك حالياً .

تباً .. أشعر بالعجز أمامه ..

أين أنت يا والدي ..

لقد كنت صلباً .. لم تساعدني عندما كنت حياً .. ولم تعلمني كيف أواجه
شخصاً قوياً ..

التحدي لا يكمن في المواجهة فقط ..

بل في الفرار .. إنه قرار صعب .. وشعور غامض يدفعك للتوجه إلى
مكان مجهول لا تدري أيستطيع عدوك إدراكك به أم لا ..

لقد عاد إلي شعور اليأس، وكأنني الآن أجلس على ذاك الكرسي مقيداً
وسياط والذي تنهال علي من كل حذب وصوب ..

لا يمكنني المواجهة ..

لا يمكنني الفرار ..

لا يمكنني التبرير ..

أنا ..

لا يمكنني التنكر أكثر ..

الخطيئة الوحيدة التي لم يرتكبها والذي .. إزهاق روحي .. وتخليصي من
هذه المعاناة والتخبط في عالم مليء بالشر والظلم ..

* * * *



الفصل الخامس والأربعون

أسند جمال ظهره إلى باب منزل الدهان حسان وقد أحاطت الهالات السوداء عينيه الخضراوين وتنهد مسترجعاً ما مر به ليلة البارحة مع ساري في منزله .. أغمض عينيه بقوة ليفتحها على صوت قفل يفتح من باب بيت الدهان .. كان والد الفتاة العرجاء مرهقاً محمر الوجه وهو يخاطب جمال بنفاد صبر :

- ما الأمر .. إن حفل الزفاف قد تأجل .. أرى أن ضباط العاصمة مهتمون بهذا الزفاف أكثر من الخاطب نفسه!

- تأجل؟

- نعم بطلب من جدة الخاطب فادي .. تم تأجيله، لم تقم بإيضاح الأسباب لكنها قالت لأمر خارج عن إرادتها .. لذلك من فضلكم لا تثقلوا كاهلي بأسئلتكم وابتعدوا عن منزلنا .

لم يلبث جمال طويلاً حتى وصل إلى بيت العجوز راكضاً .. طرق الباب فلم يجب أحد .. جالت في عقله أفكار سوداوية لسيناريو بشع، فعزم على اقتحام المنزل .. لكنه عدل عن ذلك بسبب وجود المارة الذين سيستغربون فعله .. طرق الباب مرة أخرى وهو يدعو ألا يكون قد أصابها مكروه!

ظل راسياً عند المنزل .. حتى تنهد بارتياح أخيراً وهو يرى العجوز قادمة من بعيد بخطا واهنة، سلمت عليه ودعته للدخول .. لكنه لم يرد الدخول بلا حفيدها .. لذا سأها مباشرة عند الباب :

- أيتها العمة .. لقد أخبرني السيد حسان بأنك أجلت زفاف حفيدك وابنته فهل هذا صحيح؟

- نعم .. بالتأكيد .

- اعذريني لتطفلي .. ولكن عملي يقتضي أن أسألك عن السبب؟

- لا أستطيع إخبارك ..

- لماذا؟ ألا تثقين بي؟

- بلى أيها الضابط .. أنا أثق بك .. لكنه أمر فوق إرادتي .. لا أستطيع الكلام في هذا الموضوع .

ارتاب جمال في الأمر فالحَّ عليها بقلق :

- فوق إرادتك .. أي أمر من شخص أعلى أو تظنين أنه أعلى منك؟

- سيد جمال .. عندما تسألني بهذه الطريقة فإنك تضيع وقتك .. لا أستطيع التفوه بأي كلمة .. لك أو لغيرك، لذلك أنا أتأسف لإضاعة وقت الضابط الثمين .

تلقت يمناً ويسرة بعد انصراف العجوز العنيدة .. لم يجد أثراً لزميليه، دخل السوق الشعبي .. فوجد الخادم يتحدث مع فادي الذي كان حزينا

مسودّ الوجه! جلس على مقربة ليسترق السمع إلا أن حديثهما كان بصوت خافت جداً .. لذا انتظر حتى يفرغا فقاطعهما أذان صلاة العصر .. بعدها بدأت الأسواق والمحلات الصغيرة تغلق ويهرع الرجال إلى المسجد ومن ضمنهم الاثنان اللذان تعقبهما جمال ..

دخلا المسجد فدخل .. تماماً بعد التسليمة الثانية بحث عنهما .. فوجد فادي فقط ينتعل نعليه منكسراً .. أما الخادم فقد تبخر في الهواء!

- فادي .. لماذا أجلت زفافك فجأة؟

- أوه .. سيد جمال! لم أسلم عليك، للتو انتبهت لوجودك .. إنني مستاء بسبب هذا وأشعر بالاختناق .. فقد كنت أنا وإكيليل نخطط بشوق لهذا اليوم .. والآن .. كل شيء تحطم .

قال جمال مواسياً :

- لم يتحطم شيء .. فقط تم تأجيله، لكن أخبرني يا فادي من الذي خطط لتأجيله؟

- للأسف .. أنا لا أعلم .. فقد أيقظتني جدتي السابعة صباحاً وهي ترجف من الخوف، وتقول أرجوك لا تقمه الآن .. حرصاً على حياة الفتاة وعندما ناقشتها في الأمر رفضت أن تبرر موقفها وأخبرتني بأنها أنهت الموضوع مع السيد حسان واتفقا على تأجيله ..

- هل تصرفت جدتك هكذا من قبل؟

- لا .. إنها عاقلة وحكيمة وتتمنى لنا الخير وكانت دائماً ما تدافع عن الفتاة أمام من ينعتها بالمعاقة .. إن لتصرفها سبباً أجهله .
- هل تعتقد أن شخصاً ما يقوم بالضغط عليها؟
- جدتي قوية الشخصية لذا ..
- صمت الشاب ببؤس ثم تابع :
- أنا حقاً لا أعلم ..
- لقد أخبرتني جدتك سابقاً أن الزفاف سيكون عائلياً .. إذاً .. من غيري خارج العائلة يعرف؟
- أصدقائي الذين رأيتهم بمن فيهم ثامر وبائع الحليب، والمجنون ميمون سمعنا وعرف بذلك قبل أن يحتفي منذ عدة أيام وأيضاً زميلاك في العمل الضابط هارون والضابط ذو الشعر الطويل وخادمه.
- الضابطان والخادم كيف علما بذلك؟
- الضابط هارون أسدى لجدتي خدمة بعد وصولكم بقليل فدعته لحفل الزواج أما الضابط ساري فقد زار منزل والد الفتاة في الليل وأخبره بأن أصوات شجارهما حول الزفاف أقضت مضجعه .. والخادم يبدو أن سيده أخبره بذلك .
- ما الذي أراده الخادم منك؟
- إنه يتحدث معي حول موضوعات لا علاقة لها بالزفاف .. كارتفاع الأسعار وضرائب العمدة وفساد الحراس ..

- وكيف وجدت الخادم؟

وضع الشاب يده على ذقنه وقال بارتياب :

- إنه حاد الذكاء وشديد النباهة .. ولديه دقة ملاحظة فهو يراقب آية حركة بيدي أو تعبير يظهر على وجهي، تساءلت في نفسي .. هل هو فعلاً خادم ..! لقد كان يحقق في أمر العمدة باهتمام .. هل تتوقع يا سيد جمال أنه يريد العمل عنده؟

رفع جمال كتفيه بحيرة .. وانصرف بعدما شكر فادي .. تذكر أنه سمع ساري قبل أن يفقد الوعي في ذلك اليوم يعنف الخادم ويخبره بأنه لم يطلبه للعمل ..!

كان جمال عاجزاً عن فهم علاقتها .

* * * *



الفصل السادس والأربعون

- دخل الخادم بعد غروب الشمس غرفة نوم الضابط ساري الذي كان
يبعث لعبته الكرتونية على سريره بعد أن أتم تركيبها ..
- سيدي .. كيف هي صحتك الآن .. لقد تضررت كثيراً بعد عودتك ليلة
البارحة في الجو الممطر؟
- لم يجبه ساري الذي كان ينظر إلى الأرض باكتئاب .
- ما الأمر سيدي؟ هل هو حلم من ذاك القبيل؟
- تقريباً .
- في الجمعة الماضية .. لقد خرجت من منزل الضابط المستجد مبكراً إلا
أنك وصلت إلى المنزل في وقت متأخر!؟
- دعني أتذكر .. آه صحيح .. لقد أغرقته بالبحر ..
- قام ساري بحركة تمثيلية فجعل سبابته وإبهامه يلتقيان ثم أخذ يرفع يده
وينزلها وهو يقول :
- تماماً مثل أكياس الشاي ..

تصلبت يد الخادم الذي كان يحمل صينية بها كوب من مزيج القهوة والكاكاو الساخن لسيدة! لم يستوعب الأمر .. كان يعلم تماماً أنه لم يكذب عليه قط .. لذا ابتلع ريقه محملاً بسيدة الذي يرتدي ثوباً أسود :

- من هو؟

- أحد كلاب العمدة .. لا أعرف اسمه، لقد أتاني بكل وقاحة يطلب مني مساعدته في الانتقام من العمدة .. بيد أنه كان ثعلباً مراوغاً وأجزم أنه أتى لهدف آخر .. لذا أدبته قليلاً .. ثم انتشلته قبل أن يموت وتركته يهرب حبواً في ظلام الليل !..

- وهل فعلت به ما فعلت لأجل العمدة؟

- لو كان العمدة هو من أتاني لتركته يموت غرقاً .. لا يهمني المنصب ولا المال ولا الجاه .. أنا أهتم بخصومي بطريقتي الخاصة .

صفر الخادم وقال :

- ما زلت كما أنت لم تتغير .. إنك فعلاً شيطان .. لم أر في حياتي مثلك!

- أشكرك على مديحك ..

- وهل تظني أمدحك بهذا؟

- أتمنى لو تتحسن صحتي بسرعة لأقوم بمهمتي الأخيرة في هذه القرية ..

- لا يمكنك ذلك .. استرح رجاءً وتناول أدويةك، ولا تقم بالأعباء الخبيثة أمام السكان .

- بالمناسبة .. ذاك المستجد المتحمس .. كيف حاله؟ لقد أخبرني بأن استنتاجه قاده إلى أني الطفل حمد .
- إذا فقد أخبرك بتقريره .. حسناً كيف تراه؟
- لا بأس به، لكنه متهور حقاً .. صوب على رأسي فأدبته أيضاً بطريقة أخرى ممزوجة بالرحمة .
- تنهد الخادم بنفاد صبر ووضع يده على مقبض الباب إعلاناً لخروجه .. ثم قال بعينين حازمتين من خلف نظارته السميقة :
- من فضلك سيدي .. نم بهدوء حتى تسترد عافيتك ولا تقم بأي أعمال متهورة .
- احتدت نظرة ساري وقال بصوت حانق :
- لا تخاطبني وكأنك وصي علي .. أعرف ما ينبغي علي فعله لذا أغلق فمك واخرج حالاً ..
- أخرج الخادم زفرة أودعها كل عبارات الامتعاض والضجر من سيده الغريب الأطوار .. ونزل بخفة من الدرج، وقبل أن يخرج من المنزل .. نزع نظارته السميقة وبدل ملابسه ثم تتم لنفسه :
- اعذرني سيدي .. حان دوري الآن .

* * * *



الفصل السابع والأربعون

في اليوم التالي .. كان طلاب المدرسة قد رتبوا مسيرة صغيرة وبأيديهم سلال متواضعة الصنع مليئة بالحلوى وهم ينشدون أناشيد طفولية يتقدمهم معلم الصف، داروا على المنازل ليوزعوا الحلوى بمناسبة قدوم مولود جديد لمدير المدرسة .. كانت القرية مبهجة وعبارات التهاني والتبريكات تدور على الألسنة، فقد كان المدير محبوباً من الجميع إلا من شخص واحد .. جلس في إحدى الزوايا في جانب لا تصله الشمس وقال :

- ما خطبهم؟! إنه مدير نرجسي متبجح .. وسيكبر ابنه ليصبح متكبراً كأبيه .
- لا تقل هذا يا سليم .. أنت حقود جداً، عندما عاقبك في الماضي كان بسبب إهمالك في حل الواجبات .
- ثامر .. أنا لا أستطيع التجاوز عن كل من يؤذيني .. حتى ولو كنت مخطئاً، إنني لست من النوع المتسامح الذي يعفو عمَّن يتسبب له بالضرر.
- وهل هذا ينطبق على الضابط الذي ضربك؟

انفعل بائع الحليب وحرك رأسه بعنف ليتطاير شعره الأحمر ثم قال غاضباً وهو يهز صديقه الأسود من كتفيه :

- أتشمت بي أيها اللئيم؟

- معاذ الله .. الشهامة تدل على وضاعة صاحبها، أردت فقط تذكيرك بأن الناس يغضبون إذا جرحت كرامتهم أو شوهت سمعتهم .

أفلت سليم صاحبه وقال بتبرير :

- أنا لم أكذب .. لقد رأيت شخصاً يدخل خفية بعد منتصف الليل، وأسأل الله أن يعمي بصري إن كنت كاذباً .

قال ثامر بنفاد صبر :

- لقد أشعت أنها امرأة .. هل تعلم ما يعني هذا؟ هل تعلم خطورة كلامك؟ هل تدرك أن الله أنقذك إذ لم يُبلغ عنك وتسجن، أنت تبحث عن كل ما هو مثير ولافت للأنظار حتى لو كان على حساب سمعة غيرك .

كان سليم ينظر إلى آثار الكدمات في يديه ويصر على أسنانه بحنق :

- سحقاً لكومة العظام الطويلة، لقد كان سريعاً وقويّاً جداً حتى إنني لم أستطع رده عن نفسي .

- لست وحدك .. فقد نالتني أيضاً ركلة قوية في بطني عندما حاولت إمساكه من الخلف والدفاع عنك .. ظللت يومها أحس بأن أحشائي أصبحت كالبيض المخفوق .

قطع محادثتها طفل صغير يناولهما الحلوى بالمناسبة التي كرهها سليم إلا أنه أخذها فقد كان هذا الطفل أحد مرتادي حلقات الرعب سابقاً ..!

وصلت المسيرة إلى السوق الشعبي .. فعم الفرح والسرور وتبادل البائعون والزبائن المباركات فقام هارون بشهامة للمساعدة في توزيع الحلوى يحفه الأطفال مبتهجين .

كانت سحابة سوداء تمطر فوق رأس جمال هموماً وأفكاراً متشائمة .. وصل إليه طفل صغير فأخذ الحلوى ودسها في جيبه ثم شكر الطفل وما زالت عيناه مثبتتين على كوب النعناع أمامه .. اقترب منه هارون فابتسم له ولم يعره جمال أدنى اهتمام، لقد كان ضائعاً يعاني في هذا المكان الصاخب .. انتبه لطفل آخر يقول بصوت مرح :

- سيدي .. بدلتك أنيقة .. أهي من العاصمة؟

كان يخاطب الخادم الذي رد بدوره :

- أجل يا عزيزي وحالما تنضم قريتكم إلى بلاد جهمارا تستطيع اقتناء مثلها

- تفضل سيدي .. هذه لك .

قطب الطفل جبينه ينظر إلى سلته التي بقي فيها حبة واحدة، لقد أعد طلاب المدرسة قطع الحلوى على عدد أهل القرية .. تذكر شيئاً فعاد إلى الخادم مرة أخرى وقال بوجل :

- سيدي .. هذه لـ ..

- ما الأمر صغيري؟
- لعق الطفل شفثيه وقال :
- الضابط الطويل الذي يرافك، لا أستطيع إعطائه هذه .. لذا هلاً أعطيته هذه الحلوى بدلاً عني .
- لماذا لا تستطيع؟
- لأن والدي أخبرني بأنه سيعاقبني بشدة إذا تحدثت إليه وكذلك باقي أصدقائي .. ودائماً نحلم به لأن أمهاتنا يهددننا إن ارتكبنا خطأ بإخباره، نحن نخاف منه أيضاً لأنه ضرب سليماً .. إن سليماً لطيف ويقول لنا قصصاً ممتعة لكنه لم يعد يرويها لنا كالسابق، لذلك أنا لا أستطيع، م .. من أجل المدير .. أرجوك سيدي .. أوصل هذه الحلوى له .
- ابتسم الخادم بحنان ومسح على رأس الطفل ثم قال بودية :
- عزيزي .. يسرني خدمتك في هذا الأمر، وأشكر لك أمانتك في إيصال الحلوى لساكني القرية .
- لمعت عينا الطفل البريء لهذا الإطراء فعاد إلى أصحابه مبتهجاً يخبرهم .
- وقبل أن يدخلها الخادم في جيبه امتدت يد مسرعة لتخطفها بعيداً عن يدي الخادم .. رفع رأسه ليرى جمالاً في بزته السوداء واقفاً فوقه متوعداً :
- ما الأمر؟ أتريد وصاحبك الغراب التعيس استهداف براءة هذا الطفل؟
- اجلس من فضلك سيدي .. ولا تخاطبني بفضاظة .

- أين سيدك؟
- ينام في منزله .
- كعاداته ..!
- إنه متعب ويحتاج للراحة، هل أردت منه شيئاً؟ أخبرني به وسأبلغه .
- قل له فقط إنني جاد في جمع الأدلة وسأجره من رقبتة إلى السجن بيدي هاتين، أنت تعلم الكثير أيها الخادم وتحقق في الخفاء لأجل سيدك .. لا بد وأنه يدفع لك مبلغاً ضخماً لتتحمل سوء معاشرته .
- وما هو رأيك إذا قلت لك بأني أعمل عنده بإرادتي بلا فلس واحد، إنه يحاول طردي كل يوم ولكنني مصر على المكوث معه هذا الشهر فقط .
- هذا الشهر .. ها ..
- صمت الخادم فأكمل جمال :
- لقد قال لي : (تخلص من قلبك .. قبل أن أخلصك منه عنوة .. فأنت لست أعمى ولكنك تتعمى) .. بماذا تفسرها؟
- إنه يمد لك يد المساعدة وهذا ليس من شيمه .. لا بد وأنت ثاني شخص يثق به غيري .. يؤسفني يا سيد جمال أن أذكرك بأن مهمتك الأولى يجب عليك إنجازها وحدك، فكر بعقلانية .. إذا لم تجمع الأدلة حول حمد .. فسينجو بجرائمه وستسقط له ضحايا أخرى، ولن تتمكن من زيارة والدك المريض .

- والدي؟ كيف عرفت هذه المعلومات عن أسرتي؟ وعن تفاصيل مهمتنا الأولى؟

وقف الخادم بثبات وقال بابتسامة غامضة :

- بمجرد أن تقبض على حمد .. ستعرف كل شيء .

ثم بسط يده باتجاه جمال وقال :

- من فضلك أعطني الحلوى فهي أمانة من الطفل ولا بد أن أسلمها، اطمئن فسيدي لن يمسه بسوء .. أضمن لك سلامته .

وضع الضابط مكرهاً الحلوى المغلفة بيد الخادم الذي رحل من المكان بخفة كالنسمة .. وأحس جمال بعد هذه المحادثة بنوافذ جديدة بدأت تتفتح في عقله .

شعر بأنه اقترب من شيء ما .. خطر جدًّا، ولكنه ضروري لتحقيق العدالة!





الفصل الثامن والأربعون

في الجمعة الثالثة من شهر صفر وتحديداً في اليوم الثاني والعشرين، كان جمال ينعم بنومة طويلة لم ينعم بها من قبل .. استيقظ على صوت زخات المطر تطرق زجاج نافذته وتستأذنه في الدخول .. لكنه قام من فوره وأوصد النافذة جيداً، نظر إلى ساعة الحائط التي أخبرته بأنها الرابعة عصراً، ذهب ليأخذ حماماً دافئاً، بعدها عاد إلى غرفته ليجفف شعره البني .. تنهى إلى مسامعه أصوات صياح جزعة! أحس بأن شيئاً ما يحدث في الخارج .. فارتدى بعجالة معطفاً أزرق فوق بزته العسكرية السوداء ليحميه من الرياح الباردة ويده مظلته الجديدة التي اشتراها من السوق الشعبي .

فور خروجه ..

هجم عليه السكان كأنهم دبابير .. يصرخون به في هلع من كل حذب و صوب!

.. لم يستطع التعرف على أكثرهم خلال هذه الثواني السريعة ولكنه ميّز مجموعة الشباب والطيب صابراً وبعض البائعين الذين زارهم من قبل ..

التصقت به الأفواه برجاء وكان الجميع يتكلم في آن واحد ..

فصرخ ثامر وقد انتفخت أوداجه :

- أنقذنا .. إن المجرم في أعلى التل .. إنه غول حقيقي، لقد رأينا زميلك مقتولاً!

أبعده الطبيب صابر بيده مستعجلاً :

- أردت إنقاذه ولكنني لا أستطيع الذهاب إلى عرين المجرم من غير قوة تحميني .

صرخ جمال منفعلاً :

- عودوا إلى منازلكم وأوصدوا الأبواب جيداً ..

غاب الجميع خلال عدة ثوانٍ وكانت الشمس آخرهم فقد بدأت بالمغيب هي أيضاً، احمرت السماء فبدت كصفيحة ملتهبة ..

أحس جمال بإحساس خانق فأمسك سلاحه وجذب الطبيب إليه بقوة :

- أخبرني بسرعة .. ما الذي حدث؟

أجاب السيد صابر وهو يلهث ويمسح العرق عن جبينه بيد مرتعشة :

- لقد خرجتُ بعد الانتهاء من عملي قبل قليل فوجدت الصيادين يأتون من شرق القرية فزعين وحراس العمدة يهرعون إليه طلباً للمساعدة والنساء يركضن إلى السوق الشعبي ليلملمن أطفالهن، والرجال ينظرون إلى أعلى التل .. شجرة الموت .. لقد كان زميلك معلقاً من ظهره عليها وقد تدلت قدماه من الجهة التي لا نراها .. أما من الجهة المواجهة لنا .. فقد ..

وضع الطبيب يده على فمه ليمنع نفسه من التقيؤ بينما أمسك مظلته بيده الأخرى .. وقال :

- لا أعرف ماذا أقول .. ولكن كانت جثته معلقة بشكل وحشي رأينا نصفه الأمامي من عند بطنه إلى رأسه مقلوباً .. والدماء تقطر من جسده لتكون لوحة دائمية أسفل منه، كان وجهه مغطى بالجروح وملابسه مبللة بالدماء الحمراء القانية .. لم أكن لأميزه من بعيد لولا يداه المتدليتان بلونهما الأبيض الشاحب وشعره الطويل الذي انقلب عندما تدلى رأسه حتى كاد يلامس الأرض ..

شهق جمال مصدوماً :

- من تقصد؟

- زميلكما الضابط ساري .. كان مقتولاً أعلى الشجرة ..

اضطرب وقال غير مصدقٍ لما سمعه :

- سـ .. ساري!

كان جمال يسأل الطبيب وهو في طريقه راكضاً إلى التل، فكر في نفسه :

- لماذا؟ صحيح أن له كمية لا بأس بها من الأعداء في كل مكان .. لكنه قوي جداً وحذر .. مستحيل .. لا يمكنني التصديق أبداً، مع كل ما سمعته عن كونه من الرتب العالية من ضباط النخبة .. إنه مغرور لن يسمح لنفسه بأن يقتل في قرية صغيرة الحجم ذات سمعة سيئة، ربما .. ربما قتله خادمه الغريب بغتة؟ لا .. لقد كان يستطيع قتله بدس السم أو أي شيء في منزله .. ما هو هدفه من تعليق جثة ساري أمام السكان ..

هل هو تحذير؟ لا .. أنا مشوش .. هل كان الخادم هو حمد منذ البداية!
صحيح .. إنه ليس خادماً في الأصل .. من هو إذاً .. ليس ساري من
قُتل، لكن الجميع رأوه! تَبَّاً لذاك المجرم حمد .. هل ينوي تهديدي بأن
مصيري سيكون كزميلي إن واصلت النبش في ماضيه الأسود .. أقسم
بعزة الله ألا أدعه يفلت يومه هذا .

وصل مع الطبيب إلى أسفل الشجرة .. كانت الدماء اللزجة ما زالت
موجودة إلا أن الجثة مفقودة!

التفت جمال إلى الطبيب مستفهماً فأجابه :

- لقد ركضتَ إلى هنا ولم تدع لي مجالاً لأكمل حديثي ..
- بسرعة .. ما الذي حدث .. أين ذهب به الجاني؟
- في الواقع .. جاء الضابط هارون راكضاً ليتحقق من الأمر، وعندما رآه
شهق بخوف وعاد إلى منزله ثم خرج وبيده سكين كبيرة وأمر الناس
بالهرب ثم صعد إلى أعلى التل، ولكن قبل أن يصل خرج شخص ملثم
من خلف سور المقبرة وحمل جثة الضابط ساري على كتفه ثم قفز من
الجهة الأخرى التي لا نستطيع رؤيتها .
- هارون .. بالتأكيد لحق به فهو قوي وسريع .. ثم .. أين ذهب؟
- آسف سيد جمال لكن الضابط هارون لم يعد حتى الآن! لقد اضطرب
السكان فمنهم من أتى إليك ومنهم من لجأ إلى حراس العمدة الذين

هرب بعضهم كالدجاج والبعض ذهب إلى العمدة ليستأذنه .. إنهم
بطيئون جداً، انظر إلى وقتنا هذا .. الساعة الآن الرابعة وخمس وثلاثون
دقيقة ولم يأتِ أحد منهم!

كان الضابط يبرم شفتيه بعصبية وهو يستمع .. فتثبت من مسدسه ثم
خاطب الطبيب بحزم :

- شكراً لك .. عد الآن وأعدك بالقبض على المجرم في أسرع وقت .
- جمال توخَّ الحذر .. إنه مجرم عديم الرحمة .
- لا تخف علي .

عاد الطبيب بخطا مترددة وهو يتلفت إلى الوراء حيث كان الضابط
المتحمس قد اختفى خلف التل .

ذهب جمال إلى بيت ساري .. فلم يجد ما يدلّه على شيء، كان يقف وحده
في القرية!

لأول مرة يبقى هو خارجاً والأبواب موصدة من دونه .. أحس بالغبرة ..
بالألم .. أحس الآن بشعور الطفل حمد الذي يطارده الآن، لقد استهان به ..
لقد قتل والده ورجلاً بريئاً مع ابنته وأحرق عيادة كاملة ليقتل طبيباً بريئاً
أيضاً، وتحين لقتل وليد الكفيف والفتاة العرجاء .. وها هو الآن يقتل أقوى
ضباط شرطة العاصمة ويعلقه أمام الناظرين للعظة والعبرة، عندما عرض
جمال السجل الإجرامي في مخيلته أحس بأن بركاناً قد انفجر منه ..

لذا قاده شعوره إلى مكان واحد .. سيلجأ إليه حمد في هذا الوقت .
إنه منزله القديم الذي في الجانب الآخر من التل، تبّاً كيف لم يخطر هذا
بباله .. لقد تأخر على إنقاذ صديقه العزيز هارون، إنه لا يملك سلاحاً مثلما
يملك هو ..

لم يستطع نطق اسم ساري فقد غصت في حلقة مرارة .. تتمم في نفسه :
- إذاً فقد كان الغراب بريئاً .. بأي وجه سأقابل مشرف الوحدة وقد
عدت إليه بجثتي زميلي .

لا أملك الآن سوى الدعاء لهارون بالنجاة ..

* * * *



الفصل التاسع والأربعون

وصل جمال بعد مغيب الشمس، كان السواد ينتشر بسرعة ليظلم الكون
ليس فقط في عينيه بل في قلبه ..
أصاب في الذهاب إلى بيت حمد فقد رأى نوراً بسيطاً كأنه نور شمعة
خافتة في هذا البيت الخشبي المتهالك ..
اقترب ..
وضع يده اليمنى على مسدسه ..
ومشى بخطوات خفية .. كتم نفسه ثم أخرجه بهدوء حتى لا يُسمع ..
تلفت حوله كانت الأشجار عاقدة أغصانها في ترقب، تنتظر ما سيفعله
جمال .. أحس بأنه مراقب!!
نظر خلفه .. ودار رأسه في كل ناحية ..
إذاً لقد كان وهماً منه ..
أسند جمال ظهره إلى باب المنزل .. يسترق السمع متحِيناً اللحظة المناسبة
للاقتحام ..
كانت الأصوات لشخصين!
لكنها خافتة بحيث لم يميزها ..

استجمع قواه وركل الباب المهترئ بقدمه ليسقط داخل المنزل مثيراً
الغبار ..!

اختفت الأصوات وبقي فاتحاً فمه وعينيه بذهول ..

كان ينظر إلى داخل غرفة أخرى من طرف بابها ..

لم يصدق ما رأى! فكر في نفسه :

- يبدو أنه كابوس ..

لا .. بل يبدو أنني قد غصت في قصص سليم الخرافية ..

في هذه الدنيا المخيفة ..

إن الموتى لا يعودون ..!

أبداً ..

لا يستطيعون ذلك ..

حتى لو أرادوا ..

كان ساري قد شد شعره بربطة سوداء صغيرة إلى الخلف ليظهر جبينه
الأبيض الناصع وقد ارتدى ملابس مدنية زرقاء داكنة ولف رقبته بوشاح
أسود، لمح بيده مسدساً صغيراً ..!

ففتح الباب ودخل .. رأى في الغرفة شخصين غير ساري، الأول هو جثة

ساري والتي شاهدها الناس قبل قليل تجلس على كرسي وتنظر إليه!!

فعاد خطوة إلى الوراء بخوف .. ثم نقل نظره إلى الشخص المتبقي فتنهد
بارتياح عند رؤية هارون يقف ممسكاً سكينه مطبخ كبيرة الحجم ..

ناداه جمال بلهفة :

- هل أنت بخير .. صديقي!؟

التفت هارون، إليه فصاح ساري بشدة :

- احترس .. جمال!

مرت اللحظات بعدها في ذهن جمال المصدوم كشريط سينمائي في وضع
بطيء.. فقد انقض عليه هارون كالصقر ليمسكه كرهينة مطوقاً عنق
جمال بذراعه الضخمة ومشيراً إلى رقبته بسكين حادة ..

ظلت جثة ساري على الكرسي تنظر إلى هذا الوضع المفاجئ بصمت بينما
قال ساري الواقف وما زال سلاحه مصوباً تجاه رأس هارون :

- لقد انتهت القضية يا جمال .. يسرني أن أقدم لك الطفل المجرم حمد ..

أو كما يدعو نفسه حالياً .. الضابط المثالي والمحبوب .. هارون ..!

توقف الزمن تماماً عند جمال .. فنطق بصوت مرتجف وهو يحاول النظر

إلى هارون :

- هارون .. هل هذا صحيح؟!
 - كان جمال مربوعاً يميل إلى الطول وذا جسم معتدل خلافاً لهارون الذي ورث ضخامته من والده عصام فصرخ بجمال وهزّه بعنف بيده :
- اخرس .. اسمي حمد، لقد كنت تبحث عني وتحيي ما مات من الماضي للإيقاع بي والآن تنادينني بصديق؟!
 - لم ينس جمال بنت شفة وبقيت أحداقه مفتوحة من هول ما سمع .. فأكمل هارون عندما نظر إلى يده :
- لقد أعطاك الغراب - ورمق ساري بنظرة عداوة - مسدساً لتغتالني وانفقتما على استدراجي هنا، إنك ثعلب منافق!
 - تدخل ساري فقال بتماسك :
- حمد .. أفلت الضابط جمال حالاً وسلّم نفسك .
 - صمت قليلاً ثم كرر :
- حمد .. لم أتفق معه بخصوص شيء لذا دعه وشانه، لا أريد أن أطلق عليك النار .. فأنت قد تعرضت في حياتك إلى صنوف من العذاب ..
 - ولكن ..

احتدَّ صوت ساري العميق وانبعثت من عينيه السوداوين نظرة تحذير :

- إن أغضبتني فستدفع الثمن غالياً، لقد حذرتك .

تجاهله هارون وخاطب جمال صارًّا على أسنانه :

- أعطني مسدسك حالاً ..

استوعب جمال الوضع الخطر الذي هو فيه وفكر في نفسه : بأنه لو قذف بالمسدس تجاه ساري فإن هارون سيقتله! وإن سلمه المسدس فإن هارون سيقوم بتصويب طلقاته ليقتل ساري .. أمامه خياران .. يُقتل هو أو يُقتل ساري؟

قفز إلى ذهنه خيار ثالث فقال لهارون :

- حسناً سأعطيك إياه لتقتل ساري فهو كائن مزعج لطالما كرهته وتمنيت موته! وبعد أن تقتله سنكون متشاركين في الجريمة وعند التحقيق نلفق قصة جديدة ويشهد كل منا للآخر ..

ابتسم ساري باستمتاع وقال بصوت غامض يخاطب جثته التي تجلس على الكرسي وتراقب ما يحدث :

- هذا رائع .. أليس كذلك؟

أوما رأس الجثة بحذر!

تردد هارون قليلاً وفكر بأنه بعدما يقتل ساري فإنه سيجهز على جمال ليضيف جثتين إلى مقبرة قريته .. قال بخبث :

- موافق ..

رفع جمال المسدس حتى قرَّبه من عنقه .. كان هارون يمسك رقبة جمال بيسراه وسكينه بيده اليمنى .. ومن سوء حظه أن مقبض السكين عريض ملاً معظم كفه، قرب يده ليحاول التقاط المسدس بأصابعه .. فتعمد جمال إسقاطه وقال بتأسف كاذب :

- أوه، لقد وقع المسدس بالخطأ .. سأحاول التقاطه لك .

كشف هارون حيلة جمال فارتبك ورفع ذراعه ليطعن جمال الذي خانه ولكن طلقة مكتومة انطلقت من مسدس ساري لتصيب يده التي تحمل السكينة فتناثرت الدماء على وجه جمال وانسلَّ من قبضة هارون .

صاح به ساري :

- انبطح أرضاً بسرعة .

أطاعه جمال على الفور، فأخذ هارون يصرخ بألم ويسب ساري متوعداً ثم التقط السكين بشماله فأطلق عليها ساري ثم أتبعها برصاصتين في ساقيه ليسقط هارون مخضباً بالدماء ورائحة البارود تملأ المكان .

اعتدل جمال في جلسته مرعوباً ينظر إلى جسد هارون المصاب، حينئذ دخل ثلاثة رجال غرباء إلى المكان بسرعة .. كانوا ضخاماً جداً وقد اكتنزت أطرافهم بالعضلات فخاطبهم ساري آمراً:

- قيدوه وعالجوا إصابته بسرعة ثم اذهبوا به إلى العاصمة في سرية وليتبق منكم واحد ليتولى تصوير المكان ثم تنظيفه .

أجابوا بطواعية تامة :

- حاضر سيدي .

وبعد أن رحل الثلاثة برفقة هارون الذي فقد وعيه، التفت ساري إلى جثته التي بادلتها النظر وخاطبها ساخراً:

- إلى متى أيها الوغد ستبقى متنكراً بصورتى؟ لقد انتهت مهمتى هنا .. سأرحل الآن .. أكمل مهمتك وبرر للسكان ..

مشى ساري بضع خطوات ثم قال مرتاحاً :

- ألقاك بالعاصمة أيها الأصلع .

وخرج من المكان الذي يعج برائحة الهيموجلوبين والبارود راضياً عن نفسه!

* * * *

الفصل الخمسون



نظر جمال إلى الدماء التي بللت كتف معطفه الأزرق، كان الضابط
المستجد منهاراً جداً، أحس بقشعريرة تسري في ركبتيه عندما وصلتها
بركة الدماء التي خلفها صديقه السابق فقال يخاطب نفسه بصوت مسموع
متحشرج :

- هارون هو حمد .. كان يتعذب ويخفي ماضي والده .. ويظن أنني
تحالفت مع ساري ضده ..

لم يستطع إكمال حديثه فسقطت دموعه على الأرض لتمتزج بالدماء ..
أجهش بالبكاء وهو يردد اسم هارون بنحيب يدمي القلب .. ظل يتألم وهو
يرى الغرفة التي تعذب بها صديقه في طفولته وما زالت عيناه تذر فان الدمع .
وقف على قدميه بصعوبة فوق وقع نظره على جثة ساري التي تنظر إليه
بتعاطف .. قال وهو يمسح عينيه بطرف كفه الذي طالته قطرات الدم :
- لا تنظر إلي هكذا .. أكره الشفقة .

بدأت جثة ساري برمي الشعر الأسود الطويل أرضاً ومسح وجهها

ليظهر رجلٌ آخر بملامح جديدة ورأس أصلع .. خاطب جمال الذي ما زالت الدموع تحد من رؤيته :

- أعتذر لتأخري في تقديم نفسي .. أنا ضابط النخبة الممثل رعد ..
أظنك تعتقده حلماً مزعجاً، لكن للأسف الحقيقة أسوأ من الحلم ..
فالحلم يمكن الانتهاء منه بمجرد الاستيقاظ .

ضابط جمال .. أنا مقدر لإخلاصك ووفائك لصديقك، حتى آخر لحظة .. لكن تذكر .. لقد قتل ثلاثة وخطط لقتل ثلاثة آخرين وجميعهم أبرياء .. هل ستغير رأيك وتتعاطف مع مجرم شرير مثل هذا لمجرد أنك كنت تكن له مشاعر جميلة ووفية، فكر قليلاً كيف أقسمت بعدم إفلاته منك .. ألم تكن ترغب في ذلك حتى لو كلفك حياتك؟

ما زال لسان جمال معقوداً .. اعتقد لو هلة أن لسانه انشَلَّ ولكنه استطاع التحدث أخيراً .. فقال بصوت مخنوق متردد :

- ض .. ضابط رعد .. لا أذكر أنني رأيتك من قبل ..
- حسناً سأشرح لك كل شيء بعد أن نصل إلى منزلي، ستكون في ضيافتي هذه الليلة .

لم يجب بل مشى بجانب ضابط النخبة يجر قدميه بتثاقل حتى سلك الآخر طريقاً ملتويًا أدى بالاثنين إلى الجانب الشرقي ..
رفع رأسه ليرى منزل ساري خاويًا .. وبجانبه منزل الدهان مغلقاً بابه

بعد أوامره عصر هذا اليوم .. واستقر ضابط النخبة عند المنزل الثالث!

التفت جمال إليه وقال بعجلة :

- أهذا منزلك؟ إنه للشيخ الكبير الذي يشترك مع المجنون بنفس الاسم؟

ابتسم رعد ومسح على صلعته بمرح لم يشاركه به جمال فقال :

- أوه .. لم أقدم لك نفسي إلا بشخصيتي الحقيقية فأنا ضابط النخبة رعد وأنا الشيخ الكبير .. وأنا المجنون ميمون .. وأيضاً أنا .. الخادم ذو الشعر الفضي الذي كان يلازم ساري!

- ماذا؟!!

توقف جمال عند بوابة منزل رعد وأمسك بكتفه بقوة :

- لا أصدق .. هل أنت جاد؟ لا تكذب علي فأنا في مزاج لا يسمح لي باستقبال الدعابات .

- حسناً .. حسناً .. لا بأس .

أدار المفتاح في الباب الخارجي لمنزله ودخل ثم تبعه جمال إلى الصالة الرئيسة للمنزل وهي شبيهة بتصميم صالة ساري التي عُقد فيها الاجتماع الأول، لم يشعل من الإنارة سوى شمعة واحدة فوق إحدى الطاولات وأحاطها بكرسيين متقابلين .

ذهب الضابط ليبدل ملابسه المبللة بالدماء ويزيل الأصباغ عن وجهه بينما استقر جمال أمام مغسلة في المطبخ فغسل وجهه وكفيه التي تيبس الدم

فوقها .. ثم عاد إلى الصالة ليجد ضابط النخبة يحمل إبريقاً من مغلي النعناع وكؤوساً زجاجية صغيرة .

كان رعد أبيض يميل للاصفرار ذا فم طويل وابتسامة جذابة وعينين باللون الأزرق الفاتح، أحكم إغلاق زر عنق بدلته البيضاء الأنيقة، ثم صب كأساً لجمال الذي علق عينيه على السقف بشرود، كان لون الغرفة أحمر بفعل تأثير إنارة الشمعة البسيطة بينما غاصت زوايا الصالة في ظلام دامس . قال رعد :

- تفضل .. تبدو المسألة صعبة بعض الشيء، لكنك ستعتاد على هذا النوع من القضايا في المستقبل، أما الآن فمبارك لك النجاح في مهمتك الأولى .
- أنا لا أفهم أي شيء .. كيف تهنتني بالنجاح؟! لقد فشلت .
- بلى، ألم تكن تقاريرك وافية عن القرية .. هذه هي مهمتك الأولى فقط .. أما مهمة مراقبة أدائك أنت وزميلك المستجد فقد تم إرسالها بشأنها .. ثم أرسل الضابط ساري رسمياً .. للقبض على القاتل، آه .. كم كانت معاشرته متعبة .

وضع جمال يديه على رأسه متألماً .. وتنهَّد قائلاً :

- لقد اختلطت حيثيات القضية علي، هلاً شرحت لي إياها :

شرع الضابط رعد بالحديث :

- حسناً .. في البداية عُقد اجتماع شرطة العاصمة .. ليتم إرسال الوحدات إلى القرى ولم يُخصص لقرية العنقاء إلا وورقتان سحبتهما أنت وهارون بالمصادفة، في تلك الأثناء ادعى رئيس الشرطة أنه نسي ورقة وأن العدد

المفترض إرساله ثلاثة فقام بأمر ساري بالالتحاق بوحدةكم .. لكن ساري من ضباط النخبة ولا يتم إرساله إلا للقبض على مجرمين أو قضايا خطيرة وقد كان من الغريب إرساله مع مستجدين لكتابة تقارير روتينية .. وفي نفس الوقت دعاني أيهم رئيس الشرطة وأمرني بأن أتابع عملكم في القرية وأوجهكم بشكل غير مباشر، لذا ذهبت قبلكم .. واستأجرت المنزل في الجانب الشرقي باسم ميمون على أي شيخ كبير ينوي الاستجمام في هذه القرية الوادعة!

بعدها تنكرت بشخصية المجنون ميمون حتى يتصرف الناس بطبيعتهم أمامي ولا يدعوا المثالية كما فعل بعضهم أمامكم حين وصولكم، لقد اكتشفت ضرائب العمدة وجرائم السرقة التي يأمر بها الحراس .. فأخبرت هارون الذي اشتكى للعمدة وتظاهر الآخر بأنه سيردع حراسه .. لكنني علمت بأنه محتمل قدر أمرهم بتأجيل سرقة جيوب الناس حتى موعد رحيلكم من القرية .. وقد تحققت من هذا أثناء سماعي لحديث السكان بعضهم مع بعض .

قبل مجيئكم أدبتم اختباراً بسيطاً مع المشرف شادي رفض ساري حله وكتب كلمتين استهزاءً بالأسئلة .. عموماً لم يعاتبه المشرف لأنه يعلم أن الشرطة لم ترسله لاستكشاف القرية مثلكم بل لمهمته التي يبرع فيها وهي القبض على المجرمين .. إنه لم يفشل قط ..

وبها أني وساري تخرجنا من دفعة واحدة لذا كنتُ الوحيد الذي يستطيع التعامل معه متجاوزاً عن تصرفاته المنفرة .

فور وصولكم .. ذهبت أبحث عنه متنكراً بهيئة المجنون ووجدته يحاول النوم جالساً تحت ما يلقبونها بشجرة الموت .. ثم أحببت أن أعرفه بنفسه فرميته بثمرة خوخ على رأسه!

ضحك رعد بمرح ثم أردف :

- لأصدقك القول .. لقد خفت عندما رفعتني من ثيابي وحاول طرحي على الأرض .. إلا أنه نظر مباشرة إلى عيني واكتشف بسرعة من أكون .. لذا أفلتني محذراً، وبعدها انطلقت إشاعات سليم في القرية كالوباء بسرعة ..! وفي مساء أول يوم لكم في القرية ذهب ليستأجر منزلاً ووجد اسم ميمون في منزل فخم على الجانب الشرقي فاستأجر منزلاً بجواري ..

بعدها .. ناديته من فناء منزلي بصوت جديد بلقب يكرهه عندما كان يستمتع بمشروبه الخاص : (ها قد أتيت يا طفل العاصمة المدلل ..) ثم زرته في اليوم الذي يليه .

- طفل العاصمة المدلل!؟!

- حسناً إن لهذه التسمية التي يكرهها قصة غامضة حدثت في صغره فقد كانت عائلته صغيرة مكونة من والديه وأخ يصغره بعامين .. كان ساري الابن الأكبر الذي يعتمد عليه لذا في أحد الأيام التعيسة عندما كان طفلاً في الثامنة من عمره ترَجَّل من السيارة ليحضر حاجيات من المتجر وبعد أن اشتراها خرج ليشاهد أمام عينيه سيارة مسرعة في اتجاه معاكس لسيارة والده الذي كان ينتظره!

اصطدمت السيارتان في حادث مروع ومات السائق المتهور بينما قُتل أفراد عائلته وتمزقت أجسادهم إلى أشلاء متناثرة أمام ناظره .. لم يعرف الطفل الصغير كيف يتصرف وما ينبغي فعله لذا ذهب لإخراج قطعة الزجاج التي اخترقت جسد والدته وقطع الحديد الحارة التي قطعت أحشاء والده وأخيه الصغير .. فهو لم يتقبل حقيقة موتهم أو لم يرد أن يستوعبها أصلاً .

ظل واقفاً بلا دمعة واحدة حتى عُشي عليه بجوارهم .. أسعفت أسرته بلا فائدة ..

وتم أخذ الطفل إلى المستشفى الذي فقد قدرته على الكلام لعدة سنوات .. فأتى جده لوالده من مدينة أخرى ليعيش مع الطفل اليتيم .. لقد كان جده صديقاً للملك وقد كانت ثروته وثروة ابنه والد ساري ضخمة جداً .. لذلك قام بتعيين معلمين خاصين لحفيده في المنزل .. وقد عانوا أشد معاناة لأنه كان لا ينطق إلا جملة أو اثنتين فتم الاتفاق على أن تكون اختباراتهِ كتابية .. بعدها توفي الجد عندما بلغ ساري التاسعة عشرة من عمره فآلت إليه ثروة ضخمة جداً وقصور في مناطق متفرقة .. ما زالت ملكه ولكنه آثر العيش وحيداً في منزل عائلته وعين مديراً يتكفل بإدارة أمواله وفريقاً متكاملًا من الخدم والطهاة يعملون تحت إمرته ..

بعد موت جده استدعاه الملك وعرض عليه الانضمام للعمل في شرطة العاصمة .. فقبل ساري بذلك وقد كان شديد الذكاء سريع التعلم .. لم يجب العودة والمكوث وحده .. فكلما انتهى من مهمة بدأ بأخرى .. مما جعله ينال

ترقية تلو أخرى وقد كانت طريقته باهرة لذا كان رئيس الشرطة مسروراً بشأنه .. وأوصى المشرفين بالألّا يعاملوه كغيره .. وكما ترى شعره طويل جداً وقد يأتي مرتدياً ملابس مدنية أثناء العمل وسلوكه فظ ومخيف مع غيره .. ولا يستطيع أحد التقرب منه، بعدها أطلق عليه القلة ممن يعرف قصة طفولته المأسوية لقب طفل العاصمة المدلل .. كان يعلم بهذا لكنه يكره هذا الاسم .. أعرف ذلك من تعابير وجهه ..

- لم أكن أدرك أن طفولته مأسوية إلى هذا الحد .. لقد صُدمت تماماً من حديثك، لكن .. لماذا تخبرني بهذا عنه، أعتقد أنه سيغضب إن أذيعت قصة حياته؟

- لأنني أعلم يقيناً أنك لن تذيعها ولأنه يستمتع باستنتاجاتك وأعتبر هذا نوعاً من الثقة التي لم يصرح بها ..

- هل هو ممتن لاستثنائه من بعض القوانين في مركز الشرطة كما ذكرت؟

- إنه منغلق على نفسه .. غير ملتزم بالأنظمة وأعتقد أنه سيتصرف هكذا حتى لو تم منعه من ذلك، فهو لا يبالي بأحد منذ مقتل عائلته في تلك الحادثة .. اعتقدت أنه نسيها لكنه استيقظ قبل عدة أيام على كوابيس يرى فيها جثث أسرته .. ما زالت آثار هذه الحادثة مسيطرة على عقله، لم يستطع نسيانها .. حتى عندما ناولته حلوى الطفل التي تم توزيعها في السوق الشعبي ذكرت له الأنشودة القديمة التي ردها الأطفال فرماني بالحلوى ووضع يديه على رأسه مرة أخرى متألماً .. تذكرت بعدها أنه أخبرني سابقاً أن أخاه الذي يصغره كان يستعد للمشاركة بها في حفل المدرسة لذلك عادت إليه ذكريات الماضي الأليمة دون قصد مني .

- لقد ظننت أنه حمد بل إني أخبرته بذلك ..
- نعم لقد أخبرني بذلك وسلمك سلاحاً للدفاع عن نفسك في حالات الطوارئ حتى إنه أعطاك تلميحاً لم تفهمه .. ألم يقل لك ((تخلص من قلبك .. قبل أن أخلصك منه عنوة .. فأنت لست أعمى ولكنك تتعمى!!))؟
- بلى .. إذاً كان يقصد ..
- فتح جمال عينيه الخضراوين على اتساعهما مستدركاً بعد فوات الأوان .. فأجابه الضابط رعد :
 - نعم .. تخلص من قلبك .. أي من شيء تحبه أنت .. قبل أن يقبض عليه هو فتصدمك الحقيقة .. فأنت لست أعمى حقيقة ولكنك تتعمى إذ إن المجرم صديقك المخلص ولم تشك به يوماً واحداً بل كانت حياتك في خطر لو صارحته باستنتاجك !!
 أطرقت جمال رأسه مهموماً فأكمل رعد :
 - حسناً لنعد إلى يوم لقائنا في منزله .. طلبت منه أن أمثل دور خادم كي أراقبكما في الاجتماعات وأطلع بشكل غير مباشر على نتائجهما ..
 وفي أحد الأيام مشى ساري بجانب محل السيد صفوان وسمعه يقص عليك قصة مقتل الحداد عصام قبل تسع سنوات لذلك خشي من أن ثقة بائع الخضروات بك قد تمتد إلى صديقك الذي يشك به لذلك انتظر خروجك فعاد إلى السيد صفوان واتفق معه على أن يبقي فمه مغلقاً حتى انتهاء هذا الشهر وبعدها اختفى السيد صفوان وابنه ..!
 - ماذا حدث معها؟!
 - في الواقع لم يخبرني بشيء لذا أسأله بنفسك ..

كشّر جمال وهو يفرك يديه بتوتر :

- هل تظنهما قُتلا؟

- آسف ضابط جمال .. سأخبرك بما أعرفه فقط، وأنا لا أعرف يقيناً ما حلّ بهما .. لقد بذلت مجهوداً ضخماً في استخراج الكلمات من فم ساري الصامت وبالكاد حصلت على ما أقوله لك الآن بيد أنني لم أعرف شيئاً بخصوصهما .. لكنه أخبرني بأنه طلب من العجوز أن تؤجل زفاف حفيدها لضمان سلامتها خلال هذا الشهر على الأقل .. وقد كانت عاقلة ففعلت ما أمرها به .

- آه .. إذاً كان هو ..!؟!

- أجل .. وأيضاً لقد تحاورت مع الطبيب صابر بشأن الطفل حمد .. فخاف هارون الذي كان يراقبكما أن تصل إليه لذلك سبقك إلى العيادة وأحرقها عندما رأى الطبيب جلاً قد اكتشف وجوده وهو يبحث في خزانة الملفات ..

أحس جمال بالقشعريرة في جسده وهو يتذكر شعور المراقب الذي تبعه حتى باب السوق الشعبي .. إذاً لم يكن سوى هارون .. ذبلت عيناه في حزن وهو يرى في مخيلته الضابط المثالي والذي يحبه أهل القرية ويلعب معه الأطفال يقوم بقتل أبرياء وإحراق العيادة بدم بارد ..

لاحظه رعد وقال :

- نعم لقد كان هو .. أنا أيضاً رأيته عندما كنت أراقب العيادة بأمر من

ساري في هيئة ميمون التي رآها الشهود .. حينها خرج بسرعة متخفياً ثم اندلعت النيران، أحرقت كل شيء ما عدا الملف الذي سبقته إليه وأعدته إلى الطبيب صابر فيما بعد واطعاً ورقة أمره فيها بتوخي الحذر .. وبعد أن تجمع السكان جاء بهيئة البطل الخارق الذي سينقذ الضعفاء!

بعد أن علم ساري بهذا جاء مسرعاً .. لم يكن يخشى علي لأني ضابط من النخبة فحتى لو تنكرت بشخص مختل عقلياً فإنه يمكنني السيطرة على هارون ببساطة .. لكنه خشي على حياة الطبيب جلال لذا أمرك بالتحقيق وجمع الأدلة بينما قام هو بإسعافه .. ثم ساعده على التسلل وأمره بالاختباء في منزله!

- منزل ساري؟
- أجل حتى يضمن سلامته أبقاه أمام ناظريه في إحدى غرف قصره الكبير.

تذكر جمال أنه لم يفتش كل الغرف عند اللحاق بالمجرم فقد سحبتة فكرة بيت حمد السابق حتى أوصلته إليه ..

أكمل رعد :

- بعدها بعدة أيام .. هجم على سليم ليبرحه ضرباً ..
- صحيح لقد كنتُ وهارون نشاهد وأنت أيضاً في شخصية الخادم .. لماذا منعنا من مساعدته؟
- لأمرين مهمين أولهما .. أن ساري على الرغم من هيئته النحيلة فهو قوي جداً ومحترف في فنون القتال المجرد .. حتى وإن هجمتها أنتما الاثنان

عليه سيلحق بكما إصابات خطيرة كدفاع عن النفس .. والأمر الثاني أنّ سليماً تحدث عنه بسوء لا يمكن أن يُغتفر، لذا خشي إن وصل الأمر إلى سلطة العاصمة أن تسجن سليماً وتقيم عليه الحد شرعاً وتعاقبه بتهمة الاعتداء على ضابط يؤدي عمله، لم يكن بسبب ذلك التافه صاحب اللسان البذيء ولكن بسبب أنه العائل الوحيد لأمه وأخته وقد يضعن بعده ويتضررن إن تم حبسه لذا فقد قرر معاقبته بيده .

- إذاً من الذي كان يزوره ليلاً؟

ابتسم الضابط رعد وضرب على صدره بحركة تمثيلية تعبر عن فخر مصطنع :

- أنا .. لقد كنت أزوره بهيئة ميمون ومرات بهيئة الشيخ الكبير من دون وقت يسمح لي بإزالة التنكر لذا فقد كنت أضع رداء يخفي معالم وجهي وتنكرت على هيئة الشيخ عندما ضيقت علي الخناق في صورة ميمون .. حتى لا تزعجنا بتحقيقك بالأمر .. وعلى ذكر الإزعاج ..

تنحج الضابط فاهتم جمال لما سيقوله :

- أعتذر لك نيابة عن ساري الذي لن يعتذر لأحد أبداً .. فقد كنا نراقب بيت الفتاة العرجاء ليلاً لأنه اقترح على والدها الرحيل إلى العاصمة مؤقتاً على نفقات شرطة العاصمة ولكنه كان عنيداً وغير مقدر للعواقب فرفض التعاون .. لذلك كنا نكثف المراقبة في انتظار هارون للقبض عليه ولكنك لحقتنا فتضايق ساري من وجودك حتى لا تتسبب في إفشال المراقبة إن علمت بأن المستهدف صديقك .. لذا وقفتُ أنا بجانب الشجرة كطعم وباغتك هو بضربة من الخلف على جانب عنقك ..

تحسس جمال مكان الضربة التي تلاشى أثرها مع مرور الأيام ولكنه لم يقبل عذر رعد :

- كان من الممكن أن تخبراني بطريقة أخرى .

- هذا ما كنت أريده أيضاً لكن ذاك الغراب كما تسميه يتعامل مع المواقف بخشونة .

- إذا .. أخذتما شريط التسجيل وسمع ساري حواري مع سليم لذلك فعل به ما فعل ؟

- أجل .. سأعيد لك الشريط غداً .. وبما يخص حادثة اليوم قمتُ بالتنكر على هيئة جثته وعندما ابتلع هارون الطعم لحقنا بفضول .. لأنه يعلم أنه ما من قاتل ومجرم في هذه القرية الآن إلا هو ..

لكن ساري الحقيقي بلباس مدني قفز ليحملني إلى منزل الطفل حمد السابق قبل أن يصل هارون إلي ويكتشف أنني متنكر على قيد الحياة .. تتبع المجرم آثار بقع الدماء المزيفة التي سألت مني ليعثر علينا، لقد كان مغفلاً فوقع في الفخ بسرعة .

واجهه ساري بالتهم والأدلة وعرض عليه شهادة الطبيب جلال فاعترف قبل وصولك ولكنه رفض تسليم نفسه .. أتعرف بماذا أجاب؟! اعترف مفتخراً .. بوضع أعشاب سُمّية ليقتل ساري عندما جلب مشروباً له أثناء مرضه فقد كان يحس بمراقبته له .. لكن الآخر كان حذراً جداً وسكبه على الفور ..

صمت رعد قليلاً وارتشف من كأسه .. تذكر جمال شكل هارون الملطخ بالدماء وساري يقف مبتسماً أمامه كشيطان أسود فقال على نحو حزين :

- هارون .. لماذا لم تقبضوا عليه من قبل بطريقة أكثر سلمية؟ أقصد من دون إطلاق النار .. لم لم تساعد في ذلك؟

- إن مهمة التعامل مع المجرمين تم توكيل ساري بها ولست أنا .. ولقد حاول ساري قبل عدة أيام القبض عليه ولكنه تعثر لمرضه .. كما أنه من غير المسموح لنا التدخل في عمل أي ضابط آخر من طبقة النخبة من دون طلبه وأول من سيعاقبني إن خرقت القانون هو ساري نفسه .. فهو يكره التدخل في عمله أو مد يد العون له .

أدخل رعد يده في جيبه ثم أخرج آلة تصوير صغيرة وقال لجمال :
- لقد تسللتُ إلى منزل هارون قبل أيام وصورت نسخاً من مذكراته، هاك .. اقرأ دوافعه الغريبة فأنا أعلم أنك فضولي بخصوصها ..

أخذ جمال آلة التصوير ليرى ما التقطه رعد من مذكراته .. فقرأ الفصول الثلاثة الأولى ثم فتح عينيه برعب وقال :

- هل كان يعتقد أنه بسلب أرواحهم سيضمن لهم الجنة .. تباً .. كيف يفكر هذا .. هل هو يؤمن حقاً بوجود الإله ..!

كانت آلة التصوير ما زالت في يد جمال فضغط على مفتاح تحريك الصور عن غير قصد فوجد المذكرة الرابعة التي لم يقرأها .. كانت قصيرة وغير مكتملة .. قرأ جمال في سره :

(مذكرات السيد نكرة (د))

اليوم لاحظت على جمال الذي كنت أعدّه من خيرة أصدقائي شيئاً غريباً، إنه يبحث وينبش في الماضي للقبض علي بلا تهمة، للأسف .. لقد خاب ظني فيه .. وأفكر جدياً بانتزاع روحه بأسرع وقت، لكنني ما زلت مختاراً بالطريقة التي سأجعله فيها يجثو على ركبته أمامي ويتوسل إلي طلباً للعفو، إنه خائن خسيس .. يكفر بما أو من به من التوديع الرحيم لأرواح الضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصـ..

- إلى هنا انتهت المذكرة .

قالها جمال وهو يعيد آلة التصوير إلى رعد ببؤس شديد .

* * * *



الفصل الحادي والخمسون

شرع رعد في النهوض فوجد جمالاً ينظر إلى الأرض بقلق .. لذلك ربت على كتفه وسأله :

- ما الأمر .. هل هناك شيء؟
- لقد أحسست بشيء من ذلك، فور وصولنا .. شعور غريزي لا أعلم سببه .. بعد إلقائنا الكلمات تفرقنا .. شعرت بأني أريد اللحاق بساري .. مع أن هارون كان أقرب إلي منه!
- ربما يكون عقلك اللاواعي رفض تصديق شخص بمثل هذه المثالية .. شخصية ساري مع أنك تكرهها إلا أنه واقعي .. بينما المحبوب الذي لا يرتكب خطأ أبداً في حياته .. كان مزيفاً .
- أيضاً عندما بحثتُ في سجل المقاول سليمان وجدت أن عمر ساري تسعة وعشرون عاماً .. فلو كان هو حمداً قبل تسع سنوات فإن عمره حين ارتكب جريمته سيكون عشرين عاماً أي أنه ليس بطفل وهذا يخالف القصة الحقيقية ..!

- إذا لم أصررت على أنه هو؟ وواجهته بذلك؟
- صفات حمد القديم شابته صفاته ولأنه كان يلعب أثناء اتهامي له ولم ينكر .. حتى إنه غضب لأمر آخر بعيد كل البعد عن اتهامه، كان يضع قطع التركيب في أماكنها فتشابكت كلها ما عدا الأخيرة .. بعدما نطقت باسمه على أنه هو الطفل حمد .. قال أفسدت لعبتي!
- بمعنى أن استنتاجك وربطك لأحداث سجل حمد الإجرامي كان صحيحاً .. ولكن قطعة اللعب الأخيرة والتي لم يضعها هي أنك نطقت اسمه بدلاً من هارون ..
- لقد أخطأت في تصورك .. أغلب الناس يظنون هكذا .. أن صفات الشخص وأخلاقه ستحافظ على ثباتها مع مرور الزمن ولكن هذا غير صحيح، لأن الظروف ومصاعب الحياة قد تصقل أشخاصاً لتوصلهم إلى أعلى مراتب الاستقامة والإنسانية وقد تطحن آخرين فتحوهم إلى مسوخ بشرية ..
- مثل حمد .. لقد كان فتى نكرة معذباً ومضطهداً لذلك بعد أن تحرر من والده أراد أن يبدأ حياة جديدة فأصبح مثاليًا إلى حد غير معقول .. حتى وصل إلى مرحلة البغي والجور باسم العدالة .. فسقط إلى أعماق سحيقة من الدناءة والانحراف .

تحركت سبابة جمال فوق حافة الكأس بشكل دائري ثم قال :

- يا إلهي .. أغرب مصادفة مرت علي في حياتي أن يعيش المجرم والمحقق تحت سقف واحد ويتم إرسالهما إلى قرية واحدة ..

أسدل جمال جفنيه متأثراً ثم خاطب رعداً :

- أحسستُ تجاهك أيضاً بشعور غير طبيعي .

مشى رعد ذهاباً وإياباً ليفكر بالسبب ثم عاد ليجلس على الكرسي أمام

جمال .. فقال له :

- بِمَ شعرت؟

- كان ميمون عاقلاً واكتشفت ذلك عندما تحدث الشباب عن مدرستهم

في الماضي، لقد كنتَ تركز في الحديث لأنه مهم بالنسبة لك معرفة خلفية

حمد .. بينما لو كان ميمون مجنوناً حقاً لما اكرث بشيء .. وأيضاً عندما

أدرت المفاتيح في منزلك .. لقد أدخلتها بلا صوت وكذلك فتحت باب

غرفة التبديل خاصتك بلا صوت بعدما تنكرت بهيئة الشيخ الكبير ..

المخزي هو أنني لاحظت طريقة إمساكك الفريدة بالملعقة وتشابهها مع

طريقة الخادم في إمساكه قده الشاي ولم أحنن أنك الشخص نفسه ..

ضحك رعد بصوت عالٍ ثم اقترب من جمال وقال :

- حسناً .. أنا أستمتع بالتمثيل جداً، والآن بعد ربط الخيوط بعضها

ببعض .. فلنم قليلاً لأنني سأتكفل غداً بشرح الأمور للعامة وإخفاء

اسم هارون مع أن اليوم هو الثاني والعشرون من شهر صفر وقد تبقى

من الشهر ثمانية أيام إلا أنني أخذتُ الإذن من رئيس الشرطة بالعودة

إن تمت مهماتنا بسلام .. لذلك سنأخذ الخيل التي أودعناها عند العمدة

وسنلحق بهم في الغد إن شاء الله .

لقد رحل ساري بواحد وبقي اثنان .. الذي جئت به قبلكم والحصان
الذي أتيت أنت به ..

لذا ..

وقف الضابط رعد بقرب الشمعة وقام بحركة تمثيلية فأدنى رأسه منها ثم
نفخ عليها برقة .. فانطفأت ..

وانطفأت نيران العنقاء معها ..

لذا لم يعد الطير قادراً على إعادة نفسه كما في الأساطير ..

بل اختنق بدخان أفكاره السوداء ..

حتى غربت شمسها ..

وذابت أجنحته في غياهب الظلام ..

كان كلما اشتد لمعانه .. اشتدت فتنته ..

بيد أنه الآن أصبح صدىً ..

عديم القيمة .. عديم الفائدة ..

لكن هذه المرة ..

فعلاً ..

لقد انتهت صلاحيته!

* * * *



الفصل الثاني والخمسون

في صبيحة أول أيام شهر ربيع الأول .. كان جمال ينظر إلى المنبه الذي أيقظه في الساعة السادسة صباحاً، لم يكن قد فعل شيئاً بعد عودته من القرية إلى العاصمة أو قابل أحداً من الضباط إلا مشرف الوحدة شادي قبل أسبوع بالضبط .. والذي شكره ودعاه إلى الحفل التكريمي الذي سيقام بعد ساعة من الآن، كان جمال متضايقاً جداً .. فبحث عن زملائه الخمسة في السكن الذي يقيم به حالياً، لم يجد أحداً منهم ولم يعبأ بذلك فهو ما زال متأثراً من صدمته بهارون، يبدو أنهم سبقوه إلى الحفل، عقارب الساعة حثته على الإسراع .. لذا اغتسل على عجلة وارتدى بزة العمل الزرقاء اللون مع قبعته التي وجدها ملقاة بإهمال، تضجر في نفسه فقد بدا له أن أحد زملائه ظن أنها له ثم اكتشف عكس ذلك وألقاها مستعجلاً، شيء مثل هذه الفوضى .. كدر خاطره .

قاد سيارته في شوارع العاصمة المتطورة ثم توقف عند الإشارة الضوئية ليستمتع بكوب من النعناع .. أحس بفراغ كبير بلا هارون وبلا ضجيج قرية

العنقاء وإشاعاتها ومفاجآتها .. تذكر أنه ما زالت هناك أمور يجهلها لذا وإن كملت المهمة في عيني الشرطة إلا أنها لم تكتمل في ذهنه .

بعد خمس عشرة دقيقة .. وصل إلى صالة الاجتماعات التي كانت تنقسم إلى قاعتين واحدة للطعام وأخرى للاحتفال ..

كان الضباط والمشرفون كثيرين جدًّا في قاعة الطعام .. وقد اصطفوا أمام طاولة طويلة .. وكل منهم يضع في صحنه الخاص ما لذ وطاب من الوجبات الخفيفة الصباحية والمشروبات الساخنة وبجانبها أوعية زجاجية كبيرة مملوءة بالعصائر الطازجة .

لم يرق له الازدحام معهم لذا أراد أن يجلس على أحد الكراسي البعيدة ليبتظر وصول رئيس الشرطة وإعلان نتائج التقارير وأهلية انضمام القرى من عدمها ..

ناداه أحد زملائه الخريجين في الدفعة وعانقه بلهفة :

- مرحباً .. كيف هي العنقاء؟

- لا أدري بماذا أجيبك ..

- سمعت أن طفل العاصمة المدلل تم إرساله معكم، هل هذا صحيح؟

- أجل .

- إذاً لا بد أنه أحضر مجرماً معه .. سمعت أنه يتلذذ بالقبض عليهم! حسناً من هو المجرم فيها .. هل تعرفه؟

أحس جمال بغصة في حلقه حبست جميع الحروف وربطت أوتاره الصوتية بألم .. ماذا يقول لزميله الذي ينتظر؟ هل يقول تم القبض على صديقي هارون؟

شعر بالحسرة التي لاحظها ذلك الزميل فوراً فاعتذر :

- أوه .. يبدو أنك منزعج بشأن ما، لذا أعتذر عن تطفلي .

- ل.. لا بأس، أين يجدر بنا الجلوس؟

- في المقاعد الخلفية كالعادة، فما زلنا مستجدين .. والقاعة تم ترتيب كراسيها بألوان متميزة .

الصفوف الأولى الحمراء للنخبة .. ثم الخضراء .. ثم الزرقاء ...

لم يصغ جمال لشرح زميله فقد سرح خياله بعيداً .. وهو يتذكر جلوسه مع هارون بعد ترحيب رئيس الشرطة بهما ثم سحبهما لأوراق القرى .

عاد إلى أرض الواقع ليرى زميله قد يئس منه وذهب ليأخذ إفطاراً له من قاعة الطعام المزدهمة .

كانت شهية جمال مسدودة لذا اكتفى بما شربه في السيارة، لم يكن في قاعة الاحتفال إلا هو وشخص آخر هناك!

لاحظ رأساً أسود كثيف الشعر يجلس في الصفوف الأمامية وحده .. فأسرع ليحدثه قبل دخول رئيس الشرطة ..

رأى ساري مغمضاً عينيه نائماً، فخرج جمال إلى قاعة الطعام ثم عاد ومعه كوبان من القهوة، وقف أمام ضابط النخبة وناداه بصوت هامس :

- ساري .. استيقظ بسرعة .
- رفع ساري رأسه ثم وضع يده على فمه متثائباً ورد بصوت ناعس :
- أوه .. هذا أنت أيها المستجد، هل جئت لتشكرني؟!
تنهد جمال بنفاد صبر فحشه مستعجلاً :
- وهل تخالني سأشكرك على ضربي فوق التل ..؟! حسناً .. هناك في حديقة المدخل الأمامي .. أريدك أن تأتي معي قبل بدء الاجتماع، لدي عدة أمور أود معرفتها .
- رفع ساري شعره الذي غطى عينيه وقال :
- ولماذا لا تقوله هنا؟
- تلقت جمال حوله ينظر إلى الضباط الذين دفعهم الفضول لمراقبة المستجد مع الضابط العنيف فقال :
- أمر واحد من الأمور التي سأناقشها معك قد يبدو خاصاً جداً بالنسبة لك .. لذا لا أستطيع هنا .
- اعتدل ساري في جلسته وقد أخذته الحيرة ثم نهض بسرعة وسار جمال خلفه مرتبكاً .. عبر الاثنان مدخل مركز الشرطة حتى وقفا في مكان بعيد بحيث لا يمكن لأحد استراق السمع أو التنصت عليهما .. كان الجو صحواً عندما وقف الاثنان وجهاً لوجه بجانب سياج شجري مشذب بعناية ..
- نظر الضابط الطويل إلى جمال فمد له المستجد يده وأعطاه كوب القهوة وأبقى الآخر معه .. أخذ ساري الكوب بصمت فبدأ جمال حديثه :

- إن القهوة التي تعد هنا ليست من النوع الفاخر اللذيذ .. ولكنها جيدة إلى حد ما وقد تجعلك تركز أكثر فيما أود قوله .. في البداية لدي أربعة أمور لم أفهمها تخص مهمتنا في قرية العنقاء وأردت سؤالك عنها .. لكن قبل ذلك هل ستتم محاسبتني عندما وضعت السلاح على رأسك؟!!

ارتشف ساري من القهوة فامتعض قليلاً لمرارتها ورمق جمال قائلاً :

- ما هذا العلقم الذي أحضرته؟! حسناً بالنسبة لسؤالك .. فإنه يعتمد علي وعلى الضابط رعد فيما لو كنا سنخبر بهذا الأمر أو لا .. لكن اطمئن .. لقد استمتعت جداً بذلك ولهذا اتفقت ورعد على أن يتم التكتم على تصرفك المتهور .

ظهرت بوادر الارتياح على ملامح جمال متغاضياً عن التعليق الوقح على مذاق القهوة، ثم لمعت عيناه الخضراوان وشرع في أسئلته :

- إذاً .. سأسألك السؤال الأول لقد كان هارون معنا منضبطاً جداً كيف شككت به لأول مرة؟

- شككت به لأول مرة بسبب الحصان!

- حصان ..؟

وضع ساري يده على فمه متثائباً ثم قال :

- لقد خصصت العاصمة لكل واحد منا حصاناً نستقله في مركز الشرطة القريب نسبياً من القرية .. فرحلنا بثلاثة ولكننا وصلنا بحصانين فقط ..! ألا تعرف ما يعني ذلك؟

نظر جمال إلى الأسفل متذكراً .. صحيح فقد أكملوا نصف مشوارهم على حصانين .. ولكن .. عصر ذاكرته بقوة فاستجابت له أكثر .. تذكر أنه نهض من نومه بعد فترة استراحة وقد أخبره هارون بأن حصانه هرب في الليل، لذا أركبه جمال معه ببساطة!

رفع عينيه لينظر إلى عيني ساري الواسعتين وقال بتصميم:

- هل ستخبرني بأن ..؟

- نعم .. لقد استيقظت بعد حلم مزعج في منتصف الليل لأراه يقتل حصانه ثم يدفنه بعد أن تعثر وأصيبت قدمه .. لأنه لم يعد صالحاً للسفر، لذلك ظللت أراقبه وأجمع حوله الأدلة المتفرقة والتي آخرها شهادة الطبيب جلال ومذكراته حتى تيقنت من كونه المجرم .

فتح جمال فمه ثم أغلقه وقال :

- حتى الحيوان المسالم!

- والسؤال الثاني؟

- السؤال الثاني يخص هوية الرجال الغرباء الثلاثة الذين قيدوا هارون .. من هم بالضبط؟

- إنهم حراس شخصيون كانوا معنا في القرية طيلة مكوثنا لحراستي، للأصلح أيضاً حراس لكنه تركهم في العاصمة أما أنا فيرافقونني كالظل دائماً حتى لو اعترضت .

- لماذا لا تركهم خلفك بعض الأوقات مثل الضابط رعد؟

- أمر خاص بي من جلالة الملك، لا أستطيع عصيانه .

تذكر جمال حديث رعد عن علاقة الملك بجد ساري .. لذا قفز إلى السؤال الثالث فقال :

- قبل أن نطلق إلى العنقاء .. عندما كنا في السكن بعد قرعة القرى .. لم نكن نعرف بعضنا بعضاً سوى بالأسماء .. لماذا قلت لي : (ستشكرني يوماً ما)؟

صمت ساري قليلاً وهو يحدق في القهوة التي يحرك سطحها الهواء الناعم .. ثم نطق بهدوء :

- لأنك تذكرني بـ .. به، إن شخصيتك مماثلة له جداً .. كنت أكره النظر إليك لأنني أراه فيك طيلة الوقت .. كان عاطفياً مثلك تماماً ودائماً يلجأ إلي لمساعدته، لذا تخمنت أنك قد تحتاج للمعونة في مهمتك، فأبقيت سلاحاً معك عندما زرتُ منزلك في قرية العنقاء .

كان جمال مندهشاً فخفض عينيه في حزن بعدما سمع كلمات ساري التي كان يقصد بها أخاه الذي توفي في الحادثة القديمة، لم يتوقع أبداً أن يكون لساري هذا الجانب الرقيق من الإنسانية .

تكلم ساري باستهزاء رافعاً حاجبيه من تحت خصلات شعره الأملس :

- أرجو ألا تظن أنني فعلته من أجلك، إنما هي نزعة شخصية بسبب مشاعر مرتبطة بشخص آخر .

لم يجارِه جمال بل قال مواسياً :

- لقد علمتُ بشأن ما جرى لعائلتك في الماضي ويؤلمني سماع ذلك جداً، ولكنك لست وحدك كما تظن .. ففي غمرة انغلاقك على ذاتك وحزنك الشديد عليهم .. هناك شخص ما يهيمه أمرك .. ويكن لك مشاعر حب صادقة .. لذا يجب متابعة أحوالك والاطمئنان عليك بين الفينة والأخرى ..

قاطعته ساري بحدة :

- إن كنت تحاول مواساتي بعباراتك التافهة فأنصحك بالعدول عن ذلك وتوجيه شفقتك إلى من يستحقها ..

ظل جمال ينظر إليه بصبر مبتسماً ثم قال :

- أنت سيء جداً في التعبير عن مشاعرك .. لأنني متيقن من أنك تحب هذا ..

رفع جمال ورقة نقدية وقربها إلى عيني ساري فأبعدها الآخر بعنف وقبل أن يتكلم بادره جمال بسرعة فقال :

- لم أقصد المال وأنت تعلم ذلك .. بل أقصد الصورة المرسومة على الورقة النقدية ..

وأشار جمال بإصبعه إلى صورة الملك على ورقة الدرهم الجهماري .. ثم تابع :

- هل يُعقل أن شخصاً يكن لك كل هذا الاهتمام والتقدير هو مجرد صديق لجدك؟! هذا ما يعرفه الجميع عنك .. لكن الحقيقة التي توصلتُ إليها

والتي تعرفها أنت ورئيس الشرطة والضابط رعد .. أنه لم يكن صديقاً
لجذك أبداً .. بل كان أخاه .. وهذا يجعلك من العائلة المالكة لهذا البلد!!

كان ساري يحدق في جمال مبهوتاً ولم يستطع الكلام فواصل الآخر :

- ومع أني ما زلت أجهل حقيقة إخفائك لهذا الأمر إلا أنه يخصك وحدك.

نظر ساري إلى السياج العشبي ثم إلى الرصيف تحته وهو ما زال تحت
تأثير الصدمة ثم أخرج الكلمات من فمه بصعوبة :

- س .. سأعود إلى القاعة .

أدار ساري ظهره ومشى بسرعة فأمسك جمال بمعصمه الذي ما زال
يمسك به كوب القهوة فاهتز الكوب وتساقطت قطرات سوداء على
الرصيف ثم قال له :

- بقي السؤال الرابع ..

كانت بشرة ساري البيضاء قد شحبت أكثر، ظل ينظر في الفراغ .. ثم رد
على جمال المتحمس بإشارة خفيفة من رأسه وقال بصوت هادئ :

- أسألني لاحقاً .

ثم قفل راجعاً إلى قاعة الاجتماع .



دخل ساري يتبعه جمال إلى قاعة الاجتماع فنظر إليهما رئيس الشرطة بنظرة مستفهمة عندما رأى وجه ضابط النخبة الأبيض وقد حُطف لونه ..

فأشاح ساري عنه وجلس في مقعده بينما أسرع جمال إلى مقعده في الصفوف الخلفية وسط نظرات الفضول .. جلس جمال بسرعة متوتراً لأنه لم يسأله عن أهم أمر يشغل باله وقد كان يشعر بوخزات بسيطة من تأنيب الضمير بسبب تصرّحه لساري قبل قليل ..

التفت زميل جمال الذي كان معه في القاعة سابقاً وقال :

- ما بالك كنت تكلم التمثال الصامت في الخارج؟ هل تتزلف له؟
- كنت أتحدث معه بشأن مهمتنا السابقة .
- رفع زميله حاجبيه وحك رأسه مستفهماً :
- حقاً؟! .. إنه لا يتكلم أبداً مع أي شخص سوى القلة من الرؤساء .. حتى إننا ظنناه أخرسَ في بادئ الأمر .
- بلى، لقد تحدثت معي الآن .. وسابقاً في المهمة .
- هذا غريب فعلاً!





الفصل الثالث والخمسون

تنحنح رئيس الشرطة وألقى كلمة طويلة جداً نام ساري خلالها بينما كان جمال يجلس على أعصابه منتظراً انتهاءها ليعود إليه ويسأله السؤال الأهم.. دخل المشرفون واصطفوا بجانب رئيس الشرطة .. فتحدث كل منهم عن وحدته ومهمة أتباعه وكون القرية قابلة للانضمام من عدمه ثم القرار النهائي، وأخيراً جاء دور المشرف شادي ليتحدث عن قرية العنقاء .. وقد أسهب في حديثه وذكر اسم الفتى الأسود ثامر كمواطن متعاون .. حتى أعلن أنها ستنضم إلى بلادهم بعد إعفاء العمدة من منصبه وتعيين عمدة آخر تعينه حكومة جهارا!

كانت أكثر الأصوات مستهجنة حدوث ذلك .. لكن المشرف شادي عاد ليعلن :

- حصلت بعض الأمور الشائكة هناك إلا أنه تم إرسال ضابط النخبة ساري الذي استطاع القبض على المجرم والعودة به، بينما تستر الشرطة على هويته لحين النطق بالحكم عليه .

توجهت الأنظار إلى ضابط النخبة ذي الشعر الطويل الذي استيقظ عند

ذكر اسمه ولم يكثر بنظراتهم بل استمع ناعساً بوجه خال من التعابير وكأن
إمساكه بالمجرم أمر بدهي مفروغ منه لا يحتاج لهذه المقدمة ..!

ثم تسلم رئيس الشرطة أيهم مكبر الصوت وتقدم مساعده ي حملون
الدروع وشهادات التكريم إلى جانبه ليعلن المركز الأول فاشرأبت أعناق
المستجدين لمعرفة حامل اللقب .. بينما كان جمال يجلس في جزيرة نائية وحيداً
مفكراً في أسوأ الاحتمالات التي يتوقعها للإجابة عن سؤاله المهم .

هبط على أرض الواقع عندما سمع اسمه .. وحرارة التصفيق تلهب
قلبه، التفت بتعجب إلى زميله :

- ما الأمر؟

رد زميله بصوت عالٍ حتى يتسنى لجمال سماعه :

- لقد فزت بالمركز الأول في التقرير .

رأى رئيس الشرطة ينظر إليه بابتسامة رضا وبجانبه المشرف مفتخراً
به .. ارتبك وأسرع لتسلم الدرع فهنأه الرئيس ثم قلده وسام شرف وأمره
بتوجيه كلمة لزملائه المستجدين ..

لم يدر في خلد قط أن هذا سيحدث!

ظن أن الأمر مزحة، ولكنه انتبه إلى نظرة الحضور المترقبة فقال متوتراً :

- لقد كانت القرية مشوشة جداً .. وعمدتها شخص صعب لكننا وصلنا
في النهاية إلى حل لمعظم مشكلات السكان وكسب ثقتهم بنا ومحبتهم لنا
هناك والله الحمد ..

طلب المشرف شادي من الحضور توجيه أسئلة له حتى يستفيد زملاؤه
المستجدون من تجربته، فابتلع جمال ريقه راغباً في خياطة فم المشرف المتهور..
رفع أحد الحضور يده ليسأل :

- لقد سمعت أن هناك جرائم قتل حدثت في الماضي واختطافاً حصل عند
مجيئكم .. فهل الضابط هارون تم اختطافه هناك حيث إننا لا نراه معك
الآن؟!!

تعرفت جبهة جمال وصر على أسنانه .. لم يستطع الإجابة أبداً .. فأمسك
مكبر الصوت بيد مرتجفة، ثم جاء صوت من ضباط النخبة عالٍ جداً لا
يحتاج إلى تضخيم .. فرد بدلاً عنه :

- لقد سمعتم في خطاب المشرف قبل قليل أن المجرم ستتم محاكمته سرّاً
بناءً على طلب رئيس الشرطة، أما الضابط هارون فقد ساعد في كشف
المجرم بطريقة مختلفة .. لذلك .. أرجو عدم التطرق لموضوع المجرم
والذي هو من اختصاص ضابط النخبة ساري ورئيس الشرطة فقط
وشكراً!..!

بحث جمال عن مصدر الصوت بامتنان فوجده ضابط النخبة الممثل
الأصلع!

شعر براحة بعد إنقاذ رعد له .. فنزل ماراً به وشكره ثم عاد إلى مقعده ..
توالت الأسماء والتكريم وعينه تراقب ساري متحِيناً انتهاء هذا
الاحتفال .. ولكنه لاحظ أنه استخدم جواله مجيباً على اتصال ثم أغلقه
ونفض بسرعة خارجاً من القاعة بلا استئذان!..!

حاول اللحاق به ولكن عريفاً ضخماً يقف إلى الباب سأله عن سبب خروجه .. فأجاب كاذباً :

- لدي مشكلة ضرورية ولا أستطيع سماع المتحدث هنا .. لن أتأخر .

سمح له العريف بالخروج .. فراح يركض باتجاه البوابة الخارجية، وعندما وصل رأى ساري يستقل سيارة سوداء فخمة جداً مظلمة النوافذ .. يقودها سائق ومعه عدد لا بأس به من الحرس ثم مرت السيارة كالبرق أمامه مخلفة وراءها غباراً .. ركض جمال ليلحق بها إلا أن صوت حارس عنيف ممسكٍ بالسلاح يزجره :

- أيها المستجد .. ماذا تفعل هنا؟

فزع من المفاجأة .. ولم يجب الاستمرار بالكذب لذلك قال :

- أردت محادثة ضابط النخبة في أمر هام ..

أخرج الحارس صوتاً يدل على عدم التصديق وقال :

- عُد من حيث أتيت .. لقد تم استدعاؤه من قبل مكتب فخامة الملك .. لذا لا فائدة من بقائك هنا!

عاد بخفي حنين ليجد الضباط والمستجدين يتبادلون المباركات والتهناني والأحاديث عن تجاربهم فقد أنهى رئيس الشرطة والمشرفون حديثهم ورحلوا ..

رأى من بعيد صلعة مبتهجة .. فذهب إلى رعد مستفسراً :

- سيدي الضابط .. متى سيعود ساري .. هناك أمر مهم أريد سؤاله عنه؟

- ضابط جمال .. لا تنسَ أنك في مقر الشرطة الآن فلا بد أن تذكر قبل اسمه كلمة ضابط لأنه من النخبة وإلا فستعرض للمساءلة، وبالنسبة لعودته لا أعرف .. ربما يكون قد استلم مهمة أخرى .

فتح جمال عينيه مدهوشاً :

- بهذه السرعة! .. قبل أسبوع تقريباً انتهينا ..

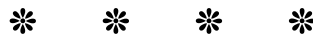
- لقد أخبرتك من قبل .. هو لا يجب العودة إلى منزله لذا يستلم مهمة تلو أخرى .. لكنني أظن أن فخامة الملك استدعاه ليسأله عن حاله، إنه يفعل ذلك بين الفينة والأخرى، بالمناسبة ..

لقد أخبرني المشرف شادي أنه بإمكانك تقديم طلب إجازة بعدما نجحت في مهمتك الأولى ..

استبشر جمال وقال :

- لا أعلم كيف أشكرك يا ضابط رعد فأنت تساعدني كثيراً .. لكنني ما زلت أجد الأمر صعباً في استيعاب أن الذي يقف أمامي هو ميمون والخادم والشيخ، أنت تمتلك موهبة مرعبة حقاً!

ضحك رعد ثم ودعه .. ليذهب جمال بسرعة طالباً إجازة تمكنه من العودة بعد كل هذه السنوات الخمس في التدريب، وصله الرد سريعاً بإعطائه ثلاثين يوماً، فلم يدع دقيقة تمر منها هباءً لذا انطلق بسرعة إلى مسكنه ليرتب حقيبة السفر .





الفصل الرابع والخمسون

كان والد جمال الذي خرج للتو من المستشفى بعد عملية ناجحة مسروراً
بابنه بعد نجاحه في مهمته الأولى وفوزه بالمركز الأول في أفضل تقرير ..

قطع حديثهما نداء أخي جمال الصغير :

- متى سوف يأتي ضيوفك من الشرطة؟

- سيأتي الكثير منهم للسلام على والدي بعد صلاة العشاء .

أسرع الفتى الصغير ليجلب الضيافة متحمساً لرؤية زملاء أخيه الكبير،
بعد الثامنة مساءً توافد الضيوف على منزله واحداً تلو الآخر للسلام على
والده حاملين معهم باقات الورد وعلب الحلوى .. كان المجلس ممتعاً وقد
أمتعهم والد جمال بحديثه المرح وروى قصصاً طريفة حدثت معه أثناء مكوثه
في المستشفى متعمداً تجنب ذكر أي قصة مأسوية حزينة حصلت هناك - وما
أكثرها - بعد ذلك فُتح الباب فدخل الضابط رعد محملاً بالهدايا ثم عرف
بنفسه ليندمج بسرعة في حوار مضحك مع والد جمال فقد كان الاثنان من
هواة إطلاق الدعابة .. سأله والد جمال مازحاً :

- لا بد أن جمال أتعبك في مهمته الأولى .. فهو فضولي جداً .
- ضحك رعد وأخبره بأن جمال كان مثابراً جداً، رغم ما تحمله من الصعاب هناك .
- إذاً .. أين الضابط الآخر الذي كان معكم؟ نسيت اسمه ولكن ابني أخبرني أنه مثلك من النخبة .
- وقع ابنه في حرج فهو تعمد عدم دعوة ساري في هذه الليلة مع بقية الضباط خشية أن يخرجه أمام والده .
- رد رعد بجدية :
- أعتقد يا عم أنه في مهمة ثانية بعد مهمته مع ابنك ..
- انزعج والد جمال وراح يلوم ابنه :
- اتصل به الآن لأكلمه وأشكره على مساعدتك .
- حاول ابنه التملص من طلب والده :
- لا أملك رقمه ..
- قاطع الضابط الأصلع بلووم ضاحكاً :
- تفضل هاتفي يا عم لقد اتصلت به .

أخذ والد جمال هاتف رعد النقال وظل ينتظر إجابة ساري على الاتصال، بعد عدة دقائق .. رد عليه .. ليقوم والد جمال بالتعريف عن نفسه ودعوته

إلى منزله متى ما وجد وقتاً لذلك، ثم ظل صامتاً يستمع للمتحدث .. فأوماً
موافقاً .. وقال لابنه بعد الانتهاء من المكالمة :

- يقول الضابط .. إنه لا يستطيع فليديه مهام عديدة ولكنه يبلغك بأنه
أرسل هدية من نوع خاص إلى منزلك وستصلك اليوم بإذن الله !..!

تبادل جمال ورعد النظرات في تساؤل بشأن الهدية التي تم تخصيصها له
فقط .. فلعبت الظنون السيئة دورها في عقل المستجد الذي عانى من ملازمة
ذاك الذي ينعته بالغراب الصامت، وأثناء انغماسه في أفكاره .. رن جرس
الباب .. فهرع أخو جمال الصغير للإجابة عليه ثم عاد ومعه الضيف .

لم يصدق جمال ما رأى فقد شعر بأن قلبه سينفجر من كثرة تهافت
الصدقات عليه، لقد كان هو الذي ظنه قد مات وتحلل ..

أول شخص تعرف عليه جمال في القرية .. وأول شخص وثق بجمال
وأول شخص أعطاه خيوطاً لقضية حمد ولم يبخل عليه بأي معلومة يريد لها ..
أمامه مبتسماً ..

وقف السيد صفوان بائع الخضار ممسكاً بيد ابنه وليد الذي ما زال مرتدياً
نظاراته الشمسية المهداة من الطبيب صابر ..

هب جمال إليه مستبشراً .. فتعانق الاثنان في لهفة، وانحنى ليضم الطفل
الكفيف إليه حابساً دموعه .. وهو يردد :

- الحمد لله .. لقد حسبتكما ..

لم يكمل الجملة فقد انهمرت الدموع من عينيه وسط صمت الضباط في مشهد مؤثر فسالت دميغات حنون من عيني والده من أجله مع أنه لا يعرف الرابط بينهما ..

تحسس وليد وجه جمال وقال ببراءة :

- أنت الضابط الذي كان يحتسي شراب النعناع مع أبي، لقد اشتقت إليك يا عم واشتقت لعمي الطبيب صابر أيضاً ..

أمسك الضابط يديه برأفة وقال :

- لقد ضُمت قريتكم لبلاد جهمارا وقبضت الشرطة على المجرم .. لا داعي الآن لإخفاء عينيك فأنت بأمان إن شاء الله، وستزور قريتك وأهلها في القريب العاجل .

ذهب السيد صفوان ليسلم على والد جمال الذي كان يجلس على سرير خاص ليمد رجله بعد أن أجرى عملية في إحداهما .. وبعد أن قعد على إحدى الأرائك .. سأله جمال :

- أين كنت يا رجل .. لماذا اختفيت ولم تخبرني؟

تعذر السيد صفوان بإحراج وقال :

- لم أستطع فقد أتى إلي الضابط ساري في منتصف الليل وشرح لي الوضع باختصار ثم أخذني وابني إلى الحدود ومعه رجلان ضخمان تابعان له فأمرهما بإيصالنا بخيولكم إلى مقر الشرطة القريب من قريتنا ثم نستقل

طائرة خاصة إلى العاصمة .. وقد أخذت معي كل أموالى فاستأجرت منزلاً صغيراً هنا وألحقت ابني في مدرسة متخصصة في تعليم المكفوفين ..

- أنت كنت في العاصمة وأنا أبحث عنك في القرية .. آه رأسي بدأ يؤلمني ..
ضحك السيد صفوان ..

بينما أنزل جمال عينيه في سعادة .. لقد كان هذا هو السؤال الرابع الذي أراد أن يطرحه على ساري .. لكنه لم يستطع .. لقد عرف ضابط النخبة ذو الشعر الطويل ما أراد المستجد منه فقام بإرسال صفوان وابنه إلى منزل جمال في مناسبة سارة وسط حضور الأهل والأصدقاء .

رفع عينيه ليرى أخاه الصغير يتحدث بمرح مع وليد الذي يبدو سعيداً .. فشعر بأن (يوماً ما) التي قالها ساري قد حانت ..
لذا توجه إلى رعد وطلب منه رقمه، فأعطاه إياه مستغرباً طلبه .. كان ينظر إلى الصغيرين في بهجة فكتب بضع كلمات وأرسلها ..

لم تمر عدة ثوانٍ حتى رن الهاتف النقال في جيب ساري الذي أنهى للتو مهمته الثانية بعد قرية العنقاء بنجاح .. أخرج هاتفه ..

فقرأ الرسالة مبتسماً :

أيها القط الأسود المخادع ..

شكراً لك

جمال

.....